مذكرات رجل
المخابرات السوفييتية

نضالي السري

كيم فيلبي

ترجمة

حسان اسحق



١٥.٨.١٩٩١م
دمشق
الساعة ٩ مساءً بتوقيت دمشق

My silent war: the autobiography of a spy
by Kim Philby

كيم فيلبي
نضالي السري

مقدمة

هذا الكتاب ليس قصة بوليسية ، وليس فيه شيء من نسج الخيال . في كل سطر من سطوره حقيقة واقعة ، اناس حقيقيون ، حوادث ، ووقائع عاشها الكاتب كيم فيلبي الذي يعتبر من ابرز رجال المخابرات في عصرنا الحاضر .

اسمه معروف جيداً في قارات الارض . فمنذ ثمانية عشر عاماً عندما ظهر كيم فيلبي ـ آس المخابرات البريطانية وأحد قادتها ـ في موسكو اجتاحت الاجهزة البريطانية هزة لم تعرفها من قبل في كل تاريخها الطويل . فقد اجتاح الهلَع اجهزة التجسس السرّية في الغرب وعمت العالم الرأسمالي ضجة عارمة . وحتى الآن لايستطيع الغرب أن يتكلم عنه بهدوء . ولاتوجد مذكرات أو أعمال لرجال السياسة الغربيين في فترة مابعد الحرب العالمية الثانية إلاّ وفيها ذكر لكيم فيلبي . لقد اصبح موضوعاً للروايات والافلام السينمائية . يكتب اليه الاصدقاء وغير الاصدقاء ، قليلهم يلعنه واكثرهم يكتب له بإعجاب وحب . لقد مرّت ثلاثة وستون عاماً على قيام الدولة السوفييتية وهي تزداد قوة وشأناً يوماً عن يوم ونحن نتحدث بشعور من الفخر والعرفان عن أولئك الذين بعرق جبينهم وأرواحهم وضعوا حجر الأساس للثورة ، ودافعوا عنها بنكران ذات وبنوا أخوّة الشعوب الاشتراكية الذي يعتبر الاتحاد السوفييتي محط آمالها . كيم فيلبي هو واحد من أولئك الذين اختاروا طريق النضال الثوري منذ سني الشباب ، هو واحد من أولئك الذين وهبوا حياتهم الواعية كلها لأفكار ثورة اكتوبر وحمايتها .

ولد كيم فيلبي في عام ١٩١٢ . كان والده موظفاً حكومياً بارزاً . وقد

انهى دراسته الجامعية في جامعة كمبردج . وكان والده واحد من المستشرقين البريطانيين الكبار عمل لوقت طويل مستشاراً سياسياً لملك العربية السعودية ابن سعود .

كان كيم في ايام دراسته من الطلاب ذوي الميول اليسارية . وكانت له علاقات وطيدة مع اعضاء رابطة الشباب الشيوعيين ، مع العلم أنه لم ينتسب للحزب الشيوعي البريطاني . وكانت ميوله اليسارية معروفة لدى إدارة الجامعة ، ولذلك لم ترشحه للأعمال الحكومية بعد أن أنهى دراسته فيها . وبعد أن فقد فيلبي الأمل في العمل لدى وزارة الخارجية سافر إلى النمسا لاتقان لغته الالمانية جيّداً .

في فيينا أقام فيلبي علاقات وطيدة مع الجماعات اليسارية وبدأ يعمل معها ومع الصليب الأحمر .

وبعد عودته من النمسا عام ١٩٣٤ قطع علاقته مع ماضيه كلياً وبدأ يعمل مستخدماً في إدارة صحيفة «ايفننغ ستندارت» وقد ساعده في ذلك أحد اصدقاء والده . وهو لوكارت ، رجل المخابرات البريطانية المعروف .

قطع فيلبي كل علاقة له مع رفاقه الذين كانت تجمعه بهم أفكار سياسية واحدة . واصبح يظهر كثيرا في الاحتفالات التي تقيمها السفارة الالمانية حيث سيصبح بعد ذلك بقليل عضو الجمعية الالمانية ـ البريطانية وغدا معروفاً بمواقفه المؤيدة لألمانية . ثم بدأ يعمل في مجلة «جيو باليتيك» الفاشية . واصبحت ميوله الألمانية معروفة جيداً في الرايخ الثالث وغالباً ما استضيف في برلين وقابل موظفي جهاز الدعاية الفاشي الذي كان يقوده غوبلز ، ثم استقبله روبنتروب نفسه .

في عام ١٩٣٦ بدأت الحرب الأهلية في اسبانية . وبعد ستة اشهر من بدء الحرب وبترشيح من الجنرال هاوسهوفيرا وبعض ذوي النفوذ اليمينيين في بريطانيا أرسل فيلبي الى اسبانيا كمراسل لعدة وكالات انباء بريطانية . وبدأ يكتب عن الحرب الأهلية في إسبانيا بأسلوب موالٍ لفرانكو . وبعد ذلك

بقليل عيّن كيم فيلبي مراسلاً وحيداً لصحيفة «التايمز» في الاراضي التي يسيطر عليها فرانكو . لقد كان فيلبي الصحفي يتمتع بسمعة رائعة لدى المتمردين وقد قلده فرانكو بنفسه وساماً لقاء الخدمات التي قدمها له .

ومع بدء الحرب العالمية الثانية اصبح فيلبي مراسلاً رئيسياً لجريدة «التايمز» لدى رئاسة أركان الجيش البريطاني الموجودة في أوروبا . وفي العام ١٩٤٠ وبعد سقوط فرنسا عاد الى وطنه حيث تلقى دعوة للعمل في المخابرات البريطانية «سيكريت انتليجنس سيرفس» . وقد عمل في الفترة الأولى في قسم الاضرابات وكان هذا تحول مدهش بالنسبة لرجل غير معروف : من شيوعي غير ملتزم الى داعيةٍ من دعاة الفاشية ومن عامل لدى الأوساط اليسارية في النمسا إلى موظف في اقدم جهاز سرّي لحكومة امبريالية . كل هذه الطريق قطعها فيلبي في ست سنوات والبعض يقول : «ماالغرابة في ذلك ؟ لقد عرفت المنعطفات التاريخية حوادث مماثلة اكثر غرابة . . » لقد كان تطوّر كيم فيلبي في المخابرات البريطانية من الأمور النادرة التي يصعب تصوّرها . ففي العام ١٩٤١ تسلّم منصباً في جهاز المخابرات البريطانية الخارجي حيث اصبح يغطي اخبار العمليات الحربية للدول الغربية المشاركة في الحلف المعادي لهتلر في اوروبا كافة . وتحت قيادته نفّذت عدة عمليات في النضال ضد المخابرات الفاشية في المانية واسبانيا والبرتغال . لقد اصبح فيلبي منسّق العمليات بين وزارة الخارجية والجاسوسية البريطانية المضادة حيث غدا معترفاً به «كمصدر اختصاصي في معاداة الشيوعية» . واخيراً في العام ١٩٤٤ عهد اليه بقيادة قسم ذي أهمية خاصة لدى المخابرات البريطانية ، «قسم محاربة الاتحاد السوفييتي والحركة الشيوعية العالمية» . ومع تعيينه في هذا المنصب اصبح كيم فيلبي احد نواب رئيس المخابرات البريطانية . وفي العام ١٩٤٦ وتقديراً «لخدماته الخاصة» منح فيلبي وسام الامبراطورية البريطانية . لقد ظهرت خرافات عن مواهب فيلبي . واصبح صعود نجمه في المخابرات البريطانية سبباً لتوقعات الاعلام

الغربي بأنه قد يصبح عما قريب رئيساً للمخابرات البريطانية . في العام ١٩٤٦ ارسل كيم فيلبي في مهمة الى تركيا كرجل للمخابرات البريطانية تحت اسم السكرتير الأول للسفارة البريطانية هناك . ولم يكن اختيار تركيا مصادفة ، فعلى الحدود الجنوبية للاتحاد السوفييتي كانت تحضّر عمليات تجسّسية ضخمة وقيادة هذه العمليات كانت تتطلب وجود رجل مسؤول مجرّب .

من العام ١٩٤٩ حتى العام ١٩٥١ كان فيلبي رئيس بعثة العلاقات التابعة للمخابرات البريطانية في واشنطن . وكان ينسّق عمل المخابرات البريطانية مع المخابرات الامريكية . وبحكم وجوده في هذا المنصب وعلاقاته الشخصية استطاع أن يتغلغل الى اعماق المخابرات الامريكية . ولم يقترف فيلبي كرجل مخابرات أيّة خطيئة . لكن الظروف الموضوعية لعبت دورها في وضعه موضع شك ومع ذلك فإن وزير الخارجية البريطاني هـ . مكميلان سحب علناً كل الاتهامات الموجهة الى كيم فيلبي وذلك عندما بحث البرلمان البريطاني عام ١٩٥٥ مسألة تسرُّب معلومات من الدوائر العليا في الحكومة البريطانية . حتى العام ١٩٦٣ استمر فيلبي يعمل كرجل للمخابرات البريطانية بصفة مراسل للصحف الانكليزية في الشرق الأوسط . وفي العام ١٩٦٣ طار من بيروت إلى موسكو .

لقد قطع كيم فيلبي طريقاً طويلة في جهاز المخابرات البريطانية . واعطى خلال هذه المدة كمية هائلة من المعلومات التي لاتقدر بثمن : نمسا ديلفوس ، المانيا هتلر ، اسبانيا فرانكو ، الحرب العالمية الثانية ، وبعد ذلك «الحرب الباردة» في اقسى أيّامها ـ كل هذه المدة وخلف شخصية الصحفي البرجوازي ، الدبلوماسي ورجل المخابرات كان ينبض قلب شيوعي . وتقديراً لخدماته الخارقة الأهمية التي قدمها للاتحاد السوفياتي منح كيم فيلبي وسام لينين ووسام الراية الحمراء ووسام الصداقة بين الشعوب ووسام «الشجاعة القتالية بمناسبة الذكرى المئوية لميلاد فلاديمير ايليش لينين» وفيلبي

لايزال حتى الآن في المواقع القتالية ممتلئاً حيوية ونشاطاً ويعمل دائماً ، كما أنه يهتم بكل مايجري في العالم ★ . فهو يضطرب لكل ما يجري خارج الاتحاد السوفييتي وداخله . ويحب الجدل الحاد ، والهوكي ، والشعر ولكن اكثر مايحب هو عمله .

في كلمة ألقاها فيلبي في العام ١٩٧٧ امام مجموعة من العاملين في جهاز الأمن القومي السوفييتي بمناسبة مرور مئة عام على ميلاد دزيرجنسكي قال : «لو سئلت عن امنيتي التي أرغب في أن تتحقق لما اخترت سوى أن أعمل ثلاثة وأربعين عاماً أخرى بين رفاقي واصدقائي الذين احببتهم» .

إن حياة فيلبي ، طريقه في الحياة تدعوان للعجب فعلاً . ففيلبي ابن الطبقة الحاكمة الذي يتمتع بكل ميزات وخيرات المجتمع البورجوازي ينسلخ عن طبقته ويهب كل معارفه وطاقته للعمل الثوري . إن مايدعو للتساؤل حقاً هو ما الذي دفع فيلبي لاختيار هذه الطريق ؟ لفهم مثل هذه الظواهر لابد من العودة الى التاريخ . فمنذ اكثر من مئة وثلاثين عاماً قال ماركس وانجلز في «البيان الشيوعي» « . . . . في تلك الحقب ، عندما يقترب الصراع الطبقي من الذروة ، فإن عملية التفسخ داخل الطبقة الحاكمة ، داخل المجتمع القديم كله تأخذ طابعاً حاداً بحيث أن قسماً من الطبقة الحاكمة ينسلخ عنها وينضم الى الطبقة الثورية ، لتلك الطبقة التي لها المستقبل» .

لقد وضعت ثورة اكتوبر بداية عصر جديد في التاريخ العالمي . وغدت بالنسبة لملايين الكادحين في العالم بداية عصر التحرر من الاستغلال والظلم والاستعباد وحيّاها ابرز وأفضل مفكري المجتمع الرأسمالي . ولكن الامبريالية العالمية ومعها كل القوى الرجعية في العالم احاطت السلطة

★ توفي كيم فيلبي في موسكو في احد أيام شهر ايار عام ١٩٨٨ عن عمر يناهز الستة والسبعين عاماً . ودفن فيها في احتفال رسمي شارك فيه عدد من جنرالات جهاز الامن السوفييتي . وكانت رتبة جنرال هي اخر الرتب التي حصل عليها كيم فيلبي في المخابرات السوفييتية قبل تقاعده .

السوفييتية بحلقة ملتهبة قوامها التدخل العسكري الخارجي ضد روسيا السوفييتية ثم تبع ذلك الحرب الأهلية المرعبة . وبعدها بدأت عملية بناء ما دمرته الحرب ووضع اسس بناء المجتمع الجديد . ولكن غيوماً جديدة داكنة بدأت تعكر صفاء الأفق : فالوباء الفاشي بدأ يزحف بغيومه الداكنة على اوروبا : هتلر يغتصب السلطة في ألمانيا ، اليابان تدخلت في الصين ، بدأ يتشكل اتحاد دول المحور . وغدت الحرب والعدوان على الاتحاد السوفييتي هما النتيجة الأكثر احتمالاً لتطوّر الأوضاع الدولية آنذاك . في تلك الفترة بالذات بدأ التكون الروحي والوعي الفكري لدى كيم فيلبي .

لقد وصف الكاتب الانكليزي باتريك سيل ـ الذي لا يحبذ السلطة السوفييتية ـ وصف الوضع الدولي انذاك في كتابه «الطريق الطويل الى موسكو» كما يلي : «ان سياسة الاشتراكيين ـ الديمقراطيين الخيانية وتخاذلهم امام الفاشية دفعت الشباب ذوي الميول اليسارية نحو روسيا السوفييتية ، التي بدورها بدأت تسعى أكثر وأكثر لاستقطابهم . وفي الوقت الذي كان يعاني فيه الغرب الرأسمالي من أزمة اقتصادية خانقة بدأت في روسيا عملية تحقيق أول خطة خمسية . وفي روسيا السوفييتية كان العمل مؤمنا للكل بدون استثناء . واستغلال مواردها الطبيعية اصبح يدخل في سياق السياسة الحكومية . وعندما كان العالم الرأسمالي في وضع انهيار اقتصادي ، كان الاقتصاد السوفييتي ينمو باطراد . لقد كان الاتحاد السوفييتي محطّ انظار المفكرين في الغرب لا لنجاحاته في المجال الاقتصادي فقط وانما لتطوّره الملحوظ في المجال الثقافي ايضاً : فقد صانت روسيا علماءها ، في الوقت الذي اصبح فيه علماء الغرب بدون عمل ؛ وكانت الصحافة السوفييتية تكتب لا عن آخر صرعات نجوم السينما وانما عن الكتاب والروائيين ؛ وحيّا الناس السوفييت مكسيم غوركي حيثما حل وأينما خطب ، وبيعت أعماله بملايين النسخ . لقد حققت الافلام الروسية شهرة عالمية . واهم مافي هذا كله ان روسيا لم تكن تشبه أيّة قومية اخرى . وعندما هبطت سمعة القومية

الى الحضيض بـالنسبة لشيـوعيي الثلاثينـات نتيجة للحـرب العـالميـة الأولى غدت روسيا بالنسبة لهؤلاء معقل مجتمع عالمي جديد» .

لقـد كـانت تلك سنـوات عـظيمـة تحـطم فيهـا القـديم وشرع ببنـاء الجـديد . وفي هـذا الوقت بـالذات اطلق غـوركي سؤاله المشهـور «مـع من انتم ، «يامعلمي الثقافـة» ؟» هذا السؤال كـان يعني كل من آمن بقـوة الخير والنور ، كل من لم يسمح له ضميره أن يعيش بسلام مع البربـرية الفـاشية ، كل من يتصوّر أن الامر لايعنيه .

واليكم مـاكتبـه كيم فيلبي نفســه عن تلك الحقبـة التي تكـونت فيهـا مفاهيمه .

«لم يكن قراري أن أناضل بحماس ضد الرجعية وليد الساعة . وعندما انتسبت في العام ١٩٢٩ الى جامعـة كمبردج ، لم تكن مفـاهيمي قد تشكلت بعـد ولكن عواطفي كـانت مع الفقـراء والضعفاء والمسحـوقين ولم تكن مـع الاغنياء والمالكين . أول تفكير لي في السياسة قادني نحو حزب العمال ، وعلى الفـور اصبحت عضواً في مجمـوعة الاشـتراكيين داخـل الجامعـة . وتـرددت بـانتظام لمـدة سنتين عـلى اجتماعـاتهم ، لكنني لم اشارك كثيـراً في اعـمالهم . وسرعان ما قادتني مطالعاتي السياسية تدريجياً الى فكرةمفادهاان حزب العـمال الـبريطاني بعيـد كل البعـد عن التيار الـرئيسي لليسار العـالمي . ولكن العام ١٩٣١ هو الذي يشكل نقطة التحول في كل مفاهيمي . فهذا العام هو عـام انهيار وانحطاط حزب العمال البريطاني .

لقد انهار هذا الحزب كليا واصبح مشلول القوى امام الرجعيـة في ايام الأزمة ! وعندما تراجع الناخبون الذين يعتـبرون ذوو خبرة في السيـاسة امـام الدعاية الصاخبة ، برزت لديّ شكوك جديدة في حقيقة الديمقراطية البرلمانية البرجوازية بشكل عام .

ولقد اجبرتني هزيمة حـزب العمال في العـام ١٩٣١ أن أتساءل بشكـل جـدي ، إلى أين يسير هـذا الحزب . وكنت قـد اصبحت اشارك بنشـاط في

اعمال مجموعة الاشتراكيين في الجامعة وفي العام ١٩٣٢ ـ ١٩٣٣ كنت المسؤول المالي لهذه المجموعة . وهذا ماسمح لي أن أتعرّف عن كثب الى التيارات اليسارية ، والى الذين كان لهم موقف انتقادي من حزب العمال . لقد ترافقت قراءاتي المكثفة لكلاسيكيي الاشتراكية الاوروبية مع مناقشات حادة وحامية . وكانت تلك مرحلة تحولي البطيء والقاسي من الاشتراكية ـ الديمقراطية الى الشيوعية وقد امتدت سنتين . فقط في السنة الأخيرة في جامعة كمبردج أي عام ١٩٣٣ طرحت كل شكوكي جانباً . ومع حصولي على الدبلوم قررت نهائياً أن أهب كل حياتي لقضية الشيوعية» .

في هذا الكتاب لم يكتب فيلبي عن هذا الجانب من حياته .

عندما ظهر هذا الكتاب لأول مرة في انكلترا قال المؤرخ البريطاني وبروفسور جامعة اوكسفورد هيو تريفير روبير : «ماكتبه فيلبي يعتمد على الحقائق ، وقيمته شاملة وذات اسس ، والصور التي رسمها دقيقة وعادلة وبعضها ـ يحطِّم . ومن الوجهة التاريخية كل ماكتبه فيلبي لايخضع للشك» .

يقتصر كتاب فيلبي هذا على السنوات التي عمل فيها بشكل مباشر في المخابرات البريطانية . فهو يكتب عن عملية تغلغله المعقدة جداً في وسط غريب عن طبيعته وروحه ويكشف عن الآلية التي يعمل بها جهاز التجسس البريطاني . واتجاهاته الرجعية المعادية للشيوعية .

يكتب فيلبي عن تنبؤات المخابرات البريطانية بخصوص الهجوم الفاشي على الاتحاد السوفييتي ، حيث كان رجال المخابرات العاملين لدى وزارة الدفاع البريطانية يتوقعون أن عمليات هتلر العسكرية في الاتحاد السوفياتي لن تطول اكثر من ثلاثة الى ستة اسابيع والأكثر تفاؤلا اعتبروا انها ستطول في أقل تقدير ثلاثة أشهر .

لم تكفّ الدوائر الحاكمة في بريطانيا التي اعماها الحقد على بلد الاشتراكية الأول ، لم تكف عن وضع الخطط لمحاربة الاتحاد السوفييتي حتى

في أيام الحرب العالمية الثانية عندما كانت ترتبط معه بعلاقة تحالف ضد الخطر الفاشي . وفي هذا الصدد يكتب فيلبي يقول بـان : «المخابـرات البريـطانية بدأت قبل انتهاء الحرب مـع ألمانيـا بوقت طـويل تتجـه بأفكـارها نحـو عدو المستقبل . وفي فترة ما بين الحربين انفقت المخابرات البريطانية أكبر قسم من مواردها على عمليات التغلغل في الاتحاد السـوفييتي وعلى حمـاية بـريطانيـا مما كان يطلق عليـه عمومـاً «البلشفية» . وعنـدما اصبحت خسـارة دول المحور للحرب أكيدة ، عادت أفكار المخابرات الـبريطانيـة الى «مجراهـا القديم» . فمنذ ذلك الوقت أي في ايام الحـرب تشكل قسم خـاص بالاتحـاد السوفييتي ونشـاط الشيوعيـين ، ومنذ ذلـك الوقت ورؤسـاء المخـابـرات الـبريـطانيـة يقولون : «لقد آن الأوان لاطلاق العمل ضد الشيوعية» .

لقد بدأ هذا العمل فعلاً وبشكل واسـع جداً في العـام ١٩٤٧ . فمن الحـدود التركيـة بدأت عمليـة سبر الحـدود السوفييتيـة بقصد الاتصـال مـع المنحـرفين والجـواسيس . في لندن وبـاريس وميونيـخ بدأت عمليـة اعـداد مجموعات من المناشفة القوقازيين وغيرهم من اعداء الاشتراكية ، وقذف بهم خلف الحدود السوفييتية حيث كان ينتظرهم الفشل الأكيد .

في ذلـك الوقت ركـزت اجهزة الاستخبـارات في الدول الـرأسـمالية اهتـمامها بشكـل رئيس على استعـمال شبكة المخـابرات الفـاشيـة في حـربهـا الضروس ضـد الاتحـاد السـوفييتي وبقيـة الـدول الاشـتراكيـة . وكـانت المخابرات الامريكية هي التي حملت لواء الحرب ضـد الاتحاد السـوفييتي منذ ذلك الوقت . في العام ١٩٤٧ ونتيجة لإعـادة تشكيل اجهـزة الاستخبارات في الولايات المتحدة تأسست وكالة الاستخبارات المركزية الامـريكية ـ وهي عبـارة عن جهاز تجسسي هـائـل اتخـذ لنفسـه سـلاحـاً هـو العـداء لـلاتحـاد السـوفييتي . ويكتب المؤلف في هذا الكتـاب عن الجـانب الخفي للعمليـات التي تقـوم بها المخـابرات الامـريكية بـالتنسيق مع المخـابرات الـبريطانيـة . ويكتب ايضاً عن مقابـلاته الشخصيـة لرؤسـاء المخابـرات الامريكيـة ي .

غـوفيروأ . هيلمـوس وغيرهمـا ، لقد استقبلت المخـابرات الامـريكية كيم فيلبي بـابتهاج . حيث اعتـبرته اختصـاصياً قـديماً وقـديراً «في الصراع ضـد الشيوعية» وكانوا ينتظرون نصائحه وارشاداته وكان سخياً في تقديمهـا . طبعا لم يتصـور احد من زمـلائه الامـريكيين أنـه يتعامـل مـع ممثـل للمخـابـرات السوفييتية . وأن رفاقة ينشطون في عقر دار الامبريالية العالميـة ـ كشخصيات مسؤولة في وزارة الخارجيـة البريـطانية : غـاي بيرجيس ودونـالد مـاكلين . والكاتب يتكلم عن هذين الشخصين الرائعـين في اكثرمن صفحـة في كتابـه هذا . يطلق كيم فيلبي على كتابه هذا وبكـل تواضـع اسم السيرة الـذاتية . لكن القـارىء سيقتنع بـأن «نضالي السري» هـو بحق كتاب تـاريخي . فمادة الكتاب الغنية بالحقائق تعطي القارىء امكانية للتعـرّف على انسـان شيوعي رائع ، على رجل المخابرات الذي اصبح خرافة حيّة في عصرنا .

و. كيدورف،

من المؤلف

قبل أن أدعو القارىء الى قراءة كتابي هذا أرى من الضروري أن أوضح بعض الأمور . .

حسب اعتقادي ان كل ماهو مسجّل هنا من وقائع لايخضع للشك اطلاقاً . ولكن أرجو من القارىء الكريم الاّ ينسى ان الوقائع المدوّنة هنا مرّ عليها عشرون ، ثلاثون ، وحتى أربعون عاماً ولذلك فمن المحتمل ان تخونني الذاكرة . ولذلك اجريت عملية تمحيص لكل المواد التي على اساسها كتبت هذه المذكرات وإذا كانت هناك بعض السقطات فهي حتما قليلة الاهمية جداً ولاتؤثر على حقيقة الصورة التي رسمتها عن نشاط المخابرات البريطانية والامريكية وغيرها من اجهزة الأمن التي عملت معها وعرفتها عن كثب . كان من المفيد طبعاً فيما لو قمت بكتابة مذكراتي اليومية . ولكن مثل هذا العمل كانت له اخطاره المميتة ، وكان من الممكن ان تؤدي الى نتائج وخيمة .

ومع ان هذا الكتاب يتوخى الحقيقة فقط فهو مع كل ذلك لايدعي الحقيقة بكاملها . وإذا كان هناك من يريد أن يجد في هذا الكتاب معلومات عن المخابرات السوفييتية فسيكتشف انه مخطىء . وإذا كانت اجهزة الامن المعادية تستطيع أن ترسم صورة عامة عن نشاطي كرجل للاستخبارات السوفييتية ، فثمة معلومات لايعرفها احد ولاتمكن معرفتها ، كما وتوجد مجالات فيما لو حاولوا الغوص فيها بحثاً عن الحقيقة فمن المشكوك فيه ان تتكلل محاولاتهم بنجاح ما . ولكنني كرجل في المخابرات السوفييتية أرى من واجبي ألا أزوّد اعداءنا بمعلومات أو حتى ابدد الشكوك التي تعذّبهم كثيراً ولذلك فانا عامداً متعمداً لم اشر من قريب أو بعيد الى عملي مع الرفاق

السوفييت الذي قاربت مدته من ستة وأربعين عاماً .

وهذا طبعا ما يدعو للأسف لأن نشاطي مع المخابرات السوفييتية يعتبر امتع جانب من جوانب نشاطي لا بل امتع جانب من جوانب حياتي كلها . ولكن طالما أن المعركة لاتزال قائمة بيننا ، بلا هوادة ، فإن المبادىء الاساسية لعملنا لا تزال تحتل مكان الصدارة من حيث اهميتها . وأوّل هذه المبادىء بالتعبير الدارج : احفظ لسانك ! (لسانك حصانك إن صنته صانك . . .) ومن المحتمل ان يسمح الزمن لبعض رفاقي الشباب أن يجدوا في المستقبل البعيد صورة مفصلة عن عمل منظمة الاستخبارات التي كنت احد اعضائها أما أنا فأشك في أنني سأكون عندها على قيد الحياة .

إن زوجات اكثر رجال المخابرات يتحملن عبئاً من نوع خاص فليست لهن الامكانية للمشاركة في عمل أزواجهن ، ولاحتى معرفة اي شيء عن اعمالهم .

إلى أولئك الزوجات كلهن اهدي كتابي هذا ، وأخص بالذكر زوجتي - روفي .

على شفير الهاوية

في ايام عملي الأولى مع الاستخبارات السوفييتية تعرضت لخطر جدي كاد أن يؤدي بي الى الموت . والواقع انني نجوت بأعجوبة . كان ذلك في نيسان من العام ١٩٣٧ . وكنت عندئذ اعمل في اشبيليا في جنوب اسبانيا . كانت مهمتي ان احصل على المعلومات المتعلقة بالنشاط العسكري للفاشيست . وكان علي ان أوصل هذه المعلومات شخصيا الى الرفاق السوفييت عن طريق زملائي السوفييت الموجودين في فرنسا أو في حال الضرورة الى الموجودين في بريطانيا . وللاتصال السريع كان لدي بعض العناوين السرية داخل الحدود الاسبانية .

قبل ان اغادر انكلترا استلمت لائحة تعليمات باستعمال جهاز الارسال مكتوبة على ورق رقيق يذكرني بورق الرسم . وكنت احتفظ بهذه اللائحة عادة في جيبي الخاص بالساعة . وهذه اللائحة هي التي كادت ان تجعل مني طعاما لرصاص الكتائب الفاشية .

بعد عدة اسابيع من العمل المضني في اشبيليا وضواحيها ، لفت انتباهي اعلان عن حفلة لمصارعة الثيران ستقام يوم الأحد التالي في كوردوف . وكان خط الجبهة وقتئذ يمر على بعد خمسة وعشرين كيلومترا الى الشرق من كوردوف ، بين مونتورو وأنروفر وفكرة مشاهدة مصارعة الثيران عن كثب اغرتني كثيرا . فقررت قضاء عطلة نهاية الاسبوع في كوردوف .. توجهت الى مقر القيادة العسكرية لمنطقة اشبيليا للحصول على الاوراق الضرورية ، لكن الرائد قائد الموقع أخبرني أن الذهاب الى كوردوف لايتطلب اي تصريح وكل مايلزم هو أن آخذ أول قطار متوجه الى هناك .

اخذت قطار يوم الجمعة الصباحي من اشبيليا وشاء حظي ان اكون في

غرفة واحدة مع مجموعة ضباط من سلاح المشاة الايطالي . وبما أنني احس أنني دائما في خضم العمل فقد قررت ان ادعوهم لتناول الغداء في كوردوف ولكنهم اعتذروا بكل لطف لأنهم سيكونون مشغولين جدا في بيوت الدعارة قبل سفرهم .

حجزت حجرة في فندق «ديل غران كابيتان» . وبعد ان تناولت غذائي وحيداً قررت القيام بنزهة في شوارع كوردوف .

بعد أن تجولت في الشوارع حتى منتصف الليل وأنا أشعر بأنه ليست لدي اية اهتمامات عدت الى الفندق واضجعت للنوم .

قطعت نومي طرقات عنيفة على باب غرفتي . نهضت وفتحت الباب . فاقتحم غرفتي اثنان من الحرس المدني الذي كان يقوم بمهمات الشرطة . وأمراني أن أجمع اشيائي فوراً وأذهب معهما الى الموقع . وجواباً على سؤالي «لماذا ؟» رد اقدمهما وهو برتبة عريف «هذا امر» .

في تلك الأيام كنت أنام بعمق ولم يكن في صالحي ايضاً أنني أقف امام جنديين وأنا في ثياب النوم ، أما هما فمسلحان ببندقيتين ومسدسين وينتعلان زوجين من الأحذية العسكرية الثقيلة . لم أكن قد صحوت من النوم تماما بعد ، كنت اشعر بارتخاء وضياع لدرجة ان عقلي لم يكن قد بدأ حتى تلك اللحظة يعمل بسرعة الضوء . ولمعت في ذهني فكرة : كيف استطيع التخلص من الاوراق «الخيانية» الموجودة في جيب بنطالي ؟ لقد فكرت بغرفة الحمام ، ولكن غرفتي كانت بدون غرفة حمام . وبينما كنت أرتدي ثيابي كان الجنديان قد فتشا فراشي وقلبوه رأساً على عقب . قد استطيع ان اتخلص من تلك الاوراق اللعينة في طريقي الى الموقع ؟

عندما اصبحنا في الشارع اقتنعت أنه من الصعب جداً التخلص من أوراقي . فقد كنت احمل حقيبتي بيد ويدي الثانية حرة وكان الجنديان يسيران خلفي بكل عناد ويراقبان كل حركة من حركاتي وقد احسست انهما مهيئان تماما للانقضاض في اية لحظة . وهكذا دخلت الموقع ولاتزال حزمة

الورق الفضيحة ، في جيبي . كانت القاعة مضاءة بمصباح كهربائي وحيد دون إطار ، وكان الضوء الساطع منتشراً على الطاولة الملساء الموجودة في القاعة . هنا في هذه القاعة وجدت نفسي امام شخص قصير القامة ، ليس شاباً ، أصلع يحمل رتبة رائد في الحرس المدني . ودون ان يرفع عينيه عن الطاولة استمع الى تقرير العريف الذي رافقني .

وبعد أن فحص جواز سفري بدقة متناهية سألني : «اين تصريحك بالسفر الى كوردوف ؟» . فأعدت على مسامعه ماقيل لي في موقع اشبيليا ولكنه لم يعر كلامي اي انتباه . «ليس صحيحاً ، ـ قال ، بلهجة من لايتحمل اي اعتراض ـ إنه من المعروف للجميع ان الذهاب الى كوردوف يتطلب تصريحاً خاصاً» . ما الذي جاء بي الى كوردوف ؟ الرغبة في مشاهدة مصارعة الثيران ؟ اين بطاقتي إذاً ؟ انها ليست معي ؟ لقد وصلت لتوي وقررت ان اشتريها غداً في الصباح الباكر «قصة فريدة» وهكذا . خلال الحديث تكون لدي اعتقاد بأن الرائد يحمل روح العداء لبريطانيا . فقد كان هؤلاء كثر على جبهتي القتال . عقلي بدأ يعمل بسرعة مذهلة في البحث عن مخرج من هذا الوضع اللعين ، الرائد ومعه الجنديان اللذان اعتقلاني بدؤوا عملية تفتيش حقيبتي بحذر شديد . ولكن نعومتهم أذهلتني . فقبل البدء في التفتيش ارتدوا القفازات . لقد فتشت محتويات الحقيبة بدقة متناهية . تحسسوها باصابعهم ووضعوها مقابل الضوء ليتسنى لهم رؤيتها من خلفه . وعندما لم يجدوا شيئاً في ثيابي الداخلية الموجودة في الحقيبة بدؤوا بقياس الحقيبة من الخارج والداخل بكافة الاتجاهات ولم ينسوا أن يقرعوا سطحها . وعندما اتضح لهم ان محتويات الحقيبة لاتحمل أية ادانة تنفسوا الصعداء . لقد اصبح املي كبيراً في ان معاناتي قد شارفت على النهاية وانهم الآن سوف يأمرونني بأن أغادر المدينة في أول قطار . ولكن شيئاً من هذالم يحدث .

«والآن ـ قالها الرائد بلهجة عدائية ـ ماذا بالنسبة لك ؟» وطلب مني ان اقلب جيوبي . والآن كان لابد من التحرك بسرعة . وبسرعة فائقة

انتزعت دفتري من جيبي وقذفت به بقوة على الطاولة . وزحف الدفتر بحركة سريعة مستقراً في الطرف الآخر من الطاولة . وكما توقعت فقد قذف الثلاثة بانفسهم وراء الدفتر محاولين التقاطه من وراء الطاولة . في تلك اللحظة وعندما كانت امامي ثلاثة أزواج من الثمر انتزعت من جيبي بسرعة فائقة تلك الاوراق اللعينة ، لففتها وجعلتها كتلة صغيرة ثم ابتلعتها . وعندها قلبت جيوبي بكل برودة اعصاب . لم يلجأ الرائد لتجريدي من ثيابي لمتابعة التفتيش . ولكنه بدلاً من ذلك القى على مسامعي محاضرة جافة وقصيرة عن الشيوعيين الذين يقودون الحكومة البريطانية وأمرني أن اغادر كوردوف في اليوم التالي . في صباح اليوم التالي عندما كنت ادفع حسابي للفندق ظهر صديقا الأمس وطلبا مني ان يرافقاني في السيارة التي حجزتها لتوصلني الى محطة القطار . وقبل أن اصعد الى القطار اهديتهما علبتين من السجائر البريطانية . وعندما تحرك القطار كانا يلوحان بأيديهما مغتبطين .

لم يكن ذلك من المواقف البطولية . حتى لو استطاعوا ان يجدو لائحة التعليمات باستعمال جهاز الارسال لكان جواز سفري البريطاني قد انقذني من الحكم بالاعدام . ولكن كانت لدي الامكانيات الكافية مستقبلاً للتأكد من ان مواقف من هذا المستوى ليست خطيرة لدرجة كبيرة . لأنه يتوفر الوقت الكافي لتحديد نسبة الخطر وإمكانية تفاديه . وبالمقابل فإن أحداثاً سخيفة من مستوى الحادثة التي رويناها آنفاً غالباً ماتكون لها اخطار مميتة .

الفصل الاول

جهاز الامن يقبلني للعمل

اذكر انني أول مرة اقمت فيها علاقات مع الاستخبارات البريطانية كانت في العام ١٩٤٠ . ولقد أثار اهتمامي هذا العمل منذ عدة سنوات . كان ذلك عندما كنت في المانيا النازية وبعدها في اسبانيا حيث كنت اعمل مراسلاً «للتايمز» لدى القوات المسلحة للجنرال فرانكو . ومنذ ذلك الحين اصبح لدي امل في انهم سيتصلون بي ويدعونني للعمل لديهم . لقد كنت متأكداً من انني سأتعرف فوراً على الرجل الذي سيبدأ العمل معي بحذر لجذبي للعمل في الاستخبارات البريطانية . لقد تصورته نحيفاً ، لفحته الشمس ، له شاربان مقصوصان وقد يكون ذا افق محدود . وهو حتما سيعرض علي العمل باسم الوطن وسيحاول اغرائي كثيراً عندما يتكلم عن الراتب . ولكن للأسف الشديد لم يحدث اي شيء من هذا كله . فضابط الاستخبارات الوحيد الذي أعارني اهتماماً ما في اسبانيا كان المانياً ويدعى الرائد فون دين اوستن ويدعى ايضا خوليو . قتل في حادث سيارة في بداية الحرب العالمية الثانية في نيويورك . لقد دعاني عدة مرات الى مقر عمله في بورغوس وكان يشرح لي الأمور ويوضح الاحداث على الخرائط المعلقة هناك والمرسومة بخطوط ملونة واضحة . طيلة سنة كاملة كان يدعوني لتناول الغذاء معه وقد اعتقدت أن هذه العلاقات مفيدة . ولكن تبين أن ذلك الاهتمام كله بي له هدف واحد ـ هو أن أقدمه لامرأة كانت من معارفي . وفور ان قدمته اليها عرض عليها العمل لدى المخابرات الالمانية والقيام بمهمات من

نوع آخر . ولكن المرأة صدتـه بعنف ورفضت العمل ، وبعـدها انفض عني نهائيا .

عنـدما انـدلعت الحرب العـالمية الثـانية ارسلتني «التـايمـز» الى آبـاس كمراسل لها معتمد لدى قيادة الجيش البريطاني . في العـام ١٩٤٠ عدت الى انكلترا حيث سأجلى مرتين من بولونيا وبريست . في لنـدن كتبت مقالتـين أو ثلاثاً لصحيفـة «التايمـز» حيث لخصت نتائـج العمليات الجـارية واشرت الى نتائجها الاخلاقية من مختلف الجـوانب . ولأذكر مـا كتبت آنذاك . ولكنني بعـد أن قرأت مؤخـراً بعض الملاحـظات الشحيحـة عن تلك العمليـات في مـذكرات ليـدل هـارت انتـابني شعـور من الارتيـاح لـلانهدام الحـاصـل في ذاكرتي . يجب ان يكون كل ماكتبته هراء سخيفاً . وهكذا اصبحت في نهاية ايلول دون عمـل . «التايمـز» لم تبد رغبتهـا في القـطيعـة معي أو في اغـراقي بالعمل . وهكذا كان لـدي كثير من الـوقت لأضع خـطط المستقبل ، واهم مافي تلك الخطط كان تحديد الاساس الذي كان علي ان ابني عليه مستقبلي .

لقد قررت ان اترك العمل في «التايمز» بالرغم من الـود الذي اظهـروه لي . ولكن الرقابة العسكرية الميدانيـة خنقت فيَّ كل رغبـة للعمل كمـراسل حربي . كانوا يطلبون إلي كتابة البرقيـات الصحفية دون ذكـر اسماء الامكنـة الجارية فيها العمليات ودون ذكر أرقام أو اسماء الوحدات المحاربة والقارىء يفهم مـاذا اقصد . فيما بعد اصبحت الـرقابـة العسكريـة البريـطانيـة عـلى الصحـافة اكـثر ليبراليـة . ولكن القيود الغبيـة التي وضعتهـا تلك الـرقـابـة كانت مشابهة (ليس لصالحها) لخبرة المراقبين المشرفـين على عمليـات الرقـابة لدى الجنرال فرانكو ، والتي انتقدت بشدة في حينها .

ولكن قبل ان اقرر الانفصال عن «التايمز» كان عليّ الّا انسى ان موعـد استدعائي للخدمة الالزامية بات قريبـاً . لم تكن لدي ادنى رغبـة في ان افقد السيطرة على مصـيري ولذلـك فأنـا مع قلقي المتصـاعد بـدأت اطرق ذلـك

«الحديد» الذي اعددته لنفسي بالشكل الذي كنت اريد تطويعه به . كنت على موعد سيشمل الحديث فيه جوانب واسعة ومختلفة . كان هذا الموعد مع فرانك بورتش وقد اعدّه صديق مشترك . لقد كان بورتش واحداً من الشخصيات اللامعة في مدرسة اعداد الكوادر العاملة في مجالد الشيفرة للكشف عن الكود السري «الرمز» للعدو والصديق . ولكنه لم يقبلني بحجة كلها ازدراء وهي انه لايستطيع ان يدفع لي راتبا بمستوى العمل الذي كان علي القيام به . بعد ذلك ذهبت حزينا لإجراء فحوصي الطبية .

بعد عدة ايام اتصل بي رئيس قسم الخارجية في «التايمز» رالف ديكين . عقد حاجبيه وارسل الي نظرة حادة ، نفخ خديه ومسح جبينه ، وهذا مايفعله عادة عندما يكون غصبيا منزعجاً . قال لي بأن نقيباً ما ، يدعى ليسلي شيردان اتصل وسأل فيما إذا كان لدي وقت للقيام بعمل ما لصالح الجيش . شيردان لم يعجب ديكين مع أنه قدم نفسه كصحفي لأنه كان يعمل في «الديلي ميرور» باختصار لم يكن ديكين يريد المشاركة في هذا العمل وحاول اقناعي بذلك ايضا . أنا لم اسمع من قبل بشيردان هذا ولكنني قررت ان اطرق الحديد وهو ساخن . وفورا تجاوبت مع العرض . وبعد مدة وجيزة كان لي لقاء مع سيّدة تدعى مارجووري ميكسي . تم اللقاء بالقرب من فندق «سانت أرمين» غير بعيد عن محطة «سانت جيمس بارك» . لقد كانت تلك السيدة المتقدمة في السن لطيفة جداً . ولم اكن اعرف ، وحتى الان لا اعرف بالضبط ماهي المكانة التي تشغلها في الجهاز الحكومي الانكليزي . لكن السيدة ميكسي كانت تتكلم بكل ثقة ومن الاكيد انها كانت تستطيع ان ترشحني لعمل مهم . في بداية حديثنا تطرقت الى امكانية العمل السياسي ضد النازيين في اوروبا . على مدى عشر سنوات كنت مهتماً بشكل جدي في السياسة الدولية فقد تجولت في اكثر بلدان اوروبا . وخلال هذه الفترة كانت قد تشكلت لدي قناعات وتصورات واضحة نوعا ما عن النشاط النازي في اوروبا ولذلك فقد كنت جاهزاً تماماً للنقاش مع السيدة ميكسي حول هذا

الموضوع . بالمناسبة فإن قلة قليلة من الانكليز كانت تهتم بهذا الموضوع آنئذ ولذلك فإن تصورات السيدة ميكسي نفسها عنه كانت غير واضحة .

لقد ربحت الجولة الاولى . فالسيدة ميكسي طلبت مني ان اقابلها مرّة اخرى في المكان نفسه وفي الوقت نفسه بعد عدة ايام . وجاءت هذه المرة بصبحة غاي بيرجيس الذي كنت اعرفه جيّداً ، وأخضعاني لامتحان جديد ، شجعني حضور غاي ولذلك رحت اتصرف وأرد على الاسئلة وكأنني اتكلّم في مؤتمر صحفي . وكان محدثاي يتبادلان النظرات من وقت لآخر . لقد أومأ غاي برأسه باستحسان . ادركت فيما بعد ان جهودي كانت عبثاً لأن قرار قبولي كان قد اتخذ مسبقا . وعندما ودعتني السيدة ميكسي قالت انه في حال موافقتي على العمل فإنه يترتب علي ان استقيل من العمل في «التايمز» وأضع نفسي تحت تصرف غاي بيرجيس في شارع كينغستون في المنطقة نفسها التي يقع فيها فندق «سانت أرمين» . «التايمز» لم تستقبل الأمر بارتياح وديكين نفخ خديه بانزعاج ولكن لم يكن باستطاعته ان يعرض علي اي عمل أفضل . لقد اعتقدت ان مستقبلاً باهراً ينتظرني في عملي السري ، وقررت ان من واجبي الاستفادة من تجربة الرجل الذي اعرفه في الاستخبارات البريطانية . ولذلك فقد قضيت عطلة نهاية الاسبوع كلها مع غاي بيرجيس . وفي الاثنين التالي اعلمته رسمياً بمباشرتي العمل .

كانت الادارة التي ارتبطت بها تدعى سيكريت انتلجنس سيرفيس . وتدعى ايضاً بالشعبة رقم ـ ستة . والناس العاديون البسطاء يعرفونها فقط باسم شعبة الخدمات السرية . لقد تعجبت من السهولة التي قبلتني الاستخبارات البريطانية للعمل معها . وقد اتضح فيما بعد ان التقرير الوحيد الذي طلبوه عن ماضي كان من الفرع رقم ـ خمسة (الاستخبارات المضادة) حيث اخذوا معلومات عن عائلتي واعطوا التقرير الوجيز التالي : «سمعته حسنة» ـ أما الآن فإن كل فضيحة مع جاسوس جديد تستدعي

طـوفانـا من «التحقيقات القـطعية» .[1] ولحسن الحظ أنـه في ذلك لـوقت لم يسمعـوا حتى «بالتحقيقـات القطعيـة» . في الاسابيـع الاولى اعتقـدت انني اعمل في مكان آخر غير المكان الذي حدثوني عنه [2] وانه هنـاك استخبارات سرية تعمل في الـظل تلك هي الاستخبارات الحقيقيـة والسرية القـادرة على تنظيم عمليات ضخمـة تبرر الشـك الابدي للفـرنسيين في نشـاطها . ولكن بعـد قليل اتضـح ان مثل تلك المنـظمة غـير مـوجـودة . وكـانت تلك نهايـة الاوهام ولكن ضياع تلك الاوهام لم يلحق بي اي أذى .

قادني غاي الى المكتب المخصص لي . وهو عبارة عن غرفة صغيرة فيها طاولة وكرسي وهاتف ، خرج من مكتبي بعصبية ولكنه مالبث ان عـاد ومعه حزمة أوراق طرحها أمـامي على الـطاولة . وبعـد ان تأكـد انني جاهـز تمامـاً للقيام بعملي زف الي خـبر الراتب الـذي سيكون كـراتبه تمـاماً ـ ٦٠٠ جنيه استرليني في العام . وتـدفع النقـود شهريـاً دون اية حسميـات من قبل ادارة الضرائب . ولاحاجة لان ادس انفي في كل شلن سرّي ! ووراء هذا التسـتر الشـديـد في دفـع الـراتب الشهـري كـان يختفي التمييـز الكبـير في رواتب العاملين . كل علاقة بين الرئيس والمرؤوسين ، نـظرياً ، تعتـبر اتفاقـاً سرياً خـاصاً . وإذا استـطاع الرئيس ان يتفق مـع مستخدم أو آخـر بسعـر أقـل ـ بغض النظر عن المواهب والامكانيات لدى كل منهما ولم يفعل ، فيعتـبر ذلك من قبيل الغباء . ولكن الشروط التي طـرحت علي ، كـانت مواتيـة ومقبولـة تماما بـالنسبة لي . ولم يـطل بي الوقت حتى تعـرفت على بعض زمـلائي الذي سيعملون معي مستقبلا

كـان القسم الذي اعمـل فيـه يـدعى القسم «د» (التخـريب) . لم أر نـظامه الـداخلي ابـداً هذا إذا كـان موجـوداً . ولقد فهمت من أحـاديثي مع

(١) تحقيق دقيق ومفصل للمواد والوثائق المتعلقة بالشخص المعني وكل الوجوه التي لها علاقة به .

(٢) لقد اوصلني الى هذه الفكرة احد زملائي من موسكو . لقد قادته تقاريري الاولى الى التفكير في انني اعمل في هيئة اخرى لا في الاستخبارات البريطانية .

زملائي ان مهمة القسم هي ـ العمل على شل قوة العدو وضرب مصادر قوته بطرق غير عسكرية . رئيس القسم كان يدعى لورانس غراند ، قدموني اليه بعد ان سجل اسمي في سجل العاملين . كان الرجل طويلاً ونحيلاً يشبه بشكل عجيب الصورة التي رسمتها للرجل الذي كان من المفروض ان يدعوني للعمل في المخابرات البريطانية عندما كنت في اسبانية والمانية . والفرق الوحيد بينهما هو انه كان من المستحيل ان نقول بان المقدم ذو افق محدود . لقد كان يلمّ بكل المواضيع الداخلة في مجال عمله ويتصرف بكل ثقة . ولايتردد امام اية فكرة تأتيه لحل موضوع ما مهما كانت تلك الفكرة وحشية .

في ذلك الوقت كان الاهتمام الاكبر للمخابرات البريطانية منصبا على تفجير البوابات الحديدية على نهر الدون بهدف منع وصول النفط الروماني للالمان . وكنت قد رأيت تلك البوابات من قبل ولذلك فقد أذهلتني برودة الاعصاب التي يتكلم فيها زملائي عن تفجير البوابات . كانت تلك هي البوابات القائمة على قنال ريجنتس . فهذه المهمة الكبرى لم تكن تتناسب مع الامكانيات المحدودة المتوفرة لدى القسم «د» في العام ١٩٤٠ . ولذلك وعندما حاولوا تنفيذ المهمة كشفها البوليس اليوغسلافي في مهدها مما وضع الحكومة البريطانية في موقف حرج . وفي المستوى نفسه من اللاتناسب بين الامكانية والهدف تميزت محاولات ضرب تموين الالمان بالنفط عن طريق «ضرب حقول النفط الموجودة في باكو» . لقد تأتى لي ان أرى حقول باكو فيما بعد ولم استطع ان اتصوّر كيف كان الانكليز سيحققون هدفهم فيما لو شرعوا في تنفيذه من قواعد لهم في القاهرة . حتى في العام ١٩٤٠ كنت اعتبر مثل هذا الكلام فانتازيا فارغة لو لم احضر بنفسي المؤتمر الصحفي الذي عقده الجنرال باوتل رئيس اركان اللورد غورت . اعلن الجنرال باوتيل عندها انه لصعوبة اختراق خطوط زيغير فإنه من الافضل ان نوجه ضربتنا عبر

القفقاس [1] . وفي حال نجاح هذه المهمة نكون «قد احدثنا شرخاً كبيراً في جبهة الدفاع الشرقية الالمانية الضعيفة وفتحنا الطريق للهجوم الفرنسي - البريطاني» . ولم تكن لدى غرانت على الاطلاق اية موارد لتحقيق افكاره التي كان يقدمها له نوابه بسخاء . وكان من السهل جداً لجهازه اللندني ان يقيم في غرفة استقبال كبيرة . وهذا ماحدث فعلاً عندما كنا نجتمع في فيلته الواقعة خارج لندن حيث كان الموضوع الابدي لنقاشنا هو الخطط والخطط ثم الخطط . في الاستخبارات كان غرانت يحصل على حصة الأسد . وكان القدامى ، والاقسام الاكثر رسوخاً في جهاز الاستخبارات هذا ، ينظرون بعدم الرضى للمحاولات التي كانت جارية للحصول على أكبر قسم من الكعكة «السرية» . انطلاقاً من المقدمات الراسخة بان العصيان واعمال التخريب بحد ذاتها ليست عديمة الخطر (ليس من الصعب معرفة المسؤولين عن اعمال التفجير) سارع موظفو الاستخبارات البريطانية للوصول الى استنتاجات لا اساس لها وهي : ان التفجير هو عملية قليلة الاهمية ومضيعة للوقت وللنقود ، لذلك فإن من الافضل تحويل كافة الموارد والامكانيات للعمل التجسسي الهادىء . ولذلك فإن مطالب غرانت للخزينة وللقوات المسلحة كثيراً ماجمدت في جهاز الاستخبارات نفسه . وفي احسن الاحوال كانت غرانت يحصل على دعم شحيح .

في قسم التخريب السياسي برزت مشاكل معقدة وكبيرة لأن الأمر هنا كان يخص الاتجاهات الاساسية في السياسة البريطانية . فالحكومة البريطانية كانت تساند الملوك والدكتاتوريين في اوروبا وكانت لاتطيق القيام بأي نشاط تخريبي هناك . والاحزاب الوحيدة التي كانت تستطيع ان تبدي مقاومة ضد هتلر هي احزاب اليسار ـ الاحزاب الفلاحية والشيوعيون . فقط هؤلاء كانوا يخاطرون بحياتهم ويقفون ضد المحتلين . ولكن لم يكن من المتوقع ان

---

(١) الكلام هنا يجري عن خطط الهجوم التي كانت تعدها الدوائر الحاكمة في بريطانيا على الاتحاد السوفييتي في ذلك الوقت بحجة كاذبة مؤداها انه يجب توجيه ضربة لألمانيا من الشرق .

يفعل هؤلاء ذلك لأجل الحكومة البريطانية التي تقف دائماً مع الملوك والامراء الذين كانوا طيلة فترة مابين الحربين يلاحقون ويحاولون قمع الاتجاهات اليسارية كلها . وهكذا بدأ ايديولوجيو اعمال التخريب عملهم في ظل صعوبات جمة وضعتها امامهم وزارة الخارجية حيث هناك فهموا في وقت متأخر جداً ان شمس الملوك والامراء المحببين جداً الى قلوبهم قد غربت والى الابد . ولذلك فإنه ليس من المستغرب ان تلجأ حركة المقاومة الاوروبية لهتلر الى الاتحاد السوفييتي ، والحد من التأثير السوفييتي في فرنسا وايطاليا واليونان امكن فقط بوجود اعداد ضخمة من القوات المسلحة البريطانية والامريكية هناك .

وبهدف المحافظة على السرية التامة وللحفاظ على راحة كل ضباط الاستخبارات البريطانية فقد اعطيت لائحة للرموز المتداولة في المراسلات والمكالمات .

كان يرمز لغرانت طبعاً بحرف «د» كان يرمز له رئيس القسم ب«١» ، «د» وهكذا . وكان يرمز لمساعديهم بإضافة رقم ما إلى رمز رئيس قسمه «د١» مثلاً . كان رمز غاي «دو» وحسب قائمة الرموز هذه كان يجب ان يرمز اليَّ بـ «دو١» ولكن غاي شرح لنا بكل لطف بأن الرمز «دو١» يعني درجة معينة من الخضوع لأوامره ، وهو يريد ، ان نكون متساويين . لقد وجد غاي حلاً لذلك التقسيم على الشكل التالي بدلاً من الرقم اضاف هو حرف «د» وهكذا انفتحت امامي ابواب المستقبل كموظف في الاستخبارات البريطانية تحت رمز «دود» .

لم يكن الفرع «دو» المكان المثالي لانطلاقي كرجل طموح . كنت اريد ان اجد مكاني بنفسي ولكن قبل ان آتي بأية حركة علي ان افهم تركيبة الجهاز الذي اعمل فيه وماهي طبيعة الاعمال التي يقوم بها . لقد حول غاي القسم الى فبريكا لصنع الافكار واعتبر نفسه ذلك الكرسي الذي ما ان يدور حتى تبدأ الافكار بالظهور ، تماما كالشرر . ولم يكن يهتم بأين يسقط هذا

الشرر . كان يقضي وقتا طويلا في مكاتب الاخرين يعرض عليهم افكاره . وعندما يكون متحمساً فقهقهته تملأ أرجاء الكوريدور . وبعد صباح مليء بالعمل كان غاي يدخل عادة اليّ ويعرض علي ان نشرب .

في يوم من ايام شهر تموز دخل عليّ على غير عادته ، ومعه بعض الاوراق . كانت تلك صفحات من تقرير مقدم له . غرانت وافق على محتويات التقرير ، ولكنه اقترح دراستها بعمق وتحديد الموضوع . ومن اجل هذا كان غاي بحاجة لمساعدتي . لقد افرحني هذا كثيراً . لقد علمتني تجربتي الطويلة ان «مساعدة» غاي تعني تحريره من اي عمل كان . ولأنه مضى علي اسبوعان ولم اقم بأي عمل فقد كنت سعيداً للقيام باي عمل يعرض علي . اخذت منه الوثائق ، أما هو فقد جلس على زاوية طاولتي محاولا اصطياد تعبير الرضى من على وجهي . كانت تلك هي سلعته المفضلة ـ مجموعة من الافكار الضائعة في تعابير منمقة (لقد حفظ غاي مجموعة من التعابير التي تصلح تقريباً لكل المناسبات ولكنه لم يكلف نفسه ابدا عبء إعادة النظر فيها) . لقد اقترح انشاء مدرسة لتعليم العملاء اساليب العمل السرّي . وهذا الاقتراح بحد ذاته لايثير العجب ولكن الذي يثير العجب هو انه حتى الآن لم يتقدم احد باقتراح كهذا . ومدارس من هذا النوع لم تكن موجودة حتى ذلك الوقت . لقد حاول غاي اثبات ضرورة وجود مثل هذه المدارس التي اصبح معترفاً بضرورة وجودها الآن ، ولكن في ذلك الوقت كانت هذه فكرة جديدة . وضع غاي الخطوط العريضة لبرنامج التدريس في هذه المدرسة . وفي نهاية التقرير اقترح تسمية المدرسة باسم غاي فوكس وهو متآمر تعيس الحظ كشفته مخابرات اليزابيت . لم يكن باستطاعة غاي ان يقترح تسمية المدرسة باسم «كلية غاي بيرجس» ! وأخيراً يبدو انه اصبح لدي ما اعمله . لقد قسمت الموضوع الى اجزائه الاساسية : البرامج ، انتقاء المستمعين ، السرية التامة ، المكان . . . إلخ . وعن كل فقرة كتبت تقريراً موجزاً . حيث امطرني غاي بوابل من اقتراحاته ، كان

يبدو انه فقد كل رغبة لانبجاس فكرته الاخيرة ولكن الامر لم يكن كذلك . كان يعرف بأن غرانت قرأ كل وثائقي وشكل لجان لدراستها .

أنا شخصياً لم يجذبني العمل في اللجان لا آنئذ ولا في اي وقت كان . كل لجنة كان لها فزّاعتها . فزّاعة لجنتي في مسائل التعليم كان عقيد يدعى تشيدسون ، لعب دورا بارزا جدا في انقاذ كمية كبيرة من الالماس الصناعي من براثن هتلر في هولندا ولكن بالنسبة لي كان تشيدسون رجلاً مملاً . فقد خيّل له ان اوروبا تجتاحها الفوضى وهو يدافع بيأس ضد الجزّارين الذين يسيدون ويميدون في القارة الاوروبية . صادفته يوما ما يمشي باتجاهي في شارع لاور - ريجتس - ستريت . بعد دقيقة رآني وجلس في مكانه . ثم نهض بسرعة ورفع ياقته واختفى في زاوية . ضرورة مدرستنا أصبحت قضية حتمية .

في ذلك الوقت كان غاي يردد دائماً «أنه لابد من الأخذ بتلك الفكرة» وتم تحقيق ذلك الى حد ما . فبعد فترة وجيزة علمت ان بناء بريكاند وبيري - هول الذي كان سابقاً بناء مدرسياً يقع قريبا من هافورد قد تم اختياره ليكون مقراً للمدرسة المزمع انشاؤها .

لقد قدموني للنقيب بيترس الذي عيّن رئيساً للمدرسة ، فدعاني وغاي اكثر من مرة لتناول الغذاء معه وليسمع منا رأينا في العمل الجديد . كانت عيناه زرقاوين صافيتين وله ابتسامة ناعمة جداً . ومع الفارق الكبير بين مزاجه ومزاج غاي فقد انجذب اليه كثيرا وكان غاي يأخذ السجائر من على طاولته دون كلفة . لكن تعاوننا معه لم يدم طويلا . فقد قلدوه بعد فترة وجيزة وسام فيكتوريا بعد الموت حيث قتل كما يبدو نتيجة لشجاعة غير ضرورية . حزنت كثيرا لسماعي ذلك النبأ فقد أخذتني فكرة ان بيترس لن يسمع ابدا تقليده هذا الوسام . لقد كان رجلاً عاطفياً جداً . وكان المستمعون في مدرستنا يحبونه كثيراً .

كان الجهاز التدريسي في المدرسة يتألف من مختلف الأنواع البشرية .

فقد كان هناك الرجل الهزلي جورج هيل [١] ـ مؤلف عدة كتب عن مغامراته في روسيا السوفييتية ، واحداً من الناس القلائل الذين لازالوا على قيد الحياة ، والذين لايزالون حتى الان «يضعون الرمال في الأكياس» . لقد ارسل هيل الى موسكو كممثل لإدارة العمليات الخاصة [٢] . سُرّ اصدقائي في موسكو كثيرا لهذا الإجراء لأنهم كانوا يعرفون كل شيء عن هيل . وكان هناك في مدرستنا رجل مختص بالمتفجرات يتميز بانعدام روح المرح لديه . هذا الرجل كان يدعى كارل . طلبوا منه مرة أن يلقي محاضرة بيانية عن اساليبه التدريسية امام وفد من مدرسة المخابرات العسكرية التشيكية ، فقام كارل بوضع لغم في الطريق المؤدية الى مخبره ولكن البعثة ذهبت في طريق آخر الا بعض الضباط انقذتهم المصادفة فقط من صدمة الانفجار .

كان هناك ايضا عامل المطبعة التشيكي . وهو رجل شاحب ضخم الجثة . اما الشخصية الاخرى المثيرة للشفقة والتي كانت تعمل معنا فهو الاشتراكي الديمقراطي النمسوي فيرنير . لقد كانوا يهيئونه لقيادة المجموعة النمسوية من المستمعين ولكن تلك المجموعة لم تظهر ابدا . كان فيرنر يتكلم الالمانية فقط مما اضطرني لهدر كثير من الوقت لأشرح له كل شيء ، وفي نهاية المطاف قدم استقالته وتم تعيينه في مكان آخر . لقد أغرقت الغواصة التي كانت تقله الى مصر في البحر المتوسط .

ألمع شخصية بيننا كان تومي هاريس ، تاجر اللوحات والمنحوتات المعروف . لقد قبلوه بترشيح من غاي كمدبر للبيت لأنه وزوجته كانا

---

(١) عمل بروس لوكارت ، واحد من العملاء الانكليز السريّين في روسيا بعد عام ١٩١٧ ، وكان كذلك احد اصدقاء سيدني ريلي . لقد كان يحتل مركزا مرموقا إبان الحرب العالمية الثانية في إدارة العمليات الخاصة . لقد ارسله تشرشل الى موسكو كممثل لإدارة العمليات الخاصة ـ والمخابرات البريطانية .

(٢) إدارة العمليات الخاصة انشأها تشرشل في العام ١٩٤٠ وكانت مسؤولة عن قيادة العمليات السرية ضد دول المحور ، خاصة العصيان والتخريب .

طباخين ممتازين . وكان الوحيد بيننا الذي استطاع ان يقيم علاقات واسعة مع المستمعين في المدرسة . لقد كان مستوى هاريس اعلى بكثير من مستمع في تلك المدرسة فقد وهبته الطبيعة عقلا لامعا . بعد فترة وجيزة تحول تومي للعمل في الفرع رقم خمسة حيث اصبح هناك مبادراً وقائداً لواحدة من أروع عمليات المخابرات في ذلك الوقت . اما بالنسبة لي فقد كان الوقت الذي امضيته في تلك المدرسة ظلمة لم يتخللها أي بصيص . لقد أضاءت أيامي هناك فقط صداقتي مع تومي والتي أثمنها عالياً .

كان عدد المستمعين عندنا قليلاً جداً ـ مجموعتين صغيرتين من البلجيكيين والنرويجيين ومجموعة اكبر بقليل من الاسبان . وبلغ مجموع المستمعين خمسة وعشرين مستمعاً . ومن المشكوك فيه ان يكونوا قد حصلوا على شيء مفيد في تلك المدرسة . فلم يكن لدينا تصور واضح عن المهمات التي سيقوم المستمعون بتنفيذها في المستقبل . لا أنا ولا غاي لم نستطع ان نحصل على أية معلومات عن ذلك من القيادة في لندن . وبكلمة أخرى لم يكن لدينا مانقوم به من اعمال ، كنا نتحدث كثيراً مع بترس ونساعده في اعداد التقارير الى القيادة . وقلما استلمنا اجوبة عليها . اتضح شيء واحد : لم نستطع ان نعلّم الاسبان القليل واكثرهم كانوا سابقاً مخربين من استور (اكثرهم عمال مناجم سابقاً) .

لقد كان باستطاعة الانكليز ان يستخلصوا درساً مفيداً في مجال العمل السري فيما لو درسوا بموضوعية فشلهم في هذا المجال . وهذا ما اصبح واضحاً بعد سنوات قليلة . وبما اننا كنا نعد اناساً سيعملون في أرض العدو ، وكان من المحتمل أن يقعوا في أيدي عدو لذلك تقرر تغيير اسماء الضباط العاملين في هذه المدرسة واعطاؤهم اسماء سرّية . وهكذا اصبح الاسم الجديد لبيترس هو تورنيلي ، هيل ـ ديل وهكذا . لقد اعطى غاي لتصوراته الصبيانية حريتها فاختار لي اسماً لا أجد من اللائق حتى تسجيله

هنا . الوحيد الذي احتفظ باسمه الحقيقي لأسباب لاأزال أجهلها هـو تومي هاريس .

في يوم ما ، بعد الحرب العالمية الثانية قـابل مصـادفة رئيس مجمـوعتنا البلجيكية ، وهو رجـل يثير الاشمئـزاز ويتغنى دائماً بمنشئـه الارستقراطي . لقد قبل تومي دعوته لشرب الشاي . وعندما تذكرا المدرسة اخـبره هذا بـأن المستمعين عرفوا اسمائنا السرية كلها ماعدا اسماً واحداً فقط . وعندمـا سألـه تومي عن ذلك الشخص الـذي لم يعرفـوا اسمه السري فـرد البلجيكي «هو أنت» . قريباً سيختفي اسم غاي بيرجيس من هـذه الصفحات لـوقت ما . ولـذلك آمـل ان تعذروني فيـما لـوقصصت لكم واحـدة من تـزويـراتـه غـير المقصودة للحقائق

في احدى امسيات الصيف كان بيترس مستلقياً في فراشـه بعد اصـابته المفاجئة بالأكزمة وقد أطلق شعر ذقنه لإخفـائها . كنـا نجلس حولـه نحتسي البارتفيين وكان بيننا شخص سمّى نفسه هيزليت . فجأة انطلقت صرخة من الحديقة وتبعتها اصوات بلغات مختلفة . الذين سمعوا ذلك دخلوا الى البيت فورا وكل منهم اكـد بأنـه رأى عدداً من المـظليين ينـزلون قـريبا من البيت ، البعض اكد بأن العـدد ثلاثـة واخرون قـالوا بـأن العدد يصـل الى العشرة . عندما سمع بيترس ذلك امر البلجيكيين بارتداء بذاتهم وتثبيت الـرشاشـات على النوافذ . وهذا يؤمن قطاعاً ممتازاً للرمي عبر باحات الرياضة المدرسية . لاأعلم ماذا كان سيحدث فيما لو دخل الالمان من الباب الرئيسي . «طالمـا ان الالمان قد نزلوا ـ قـال بيترس لهيـزلينت ـ يجب ان انهض» . بعد ذلـك اقترف بيـترس خطيئـة لاتغتفر بـإصداره امـراً الى غاي للتـأكد من حقيقـة مايجـري وإعطاء تقرير عن الحادث الى الضابط المناوب في لندن . بدأ غاي عمله بكل اخلاص . لقد سمعت مقاطع من تقريره التلفـوني . «كلا ليس لـدي شيءٌ أضيفه لما قلت . . . . كـلا تريـدونني أن أزوّر المعطيـات ، اليس كذلـك ؟ اعد ؟ . . . في منطقة هارفود شوهـدت مظلات هـابطة عـددها يـتراوح بين

الثمانين والصفر . . . كلا انا لااستطيع ان احدد صحة تقارير مختلف الشهود . من الثمانين حتى الصفر . هل فهمته ؟ ساتصل بكم مرة اخرى فيما إذا احتاج الامر ـ الى اللقاء» . بابتهاج واضح ذهب غاي لاعطاء تقرير . «لست ادري ماذا يمكنني ان افعل فيما لو نهضت ـ قال بيترس ـ ولكن عليّ طبعاً ان أتسلم القيادة» .

مرّت ساعة أو ساعتان ولم يحصل اي شيء آخر . البلجيكيون بحزن جمعوا رشاشاتهم وذهبنا للنوم . في اليوم التالي ، صباحاً ، بدأ غاي يمزح في التلفون . موزعاً الاخبار السارة . تبين ان الضابط المناوب ايقظ رئيسه وهذا الاخير اتصل بوزارة الدفاع . المجموعة العسكرية الشرقية استنفرت واقسامها المدرعة احتلت مواقعها حسب الخطة القتالية . لقد طرح غاي مجموعة اقتراحات عما جرى . يجب الاشارة الى ان الرقم «صفر» قلته له أمس والرقم «ثمانون» كان من عنده . نحن الاثنان كنا على خطأ . قذفوا بمظلة واحدة فقط . وثبتوا فيها لغماً ، سقطت المظلة وبقيت معلقة على الشجرة ولم ينفجر اللغم .

كانت ايام الصيف تمضي مسرعة ولم نتسلّم اية تعليمات جديدة من لندن . كان النقيب يزداد حزناً يوما عن يوم . لقد اعتقدت ان سبب ذلك هو الاكزمة التي يعاني منها . ولكن تبين فيما بعد ان السبب هو التغييرات الجارية في مواقع المسؤولية والتي حتى الآن لم يعلن عنها رسمياً . وماحدث هو التالي : لقد تم فصل الفرع (د) عن المخابرات البريطانية ووضع تحت تصرف وزير الاقتصاد الحربي الدكتور دالتون . فقد ذهب غرانت وحل محله فرانك نيلسون . وهو رجل اعمال يفتقر الى روح المرح ولم يتح لي ان أقوّم مواهبه أبداً . بعد زيارة كولين غابيس [1] لبيريكند و بيري، ومعه مجموعة من الضباط الجدد الذين تمايعوا على بعضهم وعلينا ايضا احس بيترس بفارق

---

(١) في العام ١٩٣٩ كان مساعداً لرئيس قسم المخابرات في وزارة الدفاع .

عميق . لم نفاجأ عندما دعاني وغاي ليخبرنا بأنه قضى الليلة الماضية كلها في اعداد كتاب استقالته . قال ذلك بصوت حزين وكأنه يعترف بسقوطه وبعدم الاهتمام الذي يعامل به . بعد ذلك استعاد زمام نفسه وتكلم بثقة ولأول مرة منذ مدة طويلة أضاءت وجهه تلك الابتسامة اللطيفة .

قبلت استقالة بيترس دون اية تعقيدات . ونحن بدأنا إعادة تشكيل مؤسساتنا بلا مبالاة . أما الخطوات التي اتخذت بهدف المحافظة على السرية فلا زلت اذكرها بضبابية . كان علينا إخفاء المستمعين الموجودين لدينا في مكان ما حتى يحين موعد استخدامهم . لقد علمت فيما بعد ان فيرنير واثنين منهم قد قتلوا . النرويجي وقع في يد الالمان واطلقوا عليه النار فور عودته الى النرويج . البلجيكي قذف بالمظلة فوق بلجيكا ولكن المظلة علقت في جناح الطائرة واختنق المسكين فوراً من شدة سرعة الطائرة . تركنا تومي هاريس بامتعاض ظاهر . واصبح فيما بعد يعمل في الفرع رقم خمسة . أما أنا وغاي فقد ذهبنا الى مركز جديد في إدارة العمليات الخاصة الواقعة في شارع بيكر - ستريت ، ٦٤ .

مع ازدياد حجم العمل ظهر عدد اكبر من الوجوه الجديدة . فقد تم اختيار الناس من الوسط المصرفي ، والمحامين ورجال الاعمال الكبار . كان صعباً جداً غياب الزملاء القدامى . لقد قام نلسون بعملية تنظيف شاملة ودقيق . ساعده فيها عدد من العاملين القدامى اخص بالذكر منهم كلود دنسي وديفيد بويل اللذين سيأتي الحديث عنهما فيما بعد . لقد كانوا مصممين على استئصال كل الذين كانوا متعاونين ومقربين من غرانت .

وصلت عملية التنظيف تماماً الي وتوقفت عند اسمي . عندما زارني غاي في احدى الامسيات كان صامتاً على غير عادته . وتبين فيما بعد انه وقع «ضحية البيروقراطية» لقد طردوه . كان من الطبيعي ان اعتبر ان أيامي بل ساعاتي اصبحت معدودة . ولكن مر شهر وشهر آخر وأنا لاأزال أتسلم

مغلفات تحتوي على راتبي الشهري . يبدو ان إدارة العمليات الخاصة كانت بحاجة لخدماتي أو اعتبرت انني لست من الشخصيات المهمة حتى تخصني بشرف الطرد من العمل لديها . غاي لم يستكن . ووجد لنفسه مقراً في وزارة الاعلام حتى انه بدأ يتكلم بازدراء عن علاقتي التي طالت مع «حفرة القبر» .

الفصل الثاني

العمل في إدارة العمليات الخاصة

احسست بانقباض عميق نتيجة لفشل تجربتنا التعليمية الاولى ولكنها مع ذلك اتت علي بفائدة معينة ، فقد عدت الى لندن حيث اصبحت قريباً من ابواب اصحاب السلطة وصانعي القرارات الكبرى . عملياً لم انتفع شخصياً وبشكل مباشر من ذلك الا بالقليل . لم يكن لديماافعله بالتحديد ولذلك لم يكن بامكاني ان اطالب بمكان عمل خاص بي . كنت دائماً اتسكع في دائرة بيكر ـ ستريت ، أحاول ان اطبع في ذهني صور الاشخاص الجدد وان اتعرف الى الحد الممكن على التركيبة التنظيمية لإدارة العمليات الخاصة . وكانت تلك هي أصعب المهمات في ذلك الوقت . لقد اتخذ الكل وضع المشغول جدا حتى ولو كان شغلهم في تحريك اثاث المكاتب . في مثل هذا الوضع من النشاط المحموم كان اكثر مايعذبني هو ان لاشيء لدي افعله . لقد ذكرني وضعي هذا بحفلة كوكتيل حيث الكل يعرف بعضهم بعضاً الا انت ـ لاتعرف احدا .

كنت اتصور ان مايجري لامثيل له ولكن في الواقع كنت ، من غير مادري ، أشهد ألام ولادة منظمة جديدة . وإذا كنت قد أضعت الأيام الأولى لوجود تلك المنظمة ، كما كنت افهمها آنئذ ، اي بشيء من عدم الجدية ، فاعتقد انني معذور . في فترة مابين الحربين كانت المخابرات البريطانية تتمتع بسمعة خيالية لم يكن لها اي اساس في الواقع العملي . ومثل هذا التصريح يمكن ان يقابل بعدم الثقة لأنه لاتوجد اية مواد منشورة

تؤيده . ولكن هل هـذا اقل واقعيـة مما حـدث للاسـطول البريـطاني عندمـا أرسل الى الاسكندرية لتخويف موسوليني ومنعه من غزو اثيـوبيا ولم يستـطع ان يفعـل شيئاً لعـدم توفـر الذخـيرة لديـه ؟ والحقيقة هي ان الاستخبـارات البريطانية مثلها مثـل الجيش البريـطاني نفسه كـانت مهملة . فبالاضـافة الى الصعوبات المالية لم يكن هنـاك تنسيق كافٍ للعمـل بين إدارة الاستخبـارات وباقي منظماتها . فإذا كان الجيش متخماً بالضباط الـذين مازالـوا يعتبرون ان الخيالة هي اساس القوة الضـاربة في الجيش حتى بعـد معركـة كامـبر [1] فإن الاستخبارات البريطانية (رئيسها ادميرال) كانت متخمة ايضا باناس لاعمل لهم في الاسطول . ولاتجوز إدانة الادميرال سينكلر [2] ، لأنه كان مجبـراً على اختيار رجاله من الاوساط التي يعرفها جيداً وذلك نظراً لقلة الموارد التي كـان يتلقاها .

فيـما يتعلق بالتنـظيم ، عملياً لم يكن مـوجوداً . وتحت تـأثـير الخـوف الذي بثه «الطابور الخامس» في اسبانيا بدأ الفكر العسكري الـبريطاني يـدرك اهمية العمليات السرية وقام بتنظيم شحيح لبعضهـا حيث تم تكليف القسم «د» بتنظيم بعض العمليات الدعائية الصاخبة حول بعض حوادث الشجاعة التي جاءت وليدة اليأس . في ذلك الوقت كان موضوع «الدعاية السوداء [3] قـد آل الى بعض المنظمات الحكـومية التي ضـاعت في التناقضـات واصبحت تشوّش على بعضها بعض . ولذلك فليس من المستغرب ان تكون النتائج في السنوات الأولى للحرب متواضعة جداً .

«لم تكن قائمة نجاحاتنـا (في صيف ١٩٤٠) مشجعة . وفي حسـابنا لم

---

(١) لأول مرة في تاريخ الحروب تشترك الدبابات بـأعداد كبـيرة في معركـة ضخمة من هـذا النوع . حدثت معركة كامبر من ٢٠ـ٣٠ تشرين الثاني للعام ١٨٧٠ .

(٢) رئيس استخبارات البحرية البريطانية حتى العام ١٩٢١ . رئيس الاستخبارات الـبريطانيـة من ١٩٣٦ حتى وفاته في العام ١٩٣٩ .

(٣) الدعاية السرية او الدعاية التخريبية .

يكن هناك سوى بعض العمليات الناجحة . كان عندنا بعض العمليات ، اقولها بتصرف ، في البلقان ، وحتى هناك لم نستطع ان نحقق اي نجاح باهر . . . . محاولات التخريب التي قمنا بها في البلقان لم تسفر عن اية نتائج اللهم الا إثارة اعصاب وزارة الخارجية البريطانية . اما عملياتنا في اوروبا الغربية فكانت مبكية . لأنه لم يكن لدينا اي عميل من البلقان حتى المانش . امر غريب ، لكنها الحقيقة» . ذلك هو الاساس الذي اعتمدنا عليه في كتابة ماورد في الجزء الاول . بالمناسبة ، كان ذلك كله جزءاً بسيطاً من خطة اصلاح واسعة وشاملة . ففي العام ١٩٤٠ عهد تشرشل الى الدكتور دالتون وزير الاقتصاد الحربي بالاشراف على إدارة كافة العمليات السرية ضد العدو . وبناء على ذلك أنشأ دالتون إدارة العمليات السرية الخاصة . في البدء كانت الادارة مقسمة الى ثلاثة اقسام : Co.1 ـ «الدعاية السوداء» ، Co.2 ـ لتنظيم عمليات العصيان والتخريب و Co.3 ـ للتخطيط . اعيد تسمية Co.1 فيما بعد بإدارة الحرب السياسية اما Co.2 فأصبحت تحمل الاسم الذي سميت به الادارة كلها فيما بعد وهو ادارة العمليات الخاصة . اما الـ Co.3 فلن آتي على ذكرها بعد الآن لأنها اغرقت نفسها في الاوراق التي انتجتها بنفسها وانتهت غير مأسوف عليها .

بدأت اتعجب من وضعي ، الى متى يمكن ان أظل أتسلّم راتبي الشهري دون ان اقوم بأي عمل مقابل ذلك . ولكن كولن غابيتس فجأة دعاني اليه . فبالاضافة لواجباته الاخرى عهدوا إليه بتحضير برامج التدريس . ويبدو انه سمع باسمي بعد فشل تجربة بريكندو ـ بيري . في نهاية الحرب اصبح غابيتس شخصية مشهورة جداً . يسرني كثيراً انه من اول لقاء لي معه عرفت ان الرجل ينتظره مستقبل باهر . كل ماهو موجود في مكتبه يدل على مدى الحيوية التي يتمتع بها الرجل . كان غابيتس يتكلم ببشاشة وود ظاهرين .

لقد بدأ حديثه معي بسؤال عن امكانياتي في الدعاية السياسية .

أدركت انـه يجب الاجـوبـة المختصرة والـدقيقـة . فـأجبتـه بـان مثـل هـذه الامكانيات موجودة لدي . ثم اشار الى انه يزمـع تأسيس مـركز تعليمي من مستـوى عـال يشمـل مختلف اختصـاصـات العمـل التجسسي . لقـد كـان غـابيتس عازمـاً على إحـداث دورة خاصـة بتعليم اساليب تـنظيم العصيـان وعمليات التخريب . وكـان يبحث عن الاستاذ المنـاسب لهذا الاختصـاص فطلب مني ان اعد له مشروع برنامج لهـذه المادة . وعنـدما ودعني الى البـاب قال لي : «اجعله مختصراً» .

عندما شرعت في وضـع البرنـامج فهمت ان معلومـاتي في هذا المجـال ينقصها الكثير . فلم تكن لدي اية تجربة في مجال الاعلانات الحديثـة ، ذلك الاسلوب الذي كان يستخدم على نطاق واسع في مجال الدعاية . لقد تعودت على مدى سنوات ان اعد اخبـاراً عن الأحداث وهـذا يعتبر خـطأ فاحشـاً في مجال الدعاية التي تعتمد اساساً على الاقناع . لقد بدأت اهدىء نفسي بفكرة ان العـالم عرف رجـالاً لامعين جـداً في المجال الـدعائي مـع انهم لم يكـونـوا يفقهون شيئاً في اساليب الدعاية لسلعـة كالصـابون مثـلاً . ولكن مثل هـذه التبريرات لم تكن مقنعة . بدأت العمل بمساعـدة بعض المعارف من الـوسط الدعائي ممـا ساعـدني في الحصول عـلى كمية لابـأس بها من المعلومـات التي كـانت تكفيني لقـراءة عـدد من المحـاضرات . والشيء الاســاسي هـو انني وجدت انه يمكن الاعتماد على عمال الاعلانات في مسألتـين فقط هما : أولاً ، عندما يحذرونك من ذلك العمل وثانياً ، عندما يطلعونك بانفسهم وبشكـل مفصل على اساليبهم القذرة .

بعد عدة ايام تجمعت لدي كمية لابأس بهـا من المواد التي يمكنني الآن على اساسهـا ان اشرع بوضـع البرنـامج الـذي كان غـابيتس بحاجـة اليه . ولتـأكيد وتثبيت القنـاعـة اكـثر عمـدت الى سرد امثلة من الحيـاة السيـاسيـة الاوروبيـة وخاصـة سياسـة الفاشيست . لقـد كثّف مشروع البرنـامج حتى اصبح بحجم نصف صفحة واخبرت غابيتس هاتفياً بـان الوثيقـة جاهـزة .

بعـد خمسة دقـائق اتصل بي واخـبرني بانـه دعي الى اجتماع خـاص في مكتب تشالز همبرو [1] لبحث المشروع مساء ذلك اليوم نفسه . كان ذلك اول عمل حقيقي لي في المخابرات البريطانية بعد سقوط فرنسا .

لقد اصطحب غابيتس معه عدداً من العاملين في جهازه . حيّانا همبرو بانشراح ظاهر مما اضفى على الجو نوعاً من الشعور بالمساواة بين الحاضرين . ثم قرأ بهدوء وإمعان الورقـة التي حضرتها بنفسي . وعنـدما انتهى من قـراءة المشروع اشار الى ان هذا المشروع يعتـبر وثيقة ذكيـة جداً . حسب تعليـمات غابيتس اعلن كل الموجودين من العاملين لديه موافقتهم على ذلك . ومما اثار عجبي فعـلاً ان غابيتس ابتسم بسعـادة . «هذا هـو بالضبط مـا أردته ـ قـال غابيتس ، مؤكداً كلماته . ـ بالضبط ماتقوله ، يا تشارلز ؟» همـبرو لم يقل اي شيء محدد : ومن الممكن ان يكون قد خطر له شيء مختلف تمامـاً «والآن ضع هذا البرنامج» ، قال غابيتس لي . وانتهى الاجتماع هنا .

والآن اصبح لدي العمل الذي يخولني حق الحصول على مكان للعمل في دائـرة غابيتس . لم اعـد اعمل في البنـاء رقم ٦٤ وانمـا في مكـان اعـلى في بيكر ـ ستريت باتجاه ريجنتس ـ بارك . بدأت بصياغة الـبرنامـج ، وتوسعت في مسـوداتي حتى اصبحت بحجم محـاضرات كـاملة . ومـع ذلـك لم اكن سعيداً . فقد اقترح ان تكون المدرسة الجديدة في بيولي في هيمبشير بعيداً عن لنـدن . فهذه المسـافة كـانت تعيقني في تنفيذ اهـدافي الاخـرى . كنت عـلى وشك ان اترك هذا العمل كله ولكن هناك نقطتـان منعتاني من تنفيـذ ذلك . أولاً كان علي ان احافظ على مكاني في ذلك العالم السري وكان من الغباء ترك هذا العمل قبل ان تظهـر آفاق جـديدة لعمـل جديـد في ذلك العـالم . ثانيـاً العمل الاضافي لايعيق ابدا وانا لا اخسر شيئاً فيما لو استطعت ان اعـرف ماذا

---

(١) لقد عمد تشرشل إبان الحرب الى إعطاء اصدقائه مناصب عالية في إدارة العمليات الخاصة وفي اجهزة المخابرات البريطانية . وتشرشل لم ينس تشالـز همبرو الـذي قاد إدارة العمليـات الخاصـة في عامي ١٩٤٢ ـ ١٩٤٣ .

يجري في تلك الشبكة الواسعة من المؤسسات التعليمية التابعة لإدارة العمليات الخاصة . وقررت ان ابقى الى ان يظهر شيء ما واضح واكيد في مكان آخر .

لم اشك لحظة في أن إدارة هذه المؤسسات التعليمية توافق على خروجي ساعة اشاء . فأنا اعلم تماماً انني لااصلح لأكون محاضراً . فمنذ ان كان عمري اربع سنوات ظهرت عندي تأتأة احيانا كنت اتغلب عليها واحيانا لم استطع . بالاضافة لذلك لم اكن واثقاً من محتويات محاضراتي . لم تخفني ملامح المعركة السياسية التي كانت تلوح في الافق . فلم يكن في بريطانيا انئذ سوى عدد قليل من الذين يستطيعون الخوض في هذا المجال اما انا فكانت لدي تجربة متواضعة في الصراعات السياسية . الشيء الوحيد الذي كان يثير قلقي هو معرفتي السطحية باساليب الدعاية . الحقيقة انني كنت قد كتبت بعض المناشير ولكني لم اكن افقه اي شيء عن كيفية طباعتها . لم يبق الا القليل للرحيل الى بيولي ، فقررت ان استغل هذه الفترة لسدالثغرات التي تعاني منها معلوماتي . لقد قررت ان اكثر من ترددي الى أبورن ـ ايبي حيث كان ليبر يترأس دائما اجتماعات العاملين في مجال «الدعاية السوداء» لدى إدارة الحرب السياسية . (على مدى اكثر من اربع سنوات لم يتغير شيء في ليبر . قابلته في العام ١٩٤٥ . لم يمل من تقتيل الذباب في السفارة البريطانية في اثينا عندما بدأ اليونان يغلي) كنت اشير بتعجب الى ان ليبر يستطيع ان يثور . حتى انهم اشاعوا بان ليبر غالبا ما كان يصطدم مع دالتون وغالبا ما عانى الدكتور الطيب من تصرفات ليبر . وهذا ماورد فعلاً في مذكرات دالتون نفسه .

إذا كان بيكر ـ ستريت قد اصبح مقراً للاعمال المصرفية والنشاطات القانونية فإن اوبورن اصبح مقراً لأهل الاعلانات الدعائية . لقد كانت تلك المؤسسة تذكرني بفرع لتحضير الاعلانات . طبعا كانت هناك استثناءات مثل ديك كروسمن ، كون او هيل ، سيغتون ديلمير وفالنتاين ويليامز ولكن

اكثرية العاملين هناك كانوا يمتلكون التجربة التي احتاج اليها .

في البدء كانت علاقة العاملين بي متحفظة . كما في كل المؤسسات ، خاصة الجديدة منها ، في أوبورن كانوا يتجنبون الناس الغرباء . ولكن بعد ان تبيّنوا تواضعي واستعدادي لتقبل نصائحهم تغيّرت علاقتهم معي كثيرا نحو الاحسن . بدا واضحاً ان عملاءنا في اوروبا سوف يمارسون نشاطاتهم الدعائية اردنا ام لم نرد . في هذا الوضع قررت «ان اضع قدمي في باب» اوبورن ـ الجهاز المسؤول عن «الدعاية السوداء» كرجل مفيد لهم في هذا المجال . بعد عدة زيارات حق لي شرف تناول الفطور مع ليبر ، فاليتناين ويليامز الذي شاركنا الفطور عرض علي ان يوصلني الى لندن في سيارة الخدمة «الرولس رويز» . أردت ان اثرثر معه حتى ولو كان عن كلابفوت [1] ، ولكنه بعد ذلك الفطور الدسم نام طوال الطريق .

في ذلك الوقت كنت امارس اهم جانب من جوانب أبحاثي كلها . فان تتعلم اساليب الدعاية ، قضية مهمة ، ولكن محتوى الدعاية لا يقل اهمية عن اساليبها . عاجلاً ام آجلاً كان على عملائنا ان ينفذوا مهمات ما ولذلك كان لابد من تحضيرهم مسبقاً لتقبل طابع تلك النشاطات . وهذا ماكان يتطلب إعداداً خاصاً لهم من الناحية السياسية بحيث انهم عندما يصلون الى البلد الذي سيمارسون فيه نشاطاتهم تكون لديهم فكرة عن خطط الحكومة الانكليزية . ولم يكن هناك امل في الحصول على مثل هذه الارشادات في اوبورن . حتى ليبر نفسه كان يشكو من عدم كفاية التعليمات السياسية من لندن .

لهذا كله توجهت لمقابلة هيو غيتسكيل ، الذي كنت اعرفه قبل الحرب عندما كنا نناقش مسألة النمسا . في ذلك الوقت كان غيتسكيل السكرتير الشخصي لدالتون وكانت لديه معطيات وثيقة وكان على علاقة وثيقة مع غليدفين جيب الذي كلفه دالتون بالمسؤولية في بيكر ـ ستريت . كان

(١) بطل الدراسات الجاسوسية التي كتبها فاليتناين ويليامز .

غيتسكيل يدعوني عادة للقاء في مطعم رخيص بالقرب من بيركلي ـ سكفير وكنا عادة نبحث القضايا التي تخصني حول طعام مؤلف من البطاطا والنقانق وأحياناً كنا نذهب في نهاية تناول الغذاء الى مقر عمل ريسكي غيتسكيل او كنا نذهب ونتشاور مع جيب وحتى مع الدكتور نفسه . وكان هذا الأخير جاهزاً في اية لحظة لاستقبالنا وتقديم الويسكي (وكنت قد امتدحت غابيتس بانه رجل ذو افق واسع . ولكن للحقيقة اعترف بانني لم الاحظ في غيتسكيل اية مواهب من تلك التي يتمتع بها قائد من الدرجة الاولى شبيه بأولئك الذين ظهروا فيما بعد) .

كانت نتائج تلك المقابلات بشكل عام مخيبة للآمال . دالتون كانت له صعوباته مع وزارة الخارجية . وفي وزارة الخارجية كانت الآراء مختلفة كما الوضع بين الناس العاديين . كانت الآراء ضد هذا التحرك او ذاك تؤخذ بعين الاعتبار والنتيجة لم تكن تثير الحماس . كان يتضح ان الانكليز في اغلب الاحيان لايريدون اكثر من اعادة الوضع في المانيا الى ماقبل هتلر : العودة الى اوروبا ، حيث تسود بريطانيا وفرنسا بكل هدوء بمساعدة الحكومات الرجعية ، وان يبقوا اقوياء لحفظ النظام داخل بلدانهم وان يكونوا «الجدار الوقائي» ضد الاتحاد السوفييتي .

لكن وجهة النظر هذه كانت مناقضة للاهداف التي قامت من أجلها إدارة العمليات الخاصة والتي مهمتها حسب تصريح تشرشل اشعال الحريق في اوروبا . ولكن كان من المستحيل ان تلبي الجماهير الدعوة لاعادة النظم القديمة التي تحطمت سمعتها نهائياً . والسبب الآخر الذي كان يعيق تحقيق مثل تلك الدعوة آنئذ هو الاثر النفسي الذي خلفه زحف هتلر المظفر الى اوروبا . كان بإمكان إدارة العمليات الخاصة ان تنشط بشكل فعال ولكن كان عليها قبل الإقدام على اية خطوة ان تحدد الانعطاف الذي حدث في مزاج اوروبا ، بعد عدة سنوات من استمرار الحرب وبعد ان سحق النازيون الناس وتسلّم هؤلاء مسألة تقرير مصيرهم بأيديهم .

تلك الامزجة كان عليها ان تكون ثورية حتما ومن ثم فإنها لا بد وان تسعى للتخلص والى الابد من اوروبا اعوام العشرينات ـ الثلاثينات .

لابد ان دالتون وغيتسكيل قد لاحظا التناقض القائم بين اهداف إدارة العمليات الخاصة ووجهة نظر وزارة الخارجية . ولذلك كان عليهما ان يتحركا بحذر لانه لم يكن لديهما اي شيء يطرحانه مقابل ذلك . الاثنان كاشتراكيين ملتزمين عقدا الآمال على ان احد المفاتيح الرئيسية للمشكلة يوجد بيد اتحادات العمال الاوروبية . ولكن كان من المشكوك فيه ان تقدم اتحادات العمال هذه على اية مغامرة بطلب من الحكومة البريطانية لمجرد ان اشتراكيين كإتلي ، بيفن دالتون وغيرهما موجودون فيها . لقد ظن كثيرون ان انكلترا ايام الحرب هذه تختلف كلياً عن انكلترا بلدوين وتشمبرلين ، ولكن الم يكن هذا قناعاً آخر يختفي وراءه خائن اثيوبيا واسبانيا وتشيكوسلوفاكيا ؟ إن عدم قدرة القادة الانكليز على شن دعاية ثورية حقيقية اكدت كل ذلك ، وكانت انكلترا طيلة اعوام الحرب تفتقر الى القيادة السياسية الحقة . كل منظمات المقاومة كانت تتلقى من بريطانيا ذخائر ومعدات ولكن قلائل هم الذين كانوا يسمعون صوت لندن . لقد ظهرت منظمات المقاومة وتبين الناس طريقهم الصحيح ولم يكن ذلك الطريق ما اختارته لهم الحكومة البريطانية . وهكذا فإن بعض النجاحات في مجال التخريب المادي ترافقت مع فشل نسبي في المجال السياسي . ولا مجال هنا للكلام عن العقبات الخارجية والداخلية التي كانت تعيق نشاط إدارة العمليات الخاصة .

وجودي في بيولي لم يرضني ابداً وليس لذلك اية صلة بزملائي هناك . بالعكس علاقتي معهم كانت لصالحي تماماً . قائد المدرسة العقيد الشاب جون مان لم يكن يشبه العاملين هناك ولم يكن رجلاً سرياً فوق العادة ولم يكن غبياً . بالعكس كان ضابطا ذا تفكير سليم . لقد استطاع بسمعته الطيبة وتأثيره الواسع ان يجمع ذلك الجهاز المتنوع من العاملين في مدرسته . وكان يتعامل معهم وكأنه كبيرهم اما موقفه من القيادة فكان انتقادياً . كان رئيس

أركانه رجلاً مسناً خدم ابان الحرب العالمية الاولى وكان يجب ان يسمي نفسه رجـل استخبارات حتى نقي العـظام ولكن عـلى مـا يبـدو ان كميـة النقي في عظمه كانت غير كافية . فنادراً ما كان يأتينـا بمسألـة مهمة ولكن عـزفه عـلى البيـانو لم يكن سيئـاً . أما كبـير المعلمين بيـل بروكـر فكان شخصيـة لامعـة استـطاع ان يتبوأ مـركزاً مـرموقـاً في المـدرسـة التي أنشأت في كنـدا . وكـان يستطيع ان يقول كل مايريده وجهاً لوجه ، كان حاداً يمتلك احتيـاطياً هـائلاً من النكات . وعلى حد علمي لم يكن يجيد العمـل السري ولكن كان يكفيـه ان يدرس المسألة قليلا حتى يشعر محدثه بأنه لم يزاول في حياته اي عمل سوى ممارسة العمل السري . اما الشبيه المشوه لبروكر فقد كان مساعده الذي قدم نفسه كرجل اعمال .

من العاملين في المدرسة الممثل السابق لمعمـل «فيدفـود» الذي ينتـج الخـزف . كان شـاحباً ذا نـظرة وحشية . لقـد كان يخـرج عـادة عن صمتـه المعهود ويتفوه بقذاعات محطّمة . وهناك ايضا تريفر ـ ولسون . الذي اصبح فيما بعد معروفاً كاختصاصي باللغتين الفرنسية والصينية وعامـلاً لايقدر بثمن في هانوي . غالباً ما كان يـذهب من بيولي الى ثـاوثفيمبتون لأمـوره الخاصـة التي لم يكن يتكلم عنها اطلاقاً . ذات يوم رفضوا السماح لـه باستعـمال سيارة الخدمة فقطع المسافة على قدميه ذهاباً وإياباً ، والمسافة تقدر بخمسة عشر الى عشرين ميل . لم اقابل ابداً رجلاً بمثل تصميمه . نقيض تريفر ـ ولسون كان احد الانجيليين [1] والذي لسوء الحظ اختارني كمحدث له . في احد الايـام شرح لي رأيه في العلاقات الجنسية ، فأجبته بـأنني حزين من اجـل زوجته . بعد ذلك كنت اتقـابل معـه فقط على طـاولة البينـغ ـ بونـغ حيث كان يلعب بمرونة ذكرتني بأن اصل الانسان قرد .

روح المجموعة كلها كان بول دين . لم يكن باستـطاعة احـد سواه ان

---

(١) فرانك ناتان دانييل بوكمن ـ مبشر امريكي ، مؤسس مجموعة اوكسفورد . في عـام ١٩٣٩ قاد حملة واسعة لتعرية بلايطانيا اخلاقياً .

يطرد الحزن ويضفي جو المرح . لقد اثبت بان المياه العميقة ليست ساكنة بالضرورة . ولكنه في حقيقة روحه كان رجلاً جدياً يميل الى الرومنطيقية . أما ظاهره فكان يغلي ويثور كسيل جبلي . مرحه الجنوني على البيانو جعلنا لانشعر بطول الامسيات الصيفية .

لابد من الكلام عن هاردي إيميز الذي حظي بشعبية واسعة بعد الحرب ، واصبح فيما بعد المرافق الشخصي للملكة . كان إيميز أول شخص في هذه الحرفة اصطدمت معه .

أما دين فقلما وُجد في المدرسة لانه كان ضابط الاتصال بين المدرسة والمؤسسة في بيكر ـ ستريت . وواحدة من اهم واجباته كانت الحصول على مواد تساعد الجهاز التدريسي . وبما ان هذه المتطلبات لم يكن لها حدود في المرحلة الابتدائية لتأسيس المدرسة فقد كان امامه حقل واسع للنشاط . لقد كنت احسده كثيراً على عمله هذا الذي يلزمني كثيراً .

الشيء الاساسي الذي ميزني عن الآخرين هو انني الوحيد الذي كانت لديه تجربة في العمل السري وهذا مالم يعرفه احد سواي . لم يخطر ببال احد آنذاك ان يحني رأسه عندما يمر امام البوليس . ولكن تجربتي اللاحقة اقنعتني بان اختيار معلمين لا خبرة لهم كان عملاً جليلاً . كانت إدارة العمليات الخاصة تعاني من نقص كبير في الكوادر المجربة . ولم يكن بالامكان الحصول عليها الا من الاستخبارات البريطانية . طبعا لو توجهوا الى الاستخبارات بطلب اختصاصيين مجربين لكان من الممكن ان تعمد هذه بناء على تجربتها الى التخلص من بعض العاملين الذين لانفع فيهم لديها (هذا اذا كان بالامكان التضحية بمثل هؤلاء آنذاك) . كان من المخيف ان نتصور ماذا سيحل بالمستمعين في هذه المدرسة فيما لو وقعوا في ايدي اولئك الناس ، لقد كان المحاضرون هنا مثقفين ولكن بالمقارنة مع أولئك كان بعضهم إذاً عقل محدود . وهذا ماأثبتته التجربة . لقد وجهت انتقادات شديدة لإدارة العمليات الخاصة لتخطيطها السيء ولقيامها باعمال منفردة ، ولعدم سرية

تحركاتها . ولكن الهجوم على مؤسساتها التعليمية كان نادراً .

والشيء الثاني الذي كان يميزني عن البقية هو البدلة . كان الكل يرتدي الزي العسكري . بيترس وغابيتس كثيرا ماعلقوا بانه من الافضل لي ان ادخل الجيش ايضاً . ولكن مثل هذه الخطوة كانت ستحد من تحركاتي بشكل جدي دون ان تقدم اية ميزة مقابل ذلك . لقد توصلت الى قناعة بانه للحفاظ على وضعي غير الطبيعي الافضل ان اسكت اي لاارفض ولااقبل . فيما بعد ادركت كما كانت قناعتي هذه صحيحة ومفيدة .

الفرق بين بيولي وبريكندو - بيري هو انه في بيولي كانوا يعلمون الناس فعلاً . لقد اصبحت المدرسة مؤسسة تعليمية حقيقية . كانت تتعلم هناك مجموعة من النرويجيين الذين اثبتوا براعة فائقة في العمليات التخريبية . بعد اسبوعين فقط من التدريب استطاعت هذه المجموعة في درس ليلي ان تصل كلها الى هدفها المحدد في الطابق الرابع في مبنى يقع في سنيدريفيم . لقد استطاع النرويجيون ان يقطعوا مكانا كثيف الاشجار مزروع بالمصائد والاجهزة المنبهة التي وضعها مدير الدرس ولكنهم استطاعوا ان يعبروا ويلغموا الحديقة التي يحرسها المدربون الاختصاصيون وعادوا دون ان يراهم احد . لقد كنت اقوم عندئذ بدور حارس تلك الحديقة واستطيع ان اقسم انني لم أر احداً يدخلها او يخرج منها .

في بيولي كان ايضاً اصدقائي الاسبان القدامى من بريكندو - بيري حيث تمكنو أخيراً من ان يتعلموا شيئاً ما . بعد اول حديث لي معهم سمّوني «الكوميسارو باليتيكو» [1] من الممكن ان يكون هؤلاء هم الاسبان الذين قابلهم زميلي القديم بيتر كيم على ضفاف بحيرة لوخ - مورار بالقرب من اريسيغ . في كتابه التعليمي «بدون راية او شارات مميزة» كتب كيم عنهم : «مجموعة من القتلة ونحن لم نحاول ان نقيم معهم علاقات» [2] . انا

(١) بالاسبانية تعني مشرف سياسي .

(٢) بالطبع يختلف رأيي عن رأي كيم فيما يتعلق باسبانيا والاسبان فهو حارب الى جانب فرانكو ايام

شخصياً اعتبر انه بعد ان عذبتهم الحكومة البريطانية تقريباً سنة كاملة لهم الحق في ان يقتلوا اي ضابط في الزي العسكري البريطاني . ولكنهم استطاعوا على مايبدو ان يضبطوا أعصابهم .

وبشعور من الحزن اتذكر المجموعة الهولندية التي اجتازت مرحلة كاملة من الدراسة . وبعد فشل اول عملية لها ارسل اكثرهم الى الموت الاكيد .

لقد كتب الضابط البريطاني غيكسيس كيف ان الالمان القوا القبض في هولندا على عامل الارسال التابع لإدارة العمليات الخاصة وأجبروه على الاتصال بانكلترا . نتيجة لذلك قام الانكليز بتسليم الهولنديين مجموعة اثر اخرى للالمان . بعد التحقيقات اللاحقة ثبت ان عامل الارسال المذكور استطاع ان يرسل اشارة الى البريطانيين يعلمهم فيها انه وقع في ايدي الالمان . ولكن على مايبدو انهم لم يقرؤوها بشكل صحيح او تركوها دون اهتمام . وبعد افتتاح المدرسة بقليل أرسل البرتو تارتشيانس واصدقاؤه مجموعة من الايطاليين المعادين للفاشية تم جمعهم من معسكرات الاعتقال في الهند ، ولم يستطع هؤلاء التعايش مع الضابط البريطاني الذي عهد بهم اليه .

في بيولي كان يتعلم فرنسيان . عهد اليهما بعمل خاص جداً ولقد استطاعا الحفاظ على سريته تماماً . واحد منهم كان يمينياً والآخر يسارياً ولكن الاثنين كانا يحملان حقداً عارماً على حكومة فيشي . لقد كانا من احسن طلابي وبعد اسبوعين اصدرا مناشير رائعة . لقد اشرت الى ذلك لأن هذين الفرنسيين هما الوحيدان اللذان ابديا اهتماما ما بالسياسة والدعاية السياسة . البقية كانوا شجعان خاضعين تماماً لإدارة العمليات الخاصة ، ينفذون مايطلب اليهم دون ان يهتموا بمستقبل اوروبا .

= الحرب الاهلية ولكنني اتفق معه تماما في وصفه لتلك المزّة التي تعرض لها في اول مقابلة له مع رئيس قسم اسبانيا في إدارة العمليات الخاصة هيو كونييل .

انـا شخصياً كنت مـادة سيئة بـالنسبة لإدارة العمليـات الخـاصـة لأن مستقبـل اوروبا يهمني جـداً . الوضـع العسكري من سيء الى اسـوأ . بعد معارك استمرت حتى الربيع مع القوات الايطالية اصبح الجيش اليونـاني غير قادر على متابعة القتال اطلاقاً . وبعد ثورة نيسان في يوغسلافيا والتي وضعتها إدارة العمليات الخاصة الى حد ما في خدمتها دخل الالمان يوغسلافيا واحتلوا اليونان . بعد ذلك حدث الأسوأ ـ ضاعت كريت التي كان على بـريطانيـا ان تخصص للدفاع عنها قوة كافية . اما الحفاظ على خليـج سود فقـد كان بمثـابة الحفـاظ على التـوازن في خسارة البلقـان . ولكن مثل هـذه المسـائـل لم تكن لتبحث في جو كانت حقيقـة الاشياء فيـه تختفي وراء الرغبـة في الحفاظ عـلى الروح المعنوية . في الوقت نفسه كانت تنضج أحداث اهم من كل ذلك .

في صباح احد الايام دخل مراسلي يحمل لي كوبـاً من الشاي وايقـظني بكلمات : «لقد أعلنها ضـد روسيا ، يـاسيدي» . بعـد أن قرأت محـاضرتين عن الـدعـايـة ذهبت مـع بـاقي المـدرسـين الى المـطعم . «اخشى ان يُنهي الروس» ، ـ قالها مان متخذاً وضع المستغرق في تفكير عميق . بعضهم وافق معه وبعضهم وافقه بفرح ظاهر . إن التأثير الروحي الذي خلفه المتـطوعون المجتمعـون في فنلندا ، لايـزال حيـاً . تـوقفت المنـاقشـات لأنهم اعلنـوا ان تشرشل سيوجـه كلمة الى الشعب مسـاء ذلك اليـوم . اجدى شيء بـالنسبة للانكليز هو الانتظار الى ان يقول رئيس الوزراء كلمته .

لقد انهى تشرشل المشكلة . عندما اعلن في نهايـة حديثـه بان الاتحـاد السـوفييتي اصبح حليف بـريطانيـا . لقد وافق العـاملون في المـدرسـة عـلى ذلـك . ولكن بعـد ايـام عـاد القلق الى النـاس بعـد ان وصلت من لنـدن معلومات تؤكد ان الجيش الأحمـر غير قـادر على الصمـود امام الالمـان . لقد كانت تقديرات قسم روسيا لدى المخابرات العسكرية ووزارة الدفاع ان حملة هتلر على روسيا ستستمر ثلاثة الى ستة اسابيع . اختصاصيو إدارة العمليات الخاصة والمخابرات البريطانية كان لهم تقريباً الرأي نفسه . كـان البريغـادير

سكيف العامل في قسم الحرب السياسية اكثر الناس تفاؤلاً في تقديره . لقد قال ان الروس سيصمدون «في اقل تقدير ثلاثة اشهر ، ومن الممكن ان يصمدوا اكثر من ذلك بكثير» . وكما كتب ايفلين بو ، «لقد اصاب الهدف تماماً» .

والآن اصبح لابد من مغادرة بيولي وايجاد المكان الملائم . وسرعان ماظهرت إمكانية كبيرة لتحقيق ذلك . خلال زياراتي النادرة الى لندن كنت ازور تومي هاريس في تشيستر ـ فيلد غاردينس حيث كان يعيش عيشة مرفهة باذخة . كان هاريس يؤكد بان الطاولة الجيّدة لاتفسدها بقع الخمر . لقد اشرت الى ان هاريس بعد الغاء مدرسة بريكيندو ـ بيري اصبح يعمل في فرع أمن الدولة . وعلى مااعتقد انه في نيسان سألني فيما إذا كان يثير اهتمامي عمل يتطلب معرفة جيدة لاسبانية فرانكو . العمل لدى المخابرات البريطانية .

لفهم مغزى اقتراح هاريس لابد من عرض موجز للمسائل التي سيأتي الكلام عنها بالتفصيل في الاجزاء القادمة . لقد كانت الاستخبارات البريطانية على علم بكل العمل التجسسي خارج بريطانيا وذلك إما عن طريق الجاسوسية او عن طريق الاستخبارات المضادة . لقد كان الفرع رقم خمسة مختصاً بمسائل الاستخبارات المضادة وامن الدولة في انكلترا وممتلكاتها فيما وراء البحار . وكانت مهمة هذا الفرع هي جمع المعلومات عن المؤامرات التي تحاك في الخارج ضد انكلترا واعطائها الى فرع امن الدولة . وحسب رأي هاريس ان الفرع رقم خمسة لم يستطع ان يقوم بالمهمة . ولذلك فإن امن الدولة مارس ضغطاً مكثفاً على الاستخبارات البريطانية مطالباً بتحسين عمل الفرع المذكور او ان امن الدولة مضطر لان يبدأ بجمع المعلومات بنفسه . ولكن مثل هذا التوسيع للصلاحيات لم يكن باستطاعة احد ان يجريه سوى الحكومة ، وبعض الشخصيات المسؤولة كانت جاهزة لوضع المسألة امام القيادة العليا . لذلك فإن الاستخبارات اضطرت للتراجع امام

ضغط فرع امن الدولة وزادت مخصصاته ليستطيع توسيع مجال عمله . وبما ان جزءاً كبيراً من عمليات التجسس التي يقوم بها الالمان كانت تنظم في شبه جزير إيبريا فقد تقرر اجراء اكبر توسيع للعمل ـ من ثلاثة الى ستة ضباط ـ في الفرع الخاص باسبانيا والبرتغال . لقد اخبرني هاريس بان فيليكس كاوغيل رئيس الفرع رقم خمسة يفتش عن رجل يعرف اسبانيا ليقود ذلك الفرع الموسع . وفي حال موافقتي فان هاريس سيرشحني لهذا المنصب ويأمل بالنجاح .

لقد قررت قبول العرض وطلبت من هاريس عدة ايام لأفكر . كان من الممكن ان تظهر بعض العقبات . ولكن في اي حال كان لابد من دراسة الموضوع قبل اتخاذ القرار . كان الفرع رقم خمسة يقع في سانت ـ البانس . ولم يكن هذا هو المكان المثالي ولكنه افضل من بيولي . عملي الجديد كان يتطلب مني إقامة علاقات مع فروع اخرى في جهاز الاستخبارات ومع فرع امن الدولة . ومن الممكن التوقع ان وزارة الخارجية ستبدي اهتماماً بهذا العمل هذا عدا عن اهتمام وزارات الحرب . مصادفة عرفت بأن ارشيف الاستخبارات البريطانية يقع في سانت ـ البانس في مكان مجاور للفرع رقم خمسة . وعند تقويمي للجوانب السلبية لهذا العمل كان يمكنني ان اشير فقط ، الى انه لايتوافق في جميع جوانبه مع العمل الذي كان من المفروض ان اختاره بنفسي .

اسبانيا والبرتغال اصبحتا على هامش اهتماماتي الحقيقية ولكن الكلام نفسه بل واكثر يمكن ان يقال عن بيولي .

بعد عدة ايام اخبرت هاريس بانني سأكون شاكراً له فيما لو حقق لي ماعرضه علي . قام هاريس أولاً بإخبار رئيسه ديك بورمن ـ وايت الذي كان آنذاك يشغل منصب رئيس قسم ابيريا في فرع امن الدولة ، واصبح فيما بعد من اصدقائي المقربين . بعد عدة ايام اتصل بي كاوغيل وطلب مني ان اقابله .

في تلك الايـام كنت احاول الخـروج من بيـولي . فقـرأت عن سـابق تصميم محاضرتين تافهتين ، بعد ذلك لم يستطع احد أن يقول انه لايستـطيع ان يحل مكاني . فقبل مـان استقالتي وطلب مني ان ابقى حتى يجـد بديـلي . ومرة اخرى ساعدني الحظ . فقد حل مكـاني هيزليت صـديق نقيب مدرسـة بريكندو ـ بيري . لقد استمرت عملية تسجيـلي اسبوعـين او ثلاثـة . خلال هذا الوقت قمت بزيارة كاوغيل في ماركييت الواقعة في مكان مقرف في زاوية ضيقـة على الـطريق الشمالي الكبـير . في ذلك الـوقت كانت الشكليـات اقل بكثير . فلم اقدم طلباً خاصاً لقبولي في العمـل ولذلـك فإن كـاوغيل لم يـوقع وثيقة رسمية تثبت قبوله لي في العمل . ومع ذلك فقد اخبرني في ذلك المسـاء الطويل عن واجباتي انطلاقاً من طبيعة تركيب جهاز الاستخبارات البريطانية ككل . ولأن اقواله كانت ذات طابع سري للغاية فقد اعتبرتها موافقة رسمية لقبولي في العمل . وبكلمات اخرى ، لقد اعتبرت نفسي مقبولاً في العمل .

الفصل الثالث

الانتيلجنس سيرفيس
نشاط قذر تحت اسم محترم

في العام ١٩٤١ تحولتُ من إدارة العمليات الخاصة الى الاستخبارات البريطانية نهائياً . لقد قالت لي احدى النساء ، وكانت تتمتع بحيوية كبيرة ، كانت قد خطت الخطوة نفسها بعدي بسنة واحدة «إذا كان قد قدر لنا ان نمارس اعمالاً قذرة فعلينا ان نفعل ذلك بطريقة محترمة» . كان يمكنني ان أقول الكلام نفسه قبلها فيما لو خطر لي ذلك .

من غير الحكمة ان لانقدر مواهب الاشخاص الجدد المتوافدين على إدارة العمليات السرية في بيكر ـ ستريت . لأن هؤلاء كانوا يسعون لتحقيق اهداف نبيلة . فقد تركوا مكاتبهم المريحة في سيتي وتيمبل وجاؤوا ليبثوا الفوضى والاضطراب والازمات المالية في كل اوروبا وبذلك تحولوا من حماة الغابة الى حطابين فيها .

لقد طرأ تغير على جهاز الاستخبارات البريطانية ، ولكن كان من الصعب سد جوع الوزارات الحربية للمعلومات . لقد كانت الاستخبارات البريطانية تملك تجربة عمل كبيرة مع الجهاز المناسب لتركيبها . وكانت تستقبل ممثلي وزارة الخارجية والوزارات الحربية الاخرى على مضض . الوحيد منهم الذي ترك اثراً هو باتريك ريلي [1] . لقد تحملت الاستخبارات

---

(١) في العام ١٩٤٤ اصبح المستشار الرئيسي لوزارة الخارجية لدى الاستخبارات البريطانية وفي الخمسينات كان سفير انكلترا في موسكو، بعدها في باريس .

القادمين امثال غريم غرين [1] ومالكولم ماغيريج ، اللذين بثّا الحيوية في عمل الاستخبارت . واخيرا احسست انني اقف فوق ارض صلبة وشرعت في عمل حقيقي . كان مقر الاستخبارات البريطانية آنذاك في برودفيي - بيلدينغس ، مقابل محطة مترو «سانت جيمس - بارك» . ولكن تنظيمها توسع جداً اثناء الحرب واصبح مقرها القديم لايتسع لكل الاقسام لذلك تم نقل الفرع رقم خمسة والارشيف المركزي الى سانت - البانس . ووزعت باقي الاقسام الصغيرة في لندن وضواحيها . كانت اقامتي في سانت - البانس عند رجل غني يدعى بارينت . لم يكن عيبه الوحيد هو الغنى . فكل يوم كانت تأتي سيارة الرولس - رويس مع سائق وتنقله من البيت الى المحطة اما زوجته فكانت تخفي السكر وتقضي يومها تحصي عدد علب المربي خوفاً من ان يكون الخدم قد سرقوها . ولكن إقامتي هناك لم تستمر طويلاً فقد وجدت لنفسي المكان المناسب على اطراف المدينة .

في الصفحات القادمة سوف اكتب كثيراً عن عمل الاستخبارت البريطانية . اما الآن فسوف اتعرض بإيجاز لتركيبها الاساسي وعملها حتى اساعد القارىء منذ البداية على فهم قصتي معها .

ولكن يجب الاخذ بعين الاعتبار ان كل عرض موجز لابد أن يكون مبسطا . إذا كان العبقري البريطاني يميل بطبعه الى البلبلة فليس لدينا اي تعبير آخر يمكن ان يعطينا صورة ادق عن الاستخبارات البريطانية . فالاستخبارات البريطانية هي الهيئة الوحيدة في انكلترا المخولة حق جمع المعلومات من الدول الاجنبية بطرق سرية . ونادراً ما تكون هناك بعض المبادرات الشخصية التي تتخطى هذا الاحتكار . لكن غالباً ما تنتهي مثل

(١) لقد تأتى لي مرة ان ادافع عن غريم غرين ، وذلك عندما لم يستطع العميل الذي ارسله الى جزر الآرزور ان يقيم اية علاقات ، مما وضع الاستخبارات البريطانية في موقف حرج امام فرع امن الدولة .

هذه التجاوزات باتصالات سرية بين الهيئات او بصدام في الوايتهول [١] . «الطرق السرية» في جمع المعلومات من الدول لاخرى هي وحدها التي تميز نشاط الاستخبارات البريطانية عن نشاط غيرها من الجهات الدبلوماسية والصحفية التي بدورها تجمع المعلومات ايضاً ولكن بعض الدول لاتأخذ بعين الاعتبار هذا الفرق الشكلي . ومع ضبابية هذا الفرق الا انه موجود فعلاً . والاستخبارات البريطانية هي الهيئة الوحيدة التي تحصل على اموال سرية لايجري عليها حساب . وهذه الأموال تستعمل عادة للحصول على معلومات من البلدان الاخرى لايمكن الحصول عليها بطرق رسمية . وتعتمد الاستخبارات البريطانية في نشاطاتها الخارجية على قاعدة تشكلها شبكة من الجواسيس الاجانب ، هذه الشبكة يوجهها مكتب خاص بشكل مباشر او غير مباشر ، وهذه المكاتب موجودة في السفارات البريطانية مما يجعلها تتمتع بحصانة دبلوماسية تحميها من السلطات المحلية . والدوافع عند الجواسيس عادة تكون مختلفة . بعضها ذو طابع بطولي وبعضها خيانة . فاكثر العملاء يدفع لهم ولكن قليلاً . والاستخبارات البريطانية تلجأ عادة للدفع لأن من يدفع لهم يكونون عادة اكثر خضوعاً لها اما من لايُدفع لهم فيتصرفون باستقلالية وقد يجلبون بعض المتاعب . فمثل هؤلاء تكون لهم اهداف سياسية ، يسعون لتحقيقها .

والمعلومات التي تتجمع تصل بشكل مباشر او غير مباشر الى المقر المحلي للاستخبارات البريطانية عن طريق الجواسيس المتعامل معهم في البلد المعني . وتقوّم اهمية تلك المعلومات من قبل رجال الاستخبارات البريطانية الموجودين هناك بصفة دبلوماسية . فإذا كانت تثير الاهتمام ترسل الى لندن مع الشروحات المناسبة . ومثل هذه المعلومات ترسل عادة بالطرق الدبلوماسية إما بالراديو او بالبريد الدبلوماسي حسب اهميتها . في ذلك

---

(١) شارع في لندن يوجد فيه مقر الحكومة البريطانية ومؤسساتها .

الوقت كان رئيس مكتب المخابرات لدى اية سفارة يختفي بالطرق التي كانت مستعملة قبل الحرب اي بصفة رئيس قسم مراقبة الجوازات في السفارة ، مع ان ذلك كان يبدو منذ ذلك الوقت انتقاصاً من شأنه . ان الشخص الذي يشغل مثل هذا المنصب يملك حقاً قانونياً في التحقيق مع الاشخاص الذين يطلبون تأشيرة دخول الى انكلترا وكما هو معروف فإن السؤال يجر وراءه آخر وهكذا . ولكن هذه الطريقة في التخفي اصبحت معروفة للجميع .

كان جهاز إدارة الاستخبارات البريطانية في لندن مقسماً حسب المهمات : بعض الفروع كانت مختصة بجمع المعلومات وبعضها الآخر كان مختصاً بتحليلها وتقويمها . كان على اولئك الذين حصلوا على المعلومات ان يخضعوها لدراسة دقيقة وموضوعية ومن ثم عليهم إيصالها الى هذه او تلك من المؤسسات الحكومية . وعلى اساس هذا المبدأ قسم العمل الى مجموعتين من الاقسام : «ج» وهي اقسام مهمتها توزيع المعلومات . المجموعة «ج» مهمتها مراقبة المراكز الخارجية وتوجيه نشاطها . كل قسم كان مسؤولاً عن منطقة جغرافية ما . واحدة كانت تختص باسبانيا والبرتغال والثانية بالشرق الاوسط ، والاخرى بالشرق الاقصى . . الخ . . المجموعة المختصة بتوزيع المعلومات كان عليها ان تقوّم المعلومات المتوفرة لديها وترسلها الى الدوائر الحكومية المعنية بالامر . بعد ذلك كان على هذه الاقسام ان ترسل جواب هذه الدوائر مضمنة اياه رأيها الخاص بالمعلومات المتوفرة الى المجموعة «ج» . المجموعة المختصة بتوزيع المعلومات كانت مقسمة على اساس محتوى المعلومات . بعضها كان مختصاً بالمسائل السياسية وبعضها بالمسائل الحربية واخرى بقضايا الاسطول وثالثة بالمسائل الاقتصادية وغيرها .

الفرع رقم خمسة ، الذي كنت اعمل فيه ، كان له وضع خاص . فحسب التسمية كان هذا القسم مختصاً بتقسيم المواد والاستخبارات المضادة . ولكن إذا كانت علاقة الاقسام الاخرى قائمة مع مؤسسات حكومية عادية كوزارة الخارجية او وزارة البحرية حيث معلوماتهم هنا عن

العمليات السرية محدودة ، فالتعامل الاساسي مع الفرع رقم خمسة كان جهاز امن الدولة الذي يعتبر بحد ذاته منظمة سرية . ومن الطبيعي ان تكون العلاقات هنا ودية والتعاون اوثق . ولكن الواقع كان عكس ذلك . ولم تتحسن العلاقات بين هذين الفرعين الا في اواخر الحرب . فقد كان الوضع بينهما يرتبط الى حد بعيد بالصفات الشخصية للمتعاملين . وساعدت الحرب وتعقيدات الوضع الحربي على تأزيم العلاقات بين هذين الفرعين . ولكن كان ثمة سبب آخر : كان الخلاف الرئيسي حول تحديد مجال عمل كل منهما ، وكان فرع امن الدولة يصر على ان الاستخبارات المضادة وحدة متكاملة ولذلك فمن حقه الاطلاع على كل المعلومات الواردة . كاوغيل ، المتكلم باسم الفرع رقم خمسة ، كان يؤكد بان فرع امن الدولة يحق له الاطلاع فقط على المعلومات التي تخص المسائل الأمنية داخل الحدود البريطانية وفرع امن الدولة بدوره كان يتهم كاوغيل بانه بحجة سرية المعلومات ومصادرها يخفي عنه معلومات هامة . هذه الخلافات كثيراً ما وضعتني في موقف حرج للغاية لأن عواطفي كانت مع فرع امن الدولة . وتفادياً لما يمكن ان يحدث من تعقيدات اضطررت لإعطاء معلومات شفهية لفرع امن الدولة . لقد ساعد على بقاء هذا الوضع غير السليم خاصية اخرى للفرع رقم خمسة .

ففي الفترة الاولى للحرب كانت طلبات الوزارات الحربية من الاستخبارات كثيرة جداً وعاجلة . القياديون في جهاز الاستخبارات اعتبروا ان العمل الهجومي ايام الحرب هو الشكل الاكثر جدية . نتيجة لذلك فإن مكاتب الاستخبارات البريطانية الخارجية وجهت نشاطها للحصول على المعلومات الضرورية للقوات المسلحة : عن التحركات العسكرية للعدو ، عن تجمع القوات البحرية ، عن توضع الاسطول الجوي ، عن تسليح العدو . . الخ . كانت الاستخبارات المضادة تعاني من نقص مواردها وفرع امن الدولة لم يكن راضياً عن عمل الاستخبارات البريطانية ككل لقلة

المعلومات التي تحصل عليها الاستخبارات المضـادة . ورأى كاوغيـل انه من الافضل تجاوز النـظام القائم وبـدأ بإرسـال رجالـه الى المكاتب الخـارجية . وكان هؤلاء يخضعون اسمياً لقيادة المجموعة «ج» ولكن هذه كانت غـارقة في اعمالها الخاصة ولـذلك فقـد كانـوا يتلقون التعليـمات اليوميـة من الفرع رقم خمسة مباشرة . كان المسؤول عن اسبانيا والبرتغال شخصاً يدعى فيفك وكان سـابقـاً يمـارس تجـارة النفط ولقـد وافق عـلى ان يشرف عـلى اختصـاصيينـا الموجودين في مـدريد ولشبـونة وجبـل طارق وطنجـة لكنه بعـد عدة اسـابيع نسيهم . كنت ازوره من وقت لآخـر من قبيـل الـواجب فقط . وبعـد وقت قصير بدأ الفرع رقم خمسة يمارس بعض وظائف المجموعة «ج» وبـدأ البعض ينظر شذراً الى الفرع رقم خمسة . كان هذا الوضع مناسباً تماماً لكاوغيل فقـد اعـطاه الامكانيـة ليثبت مرة اخـرى ان العمل في الاستخبـارات المضـادة فن يستطيع ممـارسته أنـاس مثقفون فقط ، الشيء الـذي يفتقر اليـه العاملون في الاستخبارات . وهذا مـاحماه من الانتقـادات داخل الاستخبـارات . ولكنه مع الأسف لم يستطع ان يحظى بالموقف نفسه من فرع امن الدولة .

ومع انني قلت إن جهاز الاستخبارات البريـطانية هـو الوحيـد المخول صلاحيات الحصول على معلومات من الدول الاخرى باسـاليب سرية ولكن هذا لا يعني ابداً انه لاتوجد هناك منظمات اخرى تمـارس المل نفســه . فعن طريق التقاط الـترددات اللاسلكيـة مثلاً يمكن الحصـول على كميـة كبيرة من المعلومات السرية دون خرق القوانـين القوميـة او الدوليـة . ولكن قبل كـل شيء لابد من معرفة فك الرموز الملتقطة . كانت في بريطانيا مدرسـة خاصـة تقوم بهذا العمل وبنجاح .

مـاهـو المكـان الـذي كـان يشغله الفـرع رقم خمـسـة في عـالم الاستخبارات . ؟ كجزء من المخابرات البريطانية كانت مهمته جمع المعلومات من الخارج بأساليب سرية . وكان فرع امن الدولة هـو اكثر الاقسـام حاجـة للمعلومات التي تتوفر لدى الفرع رقم خمسة لأن ذاك مهمتـه الاولى هو الأمن

داخل الحدود البريطانية ولذلك كان مهماً جداً بالنسبة اليه الحصول على معلومات مبكرة عن المحاولات التي تدبر في الخارج للوصول الى اسرار الحكومة البريطانية . كانت هناك ايضاً بعض الجهات التي تحتاج الى خدمات معينة من الفرع رقم خمسة . فوزارة الخارجية كان يعنيها موضوع معرفة الامكانيات التي تقدمها الحكومات المحايدة للمخابرات الالمانية .

كان الفرع رقم خمسة في بداية نشاطه يستعمل اسلوب التقاط شيفرة العدو والاستفادة منها كطريقة اضافية للحصول على المعلومات . وخلال الحرب تغيرت الادوار : النشاط التجسسي للفرع رقم خمسة اصبحت مهمته سد الفراغات في اللوحة المترامية الاطراف التي ترسمها المعلومات الملتقطة بالشيفرة .

والآن لابد من اعطاء وصف للوجوه التي سيلعب اكثرها دوراً مهماً في روايتي . رئيس الفرع رقم خمسة كان ، كما اسلفت ، كاوغيل الذي جاء الى الاستخبارات ـ قبل فترة وجيزة من بداية الحرب ـ من البوليس الهندي واستطاع ان يصل الى مركز مرموق في مدة ليست طويلة ، امكانياته متواضعة ، قدرته على الاستيعاب محدودة ، قليل الانتباه ، لايهتم بدقائق الامور ولم تكن لديه اية فكرة عن العالم الذي تخوض فيه المخابرات البريطانية صراعاتها . صفته الايجابية الواضحة الى جانب كونه شخصاً لطيفاً هي قدرته الشيطانية على العمل . كان يذهب الى البيت يومياً ومعه حقيبة ملآى بالاوراق التي يسهر عليها حتى وقت متأخر . كل يوم جمعة كان يسهر حتى الصباح مع أوراقه ويأتي صباح السبت الى العمل تعباً ولكنه كان يترأس اجتماع الاقسام العاملة في فرعه بحضور ذهني واضح . وفي الاجتماعات كان عادة يدخن غليوناً إثر آخر ويُفرغ غليونه في منفضة حجرية موضوعة امامه على الطاولة . لقد كان يستأسد في الدفاع عن العاملين عنده وقد حمى اكثرهم من الطرد من العمل . خارج الفرع كان كاوغيل حذراً جداً يشك في اي تصرف او تحرك . لقد كان جاهزاً تماماً لاعتبار اي تصرف موجه للحد

من نشاطه او لتشويه سمعته . عندما اتيت الى الفرع رقم خمسة لم تكن علاقة كاوغيل سيئة مع أمن الدولة فقط وإنما مع فرع التقاط الشيفرة المعادية أيضاً ومع مدرسة قراءة الشيفرة وعدد آخر من فروع المخابرات البريطانية . وهكذا أصبح الفرع رقم خمسة محاصراً .

لقد كان لكاوغيل علاقات معقدة مع عدد من الشخصيات المهمة التي كانت تعمل في مدرسة قراءة الشيفرة : مجموعة من خريجي اوكسفورد - تريفر - روبير ، جيلبرت - رايل ، ستيوارت هيمبشير وتشارلز روتشيلد . كل هؤلاء كانوا عقلياً متطورين اكثر من كاوغيل بما لا يقاس وبعضهم كان يتفوق عليه بالحيوية . ايضاً لم يكن مشكوكاً في اخلاقية تريفر - روبير مثلاً ، ولكن الامر بينه وبين كاوغيل وصل لدرجة ان هذا الاخير هدده بمحاكمة عسكرية . ولكن يجب ان نعطي صمود كاوغيل حقه . لقد حارب من اجل هذه المجموعة طيلة خمس سنوات ، لم يعترف خلالها لو مرة واحدة بعدم جدوى نضاله . لقد كان يعمل دون ملل لكسب العاملين الى جانبه وبعد ان تأكد من ان الرجل اصبح كلياً الى جانبه كان يهمس في اذنه «والآن يمكننا ان نتابع الحرب ضد الالمان !» .

المجموعة الأساسية التي كانت تدور حولها كل صراعات هؤلاء هي موضوع مراقبة المعلومات التي يتم التقاطها من مراسلات او مكالمات الالمان . وعندما كلف رئيس المخابرات البريطانية رئيس الفرع رقم خمسة بهذا الامر لم يكن هناك اي اعتراض مقنع . الاعتراض كان فقط على اساليب كاوغيل . لقد فهم كاوغيل ان الورقة الرابحة اصبحت بين يديه وقد حافظ عليها بغيرة واضحة واحياناً كان يؤخر اعطاء معلومات هامة . البعض كان يتهمه باتباع اسلوب التقتير في اعطاء المعلومات وكان هو بكل بساطة يتهمهم بعدم الاهتمام بامر المحافظة على سرية المعلومات . بعد صدام عنيف مع كاوغيل قال ديك وايت ، نائب رئيس فرع امن الدولة السابق ، انه رأى حلماً مزعجاً ملخصه انه يجري في محلات بيع الصحف

عرض للوثائق المتضمنة معلومات حصلت عليها اجهزة الاستخبارات .

كانت علاقة كاوغيل بباقي الاقسام تعاني من صعوبات اخرى . فالصدام هنا لم يكن بسبب الاهتمام الاستثنائي بعمله بل بسبب عدم الاهتمام كلياً بفرعه . فخلال فترة الحرب طغت اعمال التجسس الهجومية على كل نشاط المخابرات البريطانية . اما الاعمال الدفاعية فقد اصبحت في وضع مأساوي حقاً . وقد القيت مسؤولية هذا الوضع على عاتق كلودينسي ، مساعد رئيس المخابرات البريطانية آنذاك . لقد كان هذا الرجل المسن يصرّح في كل مناسبة بان اعمال التجسس المضادة اي الدفاعية هي مضيعة للوقت وللجهود والامكانيات لامبرر لها اطلاقاً في زمن الحرب . كان يحب كثيراً ان يضع ملاحظات حادة ومؤذية على الوثائق دون اي سبب مما اثار حفيظة العاملين لديه .

كان لابد من الدفاع عن الجاسوسية المضادة في اعلى المستويات وقد اخذ فالينتين فيفين هذه المهمة على عاتقه . كان هذا الاخير يعمل في البوليس الهندي وقبل الحرب تسلّم رئاسة الفرع رقم خمسة . بالنسبة لفيفين كانت ايام التألف قد انتهت منذ زمن بعيد . كان فيفين ذا جسم نحيل متناسق وشعر مصفوف بشكل دقيق وعينين ناعستين . كانت ملاحظات دينسي الحادة تزعجه كثيراً ، وكان يحني رأسه امام الهزائم التي كانت كثيراً ماتحدث . قبل دخولي الى الفرع رقم خمسة بقليل كان كاوغيل قد بدأ لايعترف بفيفين اطلاقاً ولم يخف احتقاره له . فلقد استطاع كاوغيل دون مساعدة فيفين ان يربح المعركة لزيادة مخصصات الفرع رقم خمسة . ولم يبق لفيفين سوى ان يطبطب . قد يبدو للوهلة الاولى انه ليس من الضروري الحديث عن مزاج رجل كفيفين في مثل هذا الكتاب ولكن مزاج فيفين سيلعب دوراً كبيراً في تحديد مستقبلي كرجل في المخابرات البريطانية . طيلة سنة او اكثر وانا بعيد عن التأثيرات المباشرة للصراعات التي كانت تدور في الدوائر العليا . ولكن بعد اكثر من سنة بقليل بدأت اعاني منها مباشرة .

كانت مهمتي الاولى ان ادرس العمل الذي علي ان اقوم به . فالملاحظات المفيدة من رؤسائي والتي كان من الممكن ان تساعدني كانت نادرة . ولكن كبير سكريتاري - وهي فتاة حاذقة جداً - عوضت هذا النقص وانا اشعر انني مدين لها بالكثير . كانت تعمل هنا قبل بدء الحرب ، وانقذتني مواهبها من اصعب التعقيدات التي كان من الممكن ان اقع فيها . اصبح عدد العاملين في قسم شبه جزيرة ابيريا ستة اشخاص مع العلم ان هذا العدد كان من قبل اثنان فقط . (ولذلك لااستغرب ان احدهم قد مات منتحراً) . لقد اغرقونا تماماً ببريدهم اليومي . مثلي مثل كل الموظفين كنت طيلة النهار اعالج اكواماً من الاوراق وبعد نهاية الدوام كنت احمل معي حقيبة مليئة بباقي الاوراق التي علي ان اكب على معالجتها مساء . وعندما اصل في اليوم التالي الى مكتبي كانت تنتظرني دائماً برقيات جديدة من مدريد وطنجة ولشبونة . هذا بالاضافة الى طوفان من الوثائق التي كانت تصل من بقية الاقسام . وكل ورقة ذات اهمية . - خاصة بريد شبه جزيرة ابيريا - كانت تفتح امامنا مجالاً واسعاً من التعليلات التي لاتلبث ان توصلنا الى طريق مسدود .

ولقد شاءت الظروف ان اصادف في بداية عملي وثيقة على هذا المنوال ، احد عملائنا في مدريد استطاع ان يسرق المذكرات اليومية لشخص يدعى الكسار دي فيلاسكو . وهو واحد من اقرف شخصيات المكتب الاعلامي لكتائب فرانكو ، وزار انكلترا لوقت قريب مضى . وجاء في تلك المذكرات ، صراحة ، ان المخابرات الالمانية كلفت فيلاسكو شراء شبكة من العملاء لها . ولقد ذُكرت اسماء كل هؤلاء والمهام المنوطة بهم مع عنوان كل منهم . وكلفتنا دراسة تلك الوثيقة عدة اسابيع قبل ان نتوصل الى نتيجة مؤداها ان هذه المذكرات كتبت بهدف ابتزاز الاستخبارات الالمانية والحصول منها على المال فقط .

ولكن تلك المذكرات لم تكن دون فائدة . فالمخابرات البريطانية كانت تتوقع ان لويس كالفو - الصحفي الاسباني ، العامل في لندن ، يبعث

بمعلومات الى العدو . وقد ورد اسمه في مذكرات دي فيلاسكو (مع اننا اعتبرنا ان هذه الوثيقة كاذبة) . وعلى الفور اعتقل كالفو وارسل الى مركز التحقيقات في هيم ـ كومون . لم يعذب جسدياً اطلاقاً . وانما جرد من ثيابه وارسل الى الكوميندات ستيفنس ، وهو رجل على النمط البروسي ، ذو بياضة في احدى عينيه . كانت اسئلة ستيفينس تترافق بضربات كرباجه على جزمته . ويبدو ان الوضع النفسي الذي وضع فيه كالفو اعطى ثماره دون كبير عناء . فقد اعترف الرجل بنشاطه لصالح العدو وهذا وحده كان كافياً لارساله الى السجن .

لعب ذلك السجل اللعين مرة اخرى دوراً مفيداً . فقد ورد فيه اسم الملحق الصحفي لدى السفارة الاسبانية في لندن بروغاد . وقد سعى بروغاد لكي يتفادى هذه الفضيحة باي ثمن ولذلك لم يتردد في التعاون مع فرع امن الدولة . عملياً لم يقدم بروغاد اية خدمات جدية لفرع امن الدولة ولكنه كان يعطي وصوفات دقيقة لكل الاسبان القادمين الى انكلترا .

سرعان ماحقق فرعنا نجاحاً رائعاً ، ومع انني خرقت كل الاصول لتحقيقه ، وحدثت من جراء ذلك ضجة كبيرة أدت بالجميع الى متاهة لم يفهموها الا بعد نهاية الحرب . لقد التقطنا برقية تقول بانه على ظهر السفينة الاسبانية «كابودي ارنوس» يتوجه عميلان الى امريكا الجنوبية . وكانت البرقية دون توقيع . ولكن اسماء العملاء ذكرت كاملة . احدهم يدعى ليوبولد هيرش مع زوجته والثاني يدعى غيلينسكي . قبل صعودهم الى السفينة بقليل التقطت برقية ثانية من مركز الاستخبارات الالمانية في بيلباو . اكدت هذه البرقية ان هيرش ومرافقيه ، «اوركي» ـ يه جاهزان للابحار . لفتت انتباهنا كلمة «اوركي» ماذا يمكن ان تعني ؟ قد تعني الاحرف الاولى من اسم المنظمة الثورية للاممية الشيوعية التي تمثلها مجموعة من التروتسكيين الذين يدعمهم الالمان ضد الروس المتحالفين مع الانكليز . وبعد ان دققنا دوسيهات كل ركاب «كابودي أرنوس» وجدنا ان هناك في اقل تقدير عشرة

ركاب يمكن ان يكونوا من هؤلاء المرتـدين . نصفهم مهربـون ومن اصحاب العمليـات المالية والتجاريـة غير القـانـونيـة ولايستغـرب ان يتعـاونـوا مـع الاستخبارات الالمانية .

وبعـد ان تشـاورت مـع كـاوغيـل وجهت الى الضـابط المنـاوب في تـرينيداد ، حيث من المقـرر ان تتوقف السفينـة ، امـراً بـاعتقـال هـيرش ، غيليتسكي وبعض الاشخـاص الآخرين . في الـواقـع اني لم اكن املك ايـة صـلاحيات تخولني اصدار مثـل هذا الامـر . وحسب العرف كـان علي ان اقترح على فرع امن الدولة وعلى هذا تقديمـه الى وزارة المستعمرات التي كـان من الممكن ان تعطي تعليمات الى حاكم ترينيـداد الذي بـدوره سيعطي امـراً الى الضابط المناوب «ببحث الوضع ميدانياً» ولحسن الحظ ان الضابط المناوب كـان متحمساً ونفـذ امري دون ايـة اسئلة اضـافيـة . والاروع من ذلـك ان هيرش اعترف فوراً بكل شيء ، ولكنـه برر ذلـك ، ومن الممكن انه قـد كان صادقاً ، قائلاً : انه لم يكن ينوي تنفيـذ اية تعليـمات او اية مهمـة يكلفه بها الالمان ولكنه قَبِلَ القيام بمثل هذه المهمـة فقط لأن ذلك كـان طريقـه الوحيـد للخروج من اوروبا . وفي غمرة هذا الانتصـار لم ننتبه الى اننـا لم نتمكن ابداً ان نحصل من الاشخاص الآخرين المعتقلين على اية معلومات تشير ولو من بعيد الى عمليات التجسس . وعند تفتيش امتعتهم وجدنـا ان اكثرهم بهـذا الشكل او ذاك يحمل مواد ممنوعة ولهذا فقد كانت لدينا اسباب ، ولو وهمية ، لإيقـافهم . لكننا لم نكشف السر الا بعـد سنة تقـريباً . فقـد خطرت لأحـد مساعدي فكرة واتصل فوراً ببالميرا من مدرسـة الشيفرة وطلب منـه ان يدقق تلك البرقية فيما اذا كان من الممكن ان يكونوا قـد قرؤوا خـطأ كلمة «اوركي» بدلاً من «دريي» («تري ـ ثـلاثة») وبـالميرا اجـاب بنعم ، كانت تلك كلمـة «دريي» ولم يفهم بالميرا كيف ان عمال الشيفرة قـرؤوها «اوركي» . فقـد كان الكلام في تلك البرقية عن هيرش و «اوركي» يـه ومرافقيـه اي زوجته وحمـاته وغيلينسكي . وعنـدما بـدأت الحكومـة البريـطانيـة النـظر في شكـوى بقيـة

المسافرين عن الخطأ الذي تم بموجبه ايقافهم كنت في اسطنبول ادبر امر إرسال جواسيس انكلترا الى الاتحاد السوفييتي . حتى الآن تكلمت فقط عن التقاط البرقيات والمكالمات اللاسلكية ، ولكن كانت هناك اساليب اخرى ، اقل فائدة بالنسبة لعمليات الجاسوسية المضادة ، ومع ذلك فقد حصلنا منها على نتائج محددة . فمثلاً مراقبة البريد كشفت لنا حادثين مهمين جداً . استعملنا ايضاً اسلوب مراقبة البريد الدبلوماسي . طبعاً لم يكن باستطاعتنا ان نراقب البريد الدبلوماسي المعادي ، مباشرة ، لأنه مثل هذا البريد لم يكن يرسل الى لندن طيلة سنوات الحرب . ولكننا كنا نراقب البريد الدبلوماسي لبعض الدول المحايدة او الدول الحليفة الصغيرة مثل بولونيا وتشيكوسلوفاكيا . ولكن مراقبة هذا البريد كانت تتم عبر عمليات معقدة جداً .

كان لابد من اقناع مرافق البريد الدبلوماسي بترك حِزَمه تحت رعاية الانكليز . ولقد ثبت ان هذا الامر ليس صعباً لأن حراسة البريد الدبلوماسي في اكثر الدول كانت منظمة بشكل سيء . في ذلك الوقت كان الاتصال ببريطانيا يتم جواً فقط والبريد الدبلوماسي لكل الدول كان يرسل جواً فقط . ولذلك لم يكن من الصعب ، خاصة في تلك الاثناء ، اختراع اي سبب لتأخير إقلاع الطائرة . بمجرد وصولها كان يبلغ قائدها بسوء الاحوال الجوية او بوجود عطل فني في الطائرة . وهذا وذاك كانا يعنيان تأخير اقلاع الطائرة لوقت طويل . كان على الطيار ان يختار : البقاء على كرسيه في المطار أو التوجه الى اقرب فندق . وفي الحالة الاخيرة كان ضابط الامن يطلب من الطيار ان يضع البريد الدبلوماسي في كبينه ثم يقفل عليه امام عينيه . واعجب مافي الامر ان تلك الحيلة الصبيانية انطلت على الأكثرية الساحقة من الطيارين .

فور مغادرة طاقم الطائرة يقوم ضابط الامن باستدعاء اشخاص مختصين ويضع الكبين تحت تصرفهم . قبل الإقدام على فض اية رزمة كانت

تفحص بدقة متناهية من كل جوانبها وزواياها ثم تؤخذ لها الصور الضرورية وعند الضرورة كانت تخضع للتحليل الكيميائي بعد ذلك يتم فضها ونزع الأختام عنها ثم تسحب الوثائق وتصوّر . ويبقى اخيراً اصعب مهمة وهي اعادة كل شيء الى ماكان عليه بالضبط حتى ادق التفاصيل . الاستثناء الوحيد من هذه المراقبة كان البريد الروسي : احياناً لأن هذا البريد كان يرافقه شخصان احدهما يبقى والآخر يذهب واحياناً خوفاً من وجود قنبلة موضوعة خصصياً للفضوليين . بالمقابل فإن المراسلات الدبلوماسية لدول امريكا الجنوبية ، اسبانيا ، البرتغال ، تشيكوسلوفاكيا ، بولونيا ، اليونان ويوغسلافية وكثير من الدول الاخرى كانت تخضع لمراقبة دقيقة بصورة دائمة .

ولكن بالرغم من الدقة والحذر المتبعين اثناء عملية المراقبة كانت تقع احياناً بعض الاشكالات . ففي احدى المرات تعذر اعادة اللون الاحمر للختم الموجود على إحدى اللفائف التابعة للبريد الدبلوماسي البولوني مما حدا بالحكومة البريطانية الى الاعتذار عن ضياع الرزمة المذكورة ويبدو ان محتوى الرزمة لم يكن مهماً لأن البولونيين قبلوا الاعتذار . ولكن كان من الممكن ان يكون الوضع اسوأ فيما لو كان هناك مرافق لذلك البريد .

مع بداية العام ١٩٤٢ تحولت البرقيات الملتقطة من المراسلات والمكالمات الالمانية الى سيل جارف . والفضل في ذلك يعود الى ديلي نوكس الذي استطاع ان يحل اسرار الشيفرة الالمانية . لقد ساعدت هذه الشبكة الواسعة على كشف بعض الحوادث الخاصة في حياة ضباط المخابرات الالمانية . مثلاً «قضية اكسيليا» ـ كلبة بوليس المانية . ارسلوها من برلين الى الخيسيراس ـ على الارجح لحماية مركز تابع للمخابرات الالمانية من الجواسيس الانكلز الذين تسللوا عبر مضيق جبل طارق . في المرحلة الاخيرة من رحلة الكلبة ارسلت الى مدريد برقية تحذير الى رئيس مكتب الاستخبارات في الخيسيراس البيرتو كاربي المسمى تسيزه : «كونوا حذرين

مـع اكسيليا . انها تعض» . بعـد عدة ايـام الخيسيراس اجـاب بـاقتضـاب «تسيـزر في المستشفى . عضته اكسيليـا» . خلال فـترة وجيزة اصبـح لـدى القسم رقم خمسة صورة واضحة عن عمل المخابرات الالمانية في شبـه جزيـرة ايبريا . فقد اصبحت معروفة حتى وظائف الضباط التابعين لمراكز مدريـد ، برشلونة ، بيلبـاو ، فيكو ، الخيسـيراس . . الخ . وعنـدما اصبحت لـدينا كمية لابأس بها من المعلومات حدثت حادثة اثبتت مرة اخـرى خطورة ذلـك الوضع عندما تعمل مؤسستان على معالجة القضايا نفسها في منطقة واحـدة . لقد اشرت سابقاً الى ان الملحقيات العسكرية لدى السفارات الـبريطانيـة في الخـارج لم تكن تمـارس ايـة نشـاطـات تجسسية . ولكن كـانت هنـاك استثناءات . فقد حصل النقيب خيلكارت الملحق العسكري لدى السفارة البريطانيـة في اسبانيـة على مخصصـات سرية لصرفهـا على العمـل التجسسي هنـاك وقـد سـاعـده في الحصـول عـلى هـذا الاستثنـاء عـلاقتـه الشخصيـة بتشرشـل . والشخص الـوحيـد في المخـابـرات الـبريـطانيـة الـذي سمح لخيلكارت ان يقيم معه علاقات هو رئيس المخابرات نفسه . شكلياً كان هذا الاجـراء يهـدف الى الحفـاظ عـلى سريـة المعلومـات التي يحصـل عليهـا خيلكارت . ولاشك ان ذلك ادى الى نمو الشعور بالعظمة عند هذا الضـابط ولذلك ليس عبثاً انه اتخذ لنفسه الاسم الحركي «أرمادا» في احد الايام طلب مني كـاوغيل ان اتفق مـع الشيف على مـوعد لبحث اخبـاريـة من أرمـادا . الاخبارية كانت تتعلق بالالمان في اسبانيـا . في تلك الايام نـادراً ماكنت أرى الشيف فقد كنت احس بالخجل امامه أما اليوم فقد كان ذا مزاج مـرح . لقد قال انه تعدّى على «ممتلكـاتي» عندمـا سمح لأرمـادا بممارسـة اعمال التجسس المضاد في اسبانيا وجمع معلومات عن ضباط المخابرات الالمانية المـوجودين في اسبانيا . ودفـع الي بقائمـة تحتوي عـلى معلومات مقتضبـة عن مجموعـة من اولئك الضباط : غـوستاف لينس ـ رئيس المـركز ، غـانس غودي ـ مسؤول عمليات التجسس على الاسطول . . الخ . علقت على ذلك قائلاً بـان هذه

المعلومات صحيحة . رفع الشيف حاجبيه : كيف علمت بأنها صحيحة ؟ لأن هذه المعلومات موجودة لدينا . وماذا تعرف ايضاً ؟ كثيراً . لماذا لم تخبروا الشيف بتلك المعلومات ؟ نحن نضع تقريراً شهرياً عن عملنا ونرسل نسخة عنه للشيف . في هذه اللحظة كشف الشيف عن كونه رجلاً يتعامل بصدق فعلاً • «عزيزي فيلبي ـ قال بابتسامته الخاطفة المعروفة ـ ، هل تعتقد فعلاً انني اقرأ كل ما يوضع امامي على الطاولة ؟» لقد قررنا ان نطلب من مصادر أرمادا معلومات اضافية ولكننا لم نفلح . لقد دهشت عندما علمت ان مصدرهم هو موظف كبير في مركز المخابرات العامة الاسبانية . يجب ان يكونوا قد دفعوا له كثيراً اما انا فكنت اقاتل للحصول على خمس جنيهات اضافية في الشهر للجواسيس الذين كانوا يزودوننا بصورة مستمرة بالمعلومات نفسها .

واحدة من الصعوبات الاساسية في عملية التجسس هي كيف نحصل على المعلومات ؛ والثانية لها نفس الاهمية وفي بعض الاحيان اصعب بكثير وهي كيف نحققها في الواقع . من المتفق عليه ان القاء القبض على الجواسيس المعادين لانكلترا امر ممتاز . ولكن كيف يمكن استخدام المعلومات التي حصلنا عليها بصعوبة فائقة عن تنظيم الالمان في كل شبه جزيرة ابيريا وعن المركز الذي يوجه كل هذه العمليات من المانيا . لقد بدأت بالتدريج اعي ان هذه الكمية الكبيرة من المعلومات التي نحصل عليها تتطلب ان نتعامل معها بشكل خلّاق اكثر مما كان عليه الوضع سابقاً . لقد كان قليلاً ان نخبر فرع امن الدولة بان هناك عميلاً المانيا دخل البلاد او القينا عليه القبض في ترينيداد . لقد كان علينا في اقل تقدير ان نعيق تحركات الالمان التجسسية في اسبانيا إذا لم نستطع القضاء عليها كلياً . وقد اتفق زملائي السوفييت معي تماماً في هذا الرأي . بدأت هذه الافكار تسيطر علي مع تزايد المعلومات الواردة الينا عن بدء الالمان في الاعداد لعمليات واسعة سوف تستخدم خلالها آخر معطيات التكنيك . لقد اعطت المخابرات

الالمانية لهذه العمليات رمزاً سرياً «بودن» . بودن اسم ممر مائي ضيق يفصل جزيرة /يوغن/ عن المانيا ، ليس بعيداً عن مركز الابحاث العسكرية في بيننمودي . بعد مقارنة هذه المعلومات مع المعلومات الاضافية المتوفرة عن ان اخصائيي «بودن» يجمعون اختراعاتهم التكنيكية في الخيسيراس اصبح واضحاً انه يُعد لعمل ما له علاقة بمضيق جبل طارق . تشاورت مع الدكتور جونس رئيس القسم العلمي لدى المخابرات البريطانية . وبعد دراسة دقيقة للمعلومات والمواد المتوفرة لدينا اكد جونس بأن الالمان يهدفون من وراء ذلك الى تثبيت أجهزة لرصد تحركات السفن التي تعبر المضيق ليلاً . لقد كان ذلك يشكل خطراً جدياً على خط امداد منطقة غربي المتوسط . وقد قررت أن الأوان قد حان لتوجيه الضربة للالمان في اسبانيا . واستقر الرأي على عملية دبلوماسية كأفضل إجراء . لقد كان الانكليز يملكون حقاً شرعياً في الاحتجاج لدى الحكومة الاسبانية لسماحها للالمان بالنشاط بحرية فوق أراضيها . فتوجيه احتجاج شديد اللهجة مدعم بوقائع مفصلة كان عملاً ذكياً . ولم يكن لدي ادنى شك في ان الجنرال فرانكو لن يتخذ اية اجراءات ضد اصدقائه الالمان ولكنه حتماً سيحذرهم كصديق من المعلومات الدقيقة المتوفرة لدى المخابرات البريطانية . لقد تذكرت الجنرال وسميكوت من كتاب كومينيون ماكينزي «غسل الادمغة» ، عندما قال «في النهاية ، إن اهمية جهاز الخدمة السري تكمن في ان يظل سرياً» . لقد كانت متوفرة لدينا كل الدلائل التي تشير الى ان غوستاف لينتس رئيس مركز المخابرات الالمانية في اسبانية سوف يفقد عقله فيما لو استطعنا ان نثبت له بأن اسراره لم تعد سرية . قبل كل شيء كان يجب إقناع كاوغيل بأن مثل هذه العملية ممكنة ويجب القيام بها . والاتهامات من قبل الانكليز يجب ان تصاغ على اساس المعلومات المتوفرة من الاتصالات الملتقطة بالشيفرة والتي يخفيها كاوغيل حتى عن بعض المنظمات الانكليزية . لقد كانت الفكرة الاساسية في عمليتي هذه هي إيصال هذه المعلومات الى الالمان عن طريق كتاب الاحتجاج الذي

سيقدم الى الحكومة الاسبانية . ولدهشتي الهائلة فإن كاوغيل وافق على مشروعي وحمله الى الشيف الذي وافق عليه وارسله الى وزارة الخارجية وتم تقديمه مع مذكرة الاحتجاج الى حكومة فرانكو عن طريق سفيرنا في مدريد صموئيل هور .

من الصعب ان نقول اشياء طيبة عن السير صموئيل ولكن للحقيقة يجب ان اقول إنه قام بهذه المهمة بشكل رائع . لقد ذهب السفير مع كافة اعضاء سفارته باللباس الرسمي الى رأس الحكومة الاسبانية . ماذا قال فرانكو عندها ، نحن لانعرف حتى الآن ولكن النتائج كانت رائعة وفاقت كل الاهتمامات . لقد تم تبادل الرسائل بالراديو بين برلين ومدريد في ذلك الوقت بصورة مكثفة . وفي الوقت نفسه اتخذ الالمان الاحتياطات الضرورية كافة . لقد جاءنا النصر النهائي في هذه العملية على شكل امر قطعي من برلين الى مدريد : «اوقفوا عملية «بودن» نهائياً» . الانكليز كالعادة تابعوا التقاط رسائل الشيفرة ورسائل الراديو الالمانية ولذلك فإن كشف العملية لم يفضح مصدر معلوماتهم .

في غمرة انتصارنا الذي حققناه في اسبانيا بدأت عملية مماثلة ضد الالمان في البرتغال ولكنها لم تعط اية نتائج مهمة . كان هدفنا في اسبانيا محدداً : فالجنرال فرانكو اعلن نفسه حليفاً لعدونا ، وباستثناء قلة قليلة من كبار موظفيه كان كل الجهاز الحكومي الاسباني متعاطفاً مع دول المحور . لقد كان باستطاعتنا ان نكون واثقين من اننا إذا وجهنا ضربتنا في اسبانيا فستكون النتائج ايجابية . لم تبد وزارة الخارجية ، كما كانت عادتها ، اي شيء من ضبط النفس لأنها لم تخف فيما لو كوَت فرانكو بدلاً من ان تكوي الصوف ، طالما انه تتوفر لديها الاسباب للقيام بهذا العمل . وفيما يتعلق بالمخابرات البريطانية فقد كان اصدقاؤها قلة نادرة في اسبانيا ولذلك فهي لم تخف اية حملة ارهابية يمكن ان تشن ضدهم .

لقد كان الوضع السياسي في البرتغال مختلفاً . فالامور هنا غامضة

لاوضوح فيها . والحقيقة ان الدكتاتور سالازار كان متعاطفاً مع دول المحور ولكنه كان اكثر حذراً من زميله دكتاتور اسبانيا واتخذ موقفاً اكثر حيادية . وحرصاً من بريطانيا على موقف سالازار هذا فقد كانت وزارة الخارجية اقل حسماً في تصرفاتها : فسالازار كان من المحتمل ان يغير سياسته في غير مصلحة انكلترا . لقد تكوّن لدى المخبرين تصور أضيق فيما يتعلق بهذا الامر . كنا نعلم ان كبار الموظفين البرتغاليين كانوا يقبضون من الالمان ومن الاستخبارات البريطانية . وكان من الصعب التحديد لمصلحة من كانوا اكثر اخلاصاً . هذا فيما إذا كانت هناك اية فائدة من هذه الدوامة . ولكنني لم اكن اريد ابداً ان يُطرد هؤلاء الموظفون من قبل الالمان .

كل هذه الاعتبارات اخذت بعين الاعتبار عند صياغة ورقة الاحتجاج الى الدكتاتور سالازار . فكبار موظفي السفارة البريطانية في لشبونة لم يرتدوا بذاتهم الارستقراطية ويذهبوا اليه ، فقد كان السفير الانكليزي السير رونالد كيمبيل يبحث مثل هذه الامور عادة في وزارة الخارجية البرتغالية ولم تكن اجوبة وزير الخارجية البرتغالي سامبايو اقل ديلوماسية من سلوك سفيرنا هناك . لقد قال الوزير : إن خرق حياد البرتغال من قبل الالمان كما جاء في احتجاجكم هو عمل سيء وغير مقبول من قبل الحكومة البرتغالية . ولكن هل انتم واثقون من مصادر معلوماتكم ؟ هو نفسه يجد صعوبات بالغة في تقويم المعلومات الواردة من الاستخبارات . وبشكل عام فإن هذه القضية صعبة ومعقدة وغير مفهومة . فمثلاً لديه معلومات مفادها أن بعض الدول الاخرى لم تكن اكثر احتراماً لحرمة الاراضي البرتغالية في نشاطاتها . وإذا أقدمت الحكومة البرتغالية على اتخاذ اية تدابير ضد الالمان فإن هؤلاء سوف يطالبونها باتخاذ اجراءات مماثلة ضد الحكومات الاخرى . والاصرار على اتخاذ مثل هذه الاجراءات يضع الحكومة البرتغالية في موقف صعب . وهو اي سامبايو سيقدم فوراً احتجاج السير رونالد الى الدكتاتور سالازار ولكنه يشك في ان الدكتاتور سيتخذ اية

اجـراءات دون دراسة هـذا المـوضـوع المتشعب من جميـع جـوانبـه . وانهى سامبايو حديثه بهذا الخرق للمنطق الـدبلوماسي . «لمـاذا ـ تنهد هـو ـ تمارس الدول المتحاربة اعمال الجاسوسيـة ؟ فلو ركزت تلك الـدول نشاطـاتها عـلى اعمال الجاسوسية المضادة لما اعترض احد على ذلك» . مـع ان رئيس منظمـة الجاسوسية الانكليزية المضادة في لشبونة كان رجلاً حاذقاً فإن عملياتنـا هناك انتهت دون الوصول الى نتيجة محددة . فمثـلا ، قضية ستيلويـل الانكليزي الذي عاش سنوات كثيرة في الـبرتغال . فقـد اثار اسم هـذا الشخص اهتمام الاستخبارات الانكليزية في وقت كانت فيه معلوماتنا عن اعمال الجـاسوسيـة الالمانية في الـبرتغال ضعيفـة مما ادى بنـا الى الاعتقاد بـان الجواسيس الالمـان الذين استطعنا كشفهم في الاهمية بمكـان الامر الـذي ثبت عكسه فيـما بعد . منهم مثـلاً ، فيليتسين ـ تـاجر المـاني اعتقـدنـا انـه شخصيـة لهـا اهميتهـا . وبصعوبة فائقة استطعنا ان نسرق من مكتبـه ورقة اعتقـدنا انها من اضبـارته الخاصة . واعتقد ايضاً اننا اصبنا الهـدف . الورقـة تشير بصراحـة الى انه في الوقت الاخير كـان سيلويل يتلقى بصـورة دورية نقـوداً من فيلتسين . ولكن كـان من غير الممكن اعتبـار المسألـة منتهية : فمن الممكن ان تكـون الورقـة مزورة . ولو حدث هذا بعد سنة او سنتين لما اسرعنا في اتخاذ القـرار ولكن في ذلك الوقت كان لدينا عدد قليل من الجواسيس ولذلك فإننا كنا على استعداد للمغـامـرة في سبيـل الحصـول عـلى معلومـات كـاملة عن هـذا الفيلتسـين الغامض .

عُـرض على ستيلويـل العودة الى انكلترا . وفـور وصـولـه اعتقـل وفي صبـاح اليوم التـالي اقتيد للتحقيق . لقـد صمـد للتحقيق بجـرأة وعبر عن امتعـاضه من هـذا الاسلوب غير الشريـف . ولم تؤثـر الورقـة المذكـورة عليه أبـداً . وتصرف على اسـاس انه رجـل بريء ، فـاطلقـوا سراحـه بـاعتـذار خجول . عندها قرر الانكليز اقتحام مكتب فيلتسين والسطو على كل اوراقه ولكنه كان حذراً ولم تكن هذه العملية اوفر حظاً من عملية اعتقال ستيلويل .

ولكن سرعان ماأكدت المعلومات الملتقطة بالشيفرة ان فيلتسين لم يكن الشخصية المركزية في نشاطنا وانه ليس الا حجر شطرنج . وقبل ان اترك البرتغال لابد من اعطاء وصف لتحقيق نموذجي . احدى السيدات جاءت الى انكلترا من البرتغال ، وتوفرت لدينا معلومات بان لها علاقات مع ضباط من المخابرات الالمانية . عند تفتيشها تم العثور على دفتر مذكرات صغير كتبت فيه عبارات غامضة مختصرة . وعندما طلب منها المحقق ان تشرح له معنى كل ماكتب في دفترها اظهرت ذكاء حاداً ونفت ان تكون لكتاباتها اية صلة بعلاقاتها مع اصدقائها من الالمان . هنا قرر المحقق توجيه ضربته الاخيرة لها : «اسمحي لي يامسز ان ألفت انتباهك الى محتوى احدى كتاباتك المؤرخة بتاريخ كذا والتي تقول : «قضيت يومي جالسة على فانور [1]» بعد وقفة متمعنة قال : «من هي فانور هذه ؟ وباي شكل كانت لك ؟ ولماذا جلست عليها ؟» تحت تأثير هذا الغباء الذي لامثيل له «سقطت» المرأة واعترفت بكل شيء . اثبتت اعترافاتها انه كانت لها فعلاً علاقة جنسية مع الالمان الا ان علاقاتها معهم كانت بشكل عام لاعلاقة لها بالتحركات العسكرية الانكليزية. في هذا الوقت بالذات كنت على وشك ان اجلب لنفسي المتاعب. لقد اشرت الى ان الارشيف المركزي للاستخبارات البريطانية يقع في بناء غليناموند . وسرعان ماأصبح بيلي بودفيل رئيس الارشيف من اصدقائي . وواحدة من نقاط ضعفه كان حبه للجن الوردي . لقد كانت هذه العلاقات الودية مفيدة بالنسبة لي ، لأنني اصبحت اتلقى أعمالاً من الارشيف بشكل اسرع واسهل بالمقارنة مع زملائي . كان الارشيف يعاني من نقص كبير الى العاملين وبالتالي فإن العاملين فيه غالباً ماكانت تنقصهم الخبرة. وكانت تحفظ هناك اعمال معروفة ككتب ـ مصادر. وكانت تحتوي على اسماء ووصوفات لعملاء المخابرات البريطانية خارج بريطانيا. كانت لي رغبة لأن اعرف كل شيء عن عملاء المخابرات البريطانية

(١) هنا تلاعب بالالفاظ . فانور مؤخرة ـ اسم مؤنث .

في شبه جزيرة ابيريا ولكن هذا فتح شهيتي . وبدأت قراءة مكثفة ومثابرة لتلك الكتب لكي احيط نفسي علماً باعمال المخابرات البريطانية بشكل عام . وعندما وصلت الى الكتاب الخاص بالاتحاد السوفييتي وجدت انه يتألف من جزأين . وبعد ان قرأتهما اعدتهما الى مكانهما حسب النظام الذي وضعا فيه . بعد اسبوع اتصل بي بيلي وطلب مني الجزء الثاني من المصدر الروسي . وبعد ان اتصلت مع سكرتيري اعلمته بأننا اعدنا المصدر بتاريخ - كذا . وبعد بحث غير مجدي شك بيلي في صحة حسابنا وطلب ان نتأكد مرة اخرى من سجلاتنا . وقلبت كل شيء رأساً على عقب ولكن دون فائدة . تقابلت مع بيلي عدة مرات حول كأس من الجن لبحث هذا الحدث السري . قال بيلي حسب الاصول فإنه يترتب عليه ابلاغ رئيس المخابرات البريطانية عن فقدان المصدر فوراً . ولكنني استطعت اقناعه ان ينتظر عدة ايام . ازداد قلقي . وكنت اشك في ان الشيف سيأخذ اهتمامي بقراءة المصادر هو للاطلاع فقط . ولكن مالبثت الغيوم ان تبددت واعتذر بيلي بشدة . القضية ، هي إن احدى سكريتيراته بهدف الحصول على مكان اضافي على الرف وحدت الجزأين في كتاب واحد . ثم اصيبت بالكريب لعدة ايام . وعندما جاءت الى مكتبها سألها بودفيل عن الكتاب فاخبرته بكل شيء . قبلت اعتذار بيلي وتقابلت معه في المساء لنغسل بالجن الوردي عذابات الأيام الماضية .

الفصل الرابع

المخابرات الانكليزية وحلفاؤها

لقد كان كاوغيل يحب الجو العائلي كثيراً لذلك فالعمل في الفرع رقم خمسة سار في جو ودي للغاية . لقد اصبح الضباط والسكرتارية ينادون بعضهم بالإسم فور مباشرتهم العمل . وكثيراً مايحدث ان يجلس الجميع ويبدؤوا فجأة بلعب الورق وفي هذا ايضاً تكمن فائدة مهنية ما . فلم تكن هناك اية صعوبة في معرفة مايقوم به زميلك من عمل : مايعرفه واحد فقط يصبح معروفاً للجميع . وهذا ماوفر لي امكانية التحرك بحرية تامة . كاوغيل لم يكن يهتم متى نفذ العمل وكيف . المهم بالنسبة اليه هو التنفيذ . لم يكن يبدي اية ملاحظات اضافية حول كمية الاوراق والوثائق التي تم أولم يتم انجازها . فهو يعلم ان مثل هذه المواد كانت تأتينا يومياً بكثرة . وهذا يعني انه كان باستطاعتي ان اذهب متى اشاء الى لندن بحجة توطيد العلاقات مع اقسام المخابرات البريطانية الموجودة في برودفيي - بيلدينغس ، مع فرع امن الدولة وغيره من الاقسام والمؤسسات التي تتعامل معنا . لقد اعتدت ان اقوم بمثل هذه السفرات مرة كل اسبوع . وكنت احمل معي حقيبة مليئة بالوثائق وقائمة طويلة بالزيارات التي سأقوم بها . وكنت اتبرع بان اقوم بالمناوبة مرة او مرتين شهرياً في برودفيي . لقد كان هذا عملاً مفيداً جداً ، فالبرقيات التي تأتي ليلاً من انحاء العالم كافة كانت تلقي مزيداً من الضوء على نشاطات الاستخبارات البريطانية [1] . لقد كان البناء في برودفيي قديماً

(١) واحدة من اثمن القضايا التي كان للمناوب ليلا الحق في الاطلاع عليها هي برقيات الملحقية العسكرية البريطانية في موسكو والتي كانت ترسل عن طريق الاستخبارات البريطانية .

يلفه الظلام وتكثر فيه الحواجز الخشبية . كان هذا البناء مؤلفاً من ثمانية طوابق مزودة بمصعد قديم ، وفي اول زيارة لي الى هناك وجدت نفسي في المصعد مع شخص كان عامل المصعد يتكلم معه باحترام زائد . لقد رماني هذا الشخص بنظرة حادة وحول نظره عني . كانت بنيته جيدة ، ثيابه انيقة ولكن ما أثار عجبي فعلاً هو اصفراره : وجه اصفر ، عينان صفراوان وشعر فضي لامع ينساب تحت ياقة بذته . عندما خرج من المصعد في الطابق الرابع سألت من كان هذا الشخص . «ماذا تقول سير ؟ هذا هو الشيف !» اجابني عامل المصعد بشيء من العجب . في ذلك الوقت كنت لا اعرف الا القليل عن الشيف . كان اسمه ستيوارت مينزيس[1] برتبة عقيد ، مكتبه يقع في الطابق الرابع وكان يكتب على ورق سماوي اللون . ويستخدم الحبر الاخضر فقط ، خطه يُقرأ بصعوبة فائقة . قبل ان يصح رئيساً للمخابرات العامة البريطانية كان يرأس القسم الرابع الذي كان يقوم بأعمال الجاسوسية العسكرية .

كان رمزه الرسمي «ك . س . س» ولكن في المراسلات الخارجية كان يمكن ان يرمز اليه باية ثلاثة احرف متتابعة حسب الترتيب الابجدي «ا ب ث» «س ش ص» الخ . . في الدوائر الحكومية كان يرمز اليه بالحرف «ك» . هذه كانت كل معلوماتي عن الشيف عندما قابلته اول مرة في المصعد . وقد تأتّى لي ان اعرفه في المستقبل عن كثب . استبق الاحداث واقول انني اتذكره باحترام ولكن ليس لتلك الصفات التي كان يفخر بها هو نفسه . بالاضافة الى علاقتي مع فينغيك الذي كان يقود العمل في شبه جزيرة ابيريا بسلبية ، كانت أول علاقة لي في برودفيي مع واحد من اقرب اصدقاء الشيف ويدعى ديفيد بويل . كان هذا يشرف على مراقبة المعلومات التي كنا نحصل عليها من البريد الدبلوماسي . لقد قالوا ان بويل يؤثر كثيراً في سياسة الاستخبارات البريطانية نتيجة لقربه من الشيف . وكنت معبأ ضده لأنني

(١) اللواء ستيوارت مينزيس رئيس الاستخبارات البريطانية من عام ١٩٣٩ حتى عام ١٩٥٣ .

سمعت عنـه كثيراً من الاقـوال السيئة . ولقـد تأثـرت تصوراتي الأولى عنـه بتلك الاشاعات . لكنه لم يكن انانيـاً ولامتعاليـاً وهذه اكـره الصفات الي . كان يستطيع ان يحصل عـلى تعليمات من المسؤولـين في وزارة الخارجيـة وهذا ماكان مهماً بالنسبة لي . بالاضافة الى ذلـك لم يكن بويـل يمتلك موهبـة تؤهله لأن يقوّم المعلومات التي تمر عبر يديه وهذا هو الأهم بالنسبة لي . ومع انه كان يكبرني بضعفين إلا انه بدأ يعتمد على رأيي اكثر فاكثر . وانا بالمقابـل اظهرت له كل مظاهر الاحترام الشكلية ، الامر الذي جعل علاقتي معه تسير بشكـل لابأس به .

لقد تعرفت عن طريق بويـل الى العقيد المشهـور كلوديـنسي الذي قـام قبل الحرب بتشكيل منظمة عرفت بـ «ز» كانت مهمتها التغلغل داخل المـانيا عبر الحدود السويسرية . لكن بعد سقوط فرنسـا تكبدت شبكـة اتصالات المنظمة «ز» خسـائر فـظيعة . ولمتـابعة العمـل في سويسرا أبقى دنسي هنـاك ضابطاً حاذقاً . كان الضابط يـدعى فان ديـر هويغـل الذي يقـال انه سليـل امراء الامبراطورية الرومانية المقدسة . وليعذرني إذا كنت لم أكتب اسمـه هنا بشكل صحيح فأنا في هـذا لست الوحيـد . ذلك انـه عندمـا اتفقت واياه ان نتناول طعام الغذاء في مطعم «غاريك» لم يفهم الجـارسون ، إلا بعـد لأي ، من أريد أن ارى . «و. و. و! ـ تعالى صـوته اخيـراً ـ هل انت تقصـد السيد فانوفالا؟» واشار الى المكان الذي اجده فيه .

لقد اشرت الى ان دينسي كان ضد اعمال الجـاسوسيـة المضادة بشكـل قاطع . ولكن الـذي اثار دهشتي انـه يحسب حسابـاً لكل شيء وانـه عندمـا تستدعي الضرورة يفضل التكلم بالهاتف ومن بعيد او الكتابة على الـورق . وكانت افضل طريقة للتعـامل معـه هي محاربتـه بطريقتـه نفسها . يبـدو انه ارتاح كثيراً لزيارتي الاولى له ، وكان منطقياً تماماً في حـديثه . وهـذا ماجنبني كثيـراً من الصعوبـات التي كان من الممكن ان تصـادفني في التعامـل معـه ، باستثناء سخـريته احيـاناً من فيفـين . ولحسن الحظ ان خلافـاتي معه كـانت

قليلة ولذلك فقد اسقط اسمي من اعدائه .

لقد كنت اسعى للالتقاء بفيفين الذي لم تكن ترجى منه اية فائدة في تحقيق اهداف عملية مباشرة لأنه كان دائماً يخاف دينسي وحتى مرؤوسه - كاوغيل . كان اذكى من الاثنين معاً . كان يميل الى التفكير الهادىء ولذلك كان دائماً يغوص في محاكمات واسعة عن تاريخ الاستخبارات البريطانية ، عن سياستها وشخصياتها ، وكذلك عن علاقاتها مع فرع امن الدولة . لقد، استطعت ان اعرف منه عن تعقيدات آلة الدولة اكثر بكثير من أولئك المتسرعين اصحاب نظرية «النتائج الفورية» أمثال دينسي وكاوغيل . في البدء لم استطع ان ادرك بوضوح ماهي الخدمة التي يمكن ان يؤديها لي فيفين للوصول الى هدفي في الحصول على مركز واحد في المخابرات البريطانية . ولقد ندم كاوغيل فيما بعد كثيراً لأنه اعتبر فيفين شخصية محطمة .

المسافة الفاصلة بين برودفيي - بيلدينغس عبر سانت - جيمس - بارك الى فرع امن الدولة في سانت - جيمس - ستريت قصيرة جداً ، ولكن الاختلاف في اسلوب العمل كان كبيراً . العمل في فرع امن الدولة كان اقل واسهل . لقد كنا في الفرع رقم خمسة نشكو من التفصيلات التي كانوا في فرع امن الدولة يجدون وقتاً كافياً لحشو رسائلهم بها . ولكن مع ذلك ففي فرع امن الدولة يشعر الفرد باهمية حرفته وهذا مالا يمكن مقارنته بالوضع في برودفيي . ومن الممكن ان يكون ملاك فرع امن الدولة كبيراً ولكن بالمقابل فإن اكثر الضباط كانوا يعرفون تماماً مايلزم عمله ، وكيف ، الشيء الذي لايمكن الكلام عن وجوده في برودفيي .

ولكن لم يكن الامر هكذا دائماً . فبعد سقوط فرنسا اصطدم فرع امن الدولة بوضع لم يكن في حالة تمكنه من مواجهته . والحديث هنا عن الاشاعات التي سرت في فترة ما عن نشاط «الطابور الخامس» الالماني في انكلترا . فبعد عدة اشهر من معركة دنكرك بدأ فرع امن الدولة يتلقى سيلاً من الاخباريات عن وجود اشخاص يتكلمون الانكليزية بلكنة اجنبية . لقد

دبت الفوضى في العمل . اول زيارة لي لفرع امن الدولة كانت في ربيع ١٩٤٠ وكان يرافقني النقيب بيترس . الفوضى كانت هي المسيطرة على سير العمل . مغلفات الرسائل التي لم تقرأ بعد كانت مبعثرة على الارض والموظفون يقولون إنه ليس باستطاعتهم ان يقرؤوا عشر تلك الرسائل فكم بالاحرى الاجابة عليها . ولحسن الحظ لم تكن لتلك الرسائل اية اهمية لأنه ثبت ان «الطابور الخامس» لاوجود له في انكلترا . لقد اوكلت مهمة تنظيم تلك الامور الى شخص يدعى هاروكس استدعي خصيصاً من ستي لانجاز تلك المهمة . وبعد سنة كاملة من العمل استطاع ان يؤكد أنه حقق نجاحاً تاماً . كان هاروكس يقوم بأعمال إدارية بحتة بينما كان اهتمامي منصباً على الارشيف . كان ارشيف فرع امن الدولة يشغل آنذاك قسماً من قصر بلينهايم . وكان يمكنك ان تجد اية وثيقة موجودة هنا بكل سهولة ويسر . فكل شيء منظم حسب بطاقات مرتبة ترتيباً رائعاً . وهنا كانت وفرة من عمال الارشيف الاختصاصيين الذين كانوا يسيّرون العمل بمعرفة تامة . لقد تملكني العجب عندما علمت ان كل فتاة من الفتيات العاملات في هذا الارشيف تعرف محتوى الاوراق المسؤولة عنها .

وتبعاً لنوع عملي كانت اكثر علاقاتي مع القسم «ب» في فرع امن الدولة . في هذا القسم كانت تتم عملية تقويم المواد المستلمة وتحديد اهميتها وكذلك تحديد المهمة اللاحقة . وتحديد المهمة هنا يُقصد به تحديد طريقة استعمال المواد المتسلمة ، وليس اتخاذ اجراءات كالاعتقال وغيره ، لأن ، جهاز المخابرات مثله مثل فرع امن الدولة ، لم يكن يمتلك اية سلطة تنفيذية . ففرع امن الدولة لم تكن له صلاحيات اعتقال المشكوك في امرهم وانما كان يقترح على السلطات المحلية اعتقال هذا او ذاك ممن تحوم حولهم الشبهات . عملياً كان اتباع هذا الاسلوب يدخل في إطار الشكليات لأن اقتراحات فرع امن الدولة كانت تنفذ فوراً . ولكن من الناحية الشكلية والنظرية كان يتم التقيد بهذا الاسلوب بشكل صارم .

هـذا في رأيي يعتبر واحـداً من اسباب الـرقي المهني لفرع امن الـدولة بالمقارنة مع جهاز المخابرات . ففرع امن الدولة يعمل داخل انكلترا ولـذلك فهـو ملزم ان يتقيد بـالقوانـين البريـطانية الى الحـد الاقصى . ومن حق هـذا الفـرع ان يطلب ، في بعض الحـالات ، تجاوزاً محـدداً للقوانـين المـرعيـة . ولكن كل تجاوز من هذا النوع كان يتطلب فتوى من الحكومة تأتي عـلى شكل امر من وزارة الداخليـة . مثلاً بنـاء على امـر من هذا النـوع يمكن لفرع امن الـدولة ان يقـوم بمراقبـة المكالمـات الهـاتفيـة لشخص مـا او للجـان الحـزب الشيوعي . ولكن على فرع امن الدولة ان يكون حذراً هنا . لأن اية خطيئـة يمكن ان تؤدي الى تحقيقات في البرلمان وتقوم قيامة الاعلام مما يجر اسوأ النتائج على سمعة الفرع .

مثل هذه العقبات ليست قائمة امام جهاز الاستخبارات ولاشيء ابـداً يمنعـه من خرق قـوانين الـدولة الاجنبيـة خلال القيـام بعملياتـه . وفي هذه الحـالات تقع المسؤوليـة على عـاتق الخدمـة الدبلوماسية التي غـالباً مـاتنفي إمكانية حدوث المخالفة . إن فرع امن الدولة مـدين بالنـوعية الجيـدة لعمله الى العاملين المؤقتين فيه . وخاصة الآتين من الجامعات ـ هارت ، بلانت ، روتشيلد ، ماسترمان وغيرهم . وقدم الحقوقيون خدمات كثيرة ايضـاً . كل هذه الرؤوس الصافية عادت الى اعمالهـا السابقـة بعد نهايـة الحرب . كـانت قيادة القسم «ب» تتألف من رجلي استخبارات محترفين استـطاعا بخبثهـما ان يحافظا على احترام مرؤوسيهم الموهبين طيلة فترة الحرب . وقد لعب الاثنـان دوراً مهماً في تقرير مصيري ولذلك أرى لزاماً علي ان اتكلم عنهما بالتفصيل . كان غاي ليديل رئيساً للقسم «ب» . «ولدت في الضباب الإرلندي ـ قالها في احد الايام ـ واحياناً يخيّـل الي أنني لم اخرج منـه بعد» . من الصعب ان تجـد شخصاً يحط من قدر نفسه بهذا الشكل . في البداية اعطى ليـديل عن نفسـه صورة مغايرة . كان عادة يصرح بافكـاره بصوت مسمـوع ، وكأنـه يتلمس الطريق الى الحقيقة ، في حين كانت ترتسم على وجهه ابتسامة بريئـة . ولكن

خلف هذا المظهر المتغابي كان يختبىء عقل يفكر بدقة متناهية ويحمل بين تعرجاته صورة دقيقة واضحة للحقائق . لقد كان ليديل رئيساً موهوباً يمكن لشاب مبتدىء ان يتعلم منه كثيراً . وكان يستطيع في اي وقت كان ان يضع عمله جانباً ويسمعك بانتباه ثم يبدأ يفكر بالمشكلة الجديدة .

ولكن ليديل كرجل ذي مستقبل سرعان ماانتهى بكل بساطة .

خلال الحرب كان السير تشارلز رئيساً لفرع امن الدولة ، وكان هذا رجلاً لطيفاً ذا سمعة واسعة . وعندما قدم السير تشارلز استقالته من رئاسة فرع امن الدولة كان كل من في هذا الفرع يؤيد ترشيح ليديل خلفاً له . لكن الحكومة عينت خلفاً لتشارلز رجلاً آخر يدعى بيرسي سيلتاو . وكان هذا الاخير كسلفه من رجال الشرطة . كانت خيبة امل ليديل واضحة ولكنها لم تكن ذاتية . فكل العاملين في فرع امن الدولة يعتبرون ان هذا الفرع هو عبارة عن منظمة استخبارات وليس منظمة تابعة للبوليس . وأساليب محاربة الجاسوسية تختلف عن أساليب محاربة الجرائم الجنائية . فالجواسيس تدعمهم الدول الأجنبية ، التي يعملون لصالحها ، بامكانيات هائلة بينما المجرمون لايتمتعون بمثل هذه الامكانيات . ولكن الحكومة ارتأت ان تعين رجلاً من رجال البوليس ملم بمتطلبات الوايت هول اكثر حكمة ونفعاً . وفي الوقت نفسه تم تعيين ليديل نائباً لرئيس فرع امن الدولة ولكنه احس انه أهين . فقد كان متأكداً من ان الجواسيس الاجانب لو علموا بذلك لانتابهم شعور عارم بالسعادة . وقد عرف احدهم . . .

المعاون الاول لليديل في القسم «ب» كان ديك وايت . مهنته ، معلم مدرسة . التحق بفرع امن الدولة في فترة مابين الحربين . كان هذا رجلاً لطيفاً متواضعاً على استعداد دائم لأن يعترف بانه لايملك صفات او مواهب خارقة . اسوأ صفاته هي انه يوافق مع آخر شخص يتكلم معه وبكل رحابة صدر كان يعطي العمل الاساسي الى مرؤوسيه ويترك لنفسه دور القيادة للمحافظة على التناغم الهرموني في عمل القسم . كان وايت واحداً من

الضباط القلائل في فرع امن الدولة الذين حافظوا حتى النهاية على علاقة شخصية طيبة مع كاوغيل . لقد نال وايت مكافأة ثمينة تقديراً لقدرته على تجنب الصدامات مع الفروع والاقسام الاخرى . فعندما رفع ليديل الى منصب نائب رئيس فرع امن الدولة انتقل وايت ليتسلم رئاسة القسم «ب» . ولكن ترقيته في الخدمة لم تقف عند هذا الحد : فبعد ان أحيل مينزيس إلى التقاعد اصبح وايت رئيساً للمخابرات البريطانية . ولحسن الحظ لم يقدر لدينسي ان يرى كيف يسيدون في برودفيي . على اية حال لو لم يمت دينسي لكان ذلك قد اودى بحياته حتماً .

لقد بذلت جهداً كبيراً لتوطيد علاقاتي في فرع امن الدولة وتوسيعها ، واستطيع ان اؤكد انه حتى نهاية الحرب كسبت مجموعة لا بأس بها من الاصدقاء الشخصيين في سانت ـ جيمس ـ ستريت . وفي اية حال كان لابد من وجود شخص يخفف من حدة التوتر القائم بين كاوغيل وزملائنا في فرع امن الدولة ، وبما ان قلة قليلة اظهرت رغبة للقيام بمثل هذه المهمة فقد أخذتها على عاتقي . فإلى جانب الاسباب التي كانت لها صلة مباشرة بالعمل كانت لدي خطط ذات آفاق اخرى ، وتحقيقها يتطلب مساند فرع امن الدولة لي . كنت اعطي بعض المعلومات السرية الى فرع امن الدولة دون معرفة كاوغيل . ولقاء ذلك كنت اتلقى مكافآت كبيرة .

اندلعت المعركة الرئيسية بين كاوغيل وفرع امن الدولة في العام ١٩٤٣ وكنت اقف بحذر الى جانب فرع امن الدولة ضد كاوغيل . فالمسألة كانت تتعلق بمكان تواجد الفرع رقم خمسة . حيث كان موجوداً في سانت ـ البانس إما لضيق المكان في برودفيي وإما للحفاظ عليه بعيداً عن متناول القاذفات الالمانية . وعندما نقل فودفيلد الارشيف الى سانت ـ البانس انتقل كاوغيل الى هناك ايضاً . معللاً ذلك بقوله «ان فرع الجاسوسية المضادة يجب ان يبقى قريباً من ارشيفه» . ولكن السبب الحقيقي في انتقال كاوغيل هو سعيه لتأسيس امبراطوريته الخاصة بعيداً عن اعين الفضوليين المهووسين

بـالضغط على اعصـاب الآخرين . ولكن تـوقف القصف لمدة طـويلة افقـد حجج كاوغيل اساسهـا المقنع . بـالاضافـة الى ذلك كـان في لندن عـدد من المبـاني الحكـوميــة الفـارغــة ولم يكن لـدينــا اي سبب يمنعنـا من القبــول باستخدامها .

لقـد كان فـرع امن الدولـة في ذلك الـوقت يصر عـلى وجـوب إقـامـة علاقات أفضل وتعاون أوثق مع الفرع رقم خمسة . وكان قادة الفرع يؤكدون دائماً على اهمية «التقارب» مـع الفرع رقم خمســة . كانت هـذه الكلمة تـتردد دائماً في مراسلات بيتري مع مينزيس . لاشـك ان تقصير المسـافة بـين مكاني تواجد الفرعين كان يمكن ان يساعد على إقامة علاقات أوثق . وهذا مالم يكن يريده كاوغيل . كان كاوغيل يعتقد ان عودته الى لندن سوف تؤدي الى ضياع كثير من الوقت والطاقات في مماحكات تافهة . كما ان مثل هذا الوضع سوف يضعـه تحت رحمة ليـديل وشركـاه . كـان يخـاف ان يفلت زمـام الامـور من يـديه . امـا انا فكنت اؤيـد العودة الى لنـدن دون اية تحفـظات . من وجهة نظري كان تحسين العلاقات وتوطيدها مع فرع امن الدولة وبقيـة المؤسسات الحكومية سيتيح لي امكانية التعرف على كل جـوانب عمل الاستخبـارات . وهذا بالضبط ماكان يعنيني !

لقد اخطأ كاوغيل في تقدير امكانياته عندما طرح موضوع الانتقال الى لندن او البقاء في سانت ـ البانس عـلى التصويت داخـل الفرع رقم خمســة . واخطأ ايضاً عندما اعلن عن قراره امام اشخاص من فروع اخرى ولذلـك لم يعـد بالامكـان اخفاء نتـائج التصـويت . لقد اتـاح لي موضـوع التصـويت امكانية التحرك والعمل بحرية حتى مـع السكرتيـارية حيث بـدا ان اكثرهم يميـل الى حياة التصـوف والعزلـة . وجاءت نتـائج الانتخـابات مخيبـة لآمال كـاوغيل فقـد صوت اكـثر من ثلثي العمال الى جـانب الاقـتراح الـداعي الى الانتقـال الى لندن . ومـع انه لم تكن لهـذه القرارات ايـة اهميـة من النـاحيـة التنفيـذية الا انها اثبتت انحسـار شعبيـة كـاوغيـل وزعـزعت قـوتـه . بعـد

اسبوعين استقر بنا المقام في بناء في شارع ريدير ـ ستريت ، على بعد دقيقتين من فرع امن الدولة وخمس عشرة دقيقة عن بردفيي . من نوافذنا كنا نراقب عملية تفريغ «كفاغلينو» [1] من النفايات الرهيبة التي خلفتها الليلة الفائتة .
والآن علي ان اعود الى الوراء عدة اشهر لأروي احداثاً كان لها تأثير كبير على كل النشاط التجسسي الانكليزي . اقصد ظهور الامركيين . قبل الحرب لم يكن للولايات المتحدة نشاط تجسسي منظم في الخارج . لقد كان مكتب التحقيقات الفيدرالي يقوم بمعالجة قضايا الأمن الداخلي فقط . وكانت المعلومات عن الدول الاخرى محدودة ويقوم بتنظيم الحصول عليها رجال الدبلوماسية الامريكية والملحقيات العسكرية لدى السفارات الامريكية في الدول الاخرى ، ولذلك فقد كان رجال الدبلوماسية الامريكية اقل اطلاعاً على حقيقة الاحداث من بقية زملائهم ممثلي الدول التي تمتلك منظمات عريقة لممارسة اعمال الجاسوسية القذرة . والآن اصبح معروفاً انه في العام ١٩٤٠ تم في نيويورك تشكيل مركز بريطاني لتنسيق مسائل الامن بقيادة ويليام ستيفنسون ، رسمياً كانت مهمة هذا المركز حماية ماتقدمه امريكا الى بريطانيا من مواد وسلع مختلفة ، فقد كان يعتقد ان اكثرية الامريكيين الغربيين من اصل الماني يتعاونون مع هتلر . ولكن ثبت عدم صحة هذا التوقع واستطاع ستيفنسون ـ الذي كان مقرباً جداً من تشرشل ويتمتع بسلطة سياسية فعلية اكثر من اي شخص آخر في جهاز الاستخبارات البريطانية ، استطاع ان يوجه طاقته ليستخدمها في أمور أخرى . فقد قام قبل كل شيء بتنظيم عمليات عرقلة ارسال المواد الى دول المحور ونقلها الى السفن المحايدة . ومن المحتمل ان يكون مركز التنسيق البريطاني هذا قد قام بعمليات تخريبية اكثر من كل ماقام به الطابور الالماني في الولايات المتحدة . ولكن ستيفنسون ركز كل امكانياته لتحقيق هدف آخر : لقد آن للولايات المتحدة الامريكية ان تمتلك جهازها التجسسي الخاص .

---

(١) مطعم كبير في لندن .

لقد كان ستيفنسون يعلم كغيره ان تأسيس مثل هذا الجهاز قضية قائمة حتماً . ثم توصل الى نتيجة مؤداها انه من الافضل للبريطانيين ان يبدؤوا بوضع حجر الاساس وعندما يقدم البريطانيون خدماتهم مسبقاً فإنهم بذلك يحصلون على حق الاستفادة من المعلومات التي كانوا واثقين من انها ستنهال اكواماً نتيجة للامكانيات المادية الهائلة التي تمتلكها الولايات المتحدة . ويمكن لبريطانيا ايضاً ان تحصل على معلومات من تلك الدول التي لم تعد لها ممثليات فيها كفرنسا فيشي ودول البلقان وحتى المانيا . وكرجل يحب التحليق عالياً لم يستطع ستيفنسون ان يفكر بامور صغيرة . فقد استطاع ان يصل الى الرئيس روزفلت ويقنعه بالفكرة ويعده بوضع تجربته وخبرة إدارة العمليات الخاصة وفرع امن الدولة وحتى المخابرات البريطانية تحت تصرف الولايات المتحدة لإنجاح الفكرة . وهكذا عندما ولدت إدارة الخدمات الاستراتيجية برئاسة الجنرال دونوفين كانت مسألة التعاون مع الانكليز قد اقرت وتم الاتفاق عليها في الدوائر العليا . فهل تمت في زمن الحرب مقايضة التجربة البريطانية بإمكانيات الولايات المتحدة ؟ لاتزال المسألة موضع استفهام . ولكن ، الذي لا شك فيه ان التعاون في النهاية ادى الى تحول الاستخبارات الانكليزية الى قرين صغير . وبقيت هذه الحقيقة المحزنة قائمة لسنوات طويلة . وفيما بعد عندما ربطت المخابرات الامريكية الحكومة الامريكية بالتزامات تجاه نفودين ديوم تدل على الغباء المفرط اصبحت فيما بعد موضوع تندرات تثير الضحك خاصة بعد الحوادث في خليج كوتشينوس ، حيث لم يبق للمخابرات البريطانية سوى ان تلوح بيديها وهي تصرخ مستغيثة ولا معين .

لقد وقف ادغار غوفر موقفاً عدائياً من نشاط ستيفنسون في الولايات المتحدة . حيث كان جرحه عميقاً عندما اشار ستيفنسون بشكل غير مباشر الى ان مكتب التحقيقات الفدرالي غير قادر على الوقوف في وجه العصيان داخل حدود الولايات المتحدة . لقد كان غوفر يستشيط غيظاً عندما يقوم

جلادو ستيفنسون بإغراق قادة السفن التي تنقل مواد الى دول المحور . ولكن السبب الحقيقي الذي كان يثير حقد غوفر هو ان ستيفنسون كان يدير لعبته السياسية على ارض غوفر نفسه وبنجاح واضح . لقد كان غوفر يعلم ان تشكيل ادارة الخدمات الخاصة سوف يقوده الى مماحكات قانونية لانهاية لها . فمن المؤكد ان إدارة الخدمات الخاصة سوف تنافس مكتب التحقيقات الفيدرالي عند توزيع الاعتمادات المالية كما أنها ستنهي احتكار مكتب التحقيقات الفيدرالي للتحقيقات . لقد كان تشكيل هذه المؤسسة اقوى ضربة موجعة تلقاها غوفر في كل حياته السياسية .

وصل نبأ اتخاذ تلك القرارات تدريجياً الى سانت ـ البانس . وبعد احداث بيرل ـ هاربور وصل اول ضيف من مكتب التحقيقات الفيدرالي من الولايات المتحدة الى الفرع رقم خمسة وكان اسمه كيمبول . لقد كان يتكلم رشاً وبسرعة الروشيش ، متهماً الاسطول ، والجيش ، والبرلمان ، والبيت الابيض باهمال التحذيرات التي وجهها مكتب التحقيقات الفيدرالي بخصوص هجوم اليابانيين المتوقع . كان الهدف الرئيسي لزيارته (بالاضافة الى المحادثات التي لاتلزم احداً بشيء) ابلاغ لندن بان واشنطن قررت تعيين ضابط اتصال لتنسيق التعاون مع فرع امن الدولة والمخابرات البريطانية . اعتبر كاوغيل ان غوفر واحد من اكثر الناس اذى ، فهو يسخر الاعمال التجسسية لخدمة اغراضه السياسية . وحذر كاوغيل من انه يجب اتخاذ موقف حذر من كل عروض غوفر والافضل رفضها . وبصعوبة بالغة استطعت ان احافظ على علاقات مخلصة مع كاوغيل عندما ظهر اول مبعوث لغوفر . كان هذا الشخص هو أرتور تورستو ، رجل ذو اطلاع واسع ، والعمل معه مفيد . لقد كانت لدي كل الاسس لكي اقيم معه علاقات حسنة ، وكان بكل سعادة يتبادل معي معلومات مهربة . ولكنه كان اذكى من ان يتابع العمل تحت قيادة غوفر فانتقل الى الهند الصينية .

لم تنفصل إدارة الخدمات الخاصة عن مكتب التحقيقات الفيدرالي .

وبعد اتصالات اولية في الدوائر العليا دنوفين ، بروس ، وغيرهما حددوا لنا مجموعة صغيرة من العلاقات بقيادة نورمان بيرسون ، شاعر من ايل ، رجل اجتماعي متواضع ذو احتياطي لاينضب من النكات . لم يخفِ بيرسون تهكمه من منظمته وكان يسميها : «آخ ، كلها جنس» . كل الذين اتوا الينا من الولايات المتحدة كانت لديهم فكرة مبهجة وغير واضحة عن عملنا . ومن المعتقد انني كنت بطيئاً جداً في فهمي لخفايا العلاقات بين تلك المؤسسات ، فقد دهشت من تلك الثقة التي يحظى بها الامريكيون عند كاوغيل . فقد اعطاهم الحرية في استعمال كل وثائق الفرع بما فيها تلك المواد الملتقطة بالراديو . وكان من الصعب ان نفهم لماذا كان الانكليز يمتنعون عن اعطاء المعلومات لمنظمة تعيسة كمكتب التحقيقات الفيدرالي وفي الوقت نفسه يقدمونها بسخاء لاشخاص قال عنهم بيرسون انهم «مجموعة من الناس السطحيين الذين لاعمل لهم» .

ولكن الزمن اعطى جواباً واضحاً على هذا السؤال . لقد كان غوفر حقيقة يريد ان «يتخطى ستيفنسون» . فغوفر يكره مركز التنسيق البريطاني ويسعى لقص جناحيه . وهذا كان ممكناً فقط بإقامة علاقات مباشرة مع الفرع رقم خمسة في لندن دون مساعدة مركز ستيفنسون . بالاضافة الى ذلك كانت لدى غوفر رغبة شديدة في اقامة علاقات مع فرع امن الدولة . فمكتب التحقيقات الفيدرالي تماماً مثل فرع امن الدولة اي عبارة عن منظمة للجاسوسية المضادة . وفرع امن الدولة كانت له صعوباته مع جهاز الاستخبارات البريطانية ، ومكتب التحقيقات الفيدرالي كانت له صعوباته مع إدارة الخدمات الخاصة . وبما أن فرع امن الدولة كان منظمة داخلية ومكتب التحقيقات الفيدرالي تقتصر عملياته على نصف الكرة الغربي ، لم يكن هناك اي صدام في مصالح المنظمتين. باختصار ، كان غوفر يسعى لرمي عصفورين بحجر واحد : نقل مركز التعاون من امريكا الى داخل انكلترا وتحسين العلاقات اكثر فاكثر مع فرع امن الدولة . هذا كله لم

يعجب كاوغيل الذي اراد ان يشرف مباشرة على تبادل المعلومات مع الامريكان . وعندما لم يستطع ان يحقق هذا الهدف قرر ان يحصر التعاون بين مكتب التحقيقات وفرع امن الدولة في ادنى مستوى . وبرر كاوغيل رسمياً هذا التصرف انه يمكن لفرع امن الدولة ان يوصل المعلومات الى مكتب التحقيقات الفيدرالي من مكتب الاستخبارات البريطانية دون اهتمام خاص بالحفاظ على سرية مصادر هذه المعلومات . ولم اسمع ابداً ان شيئاً مماثلاً قد حدث ، ولكن حجج كاوغيل بدت الى حد ما مقنعة ، ففي ظروف الحرب كانت كل حجة مقبولة الى هذا الحد او ذاك تعتبر جدية وذات اهمية . وفي الحقيقة ان حجج كاوغيل لم يكن لها اي اساس منطقي . وهذا مابينته ليبرالية كاوغيل في علاقاته مع ادارة الخدمات الخاصة . فاذا كانت المعلومات حرجة لدرجة لاتسمح باعطائها الى مكتب التحقيقات الفيدرالي وفرع امن الدولة فكيف بالاحرى الى «مجموعة من السطحيين» اتباع ربسون ولكن هذا ماكان يحدث . لقد رأى كاوغيل في إدارة الخدمات الخاصة اداة طيعة يمكن استعمالها لتقوية مواقعه في معركته ضد مكتب التحقيقات الفيدرالي وفرع امن الدولة . وكانت قوة مواقع كاوغيل في هذا المجال واضحة : مهما هاج غوفر وعربد فلم يكن في انكلترا من يستطيع ان ينفي اهمية وجود علاقات وثيقة بين كاوغيل وإدارة الخدمات الخاصة . ومحاولة النيل من هذه العلاقات او التقليل من اهميتها من قبل فرع امن الدولة مثلاً ، يعني ، ان فرع امن الدولة يوافق مع بيرسون في تقويمه لإدارة الخدمات الخاصة . ان دقة العلاقات بين هذه المؤسسات وتعقيدها ادى الى ظهور عوائق كبيرة في طريق الوصول الى الحقيقة . اما فيما يتعلق بعملي في القسم الخاص بشبه جزيرة ابيريا بعد تشكيل إدارة الخدمات الخاصة فقد ظهرت عندي اهتمامات جديدة . لقد كلفنا إرسال المعلومات الجديدة كثيراً من الوقت . وواجهنا صعوبات جمة عند تعيين مستخدمين جدد لإدارة الخدمات الخاصة في لشبونة . كان أولهم

يدعى ري اوليفر الذي سرعان مااكتسب شهرة محزنة . لقد بدأ عمله بعرض للتعاون مع المخابرات البريطانية دون سابق اتصالات او تحذيرات . وعندما طلب منه ممثل المخابرات البريطانية وثائقه ، فتح اوليفر حقيبة مملوءة بالدولارات لقد احدث وصول اوليفر ارتباكاً كبيراً في سفارة الولايات المتحدة . فبعد دخول الولايات المتحدة الحرب مباشرة ، بدأ الملحق العسكري الامريكي في لشبونة العقيد سولبورغ بإرسال جواسيس الى اوروبا عبر اسبانيا . بعضهم كان يهتم بالاسطول والآخر بالنواحي الاقتصادية وغيرها . . . وعندما وصل اوليفر الى لشبونة كان كل قسم من هذه الاقسام قد بدأ عمله ولم يكن احد ينوي ان يتخلى له عن مهمته او حتى عن جزء منها . وقد استمر هذا الارتباك طويلاً حتى قام مستشار السفير الامريكي في لشبونة جورج كانان بوضع حد له . لقد اعتبر ان اهم شيء هو تأمين استمرار وصول المعلومات الى واشنطن وعدم الاهتمام بالمهاحكات القانونية هناك . وهكذا فقد ثبت سولبورغ والآخرون في نشاطهم الدبلوماسي بينما اعطي اوليفر الجاسوسية المضادة .

لم يكن لدى المسكين اي وقت للتحرك ضمن اطاره المحدود . ولم يستطع ان يحوز على مودة احد لذلك اضطروا لاستبداله . البديل كان يدعى دي لوتشيا الذي سرعان ماجلب منغصات جديدة للمخابرات البريطانية . فقد اكد بأنه خلال وقت قصير استطاع ان ينظم بطاقات لعدة آلاف من المشكوك فيهم ، هذا العمل لم تكن له اية نتائج ايجابية ابداً . ولكن الطامة الكبرى كانت تكمن في شيء آخر . لقد استطاع الفرع رقم خمسة ان يتوصل الى ان المصدر الرئيسي لمعلومات دي لوتشيا هو شخص من نوعية غامضة وخطرة ، يعيش في البرتغال تحت لقب الكسندر . لقد استطعنا ان نعرف من البرقيات الملتقطة بالراديو انه كان يعطي معلومات للمخابرات الالمانية . وعند فض البريد الدبلوماسي التشيكي تبين ان الكسندر كان يعمل لحساب العقيد بان ايضاً . وكان بان آنذاك ممثل المخابرات التشيكية في لشبونة .

ومضت عدة اشهر قبل ان نستطيع تحديده دون اطلاعه على مصدر المعلومات . ولكن بان رفض بكل غباء هذا التحذير . «انه دب !» ـ قالها ديك وايت بانفعال بعد لقائه الدوري مع بان . وطفح الكيل عندما انزل دي لوتشيا اسم الكسندر في قائمة الذين يدفع لهم . بعد تحذيراتنا المتكررة اضطرت إدارة الخدمات الخاصة ان تتبع دي لوتشيا باوليفر . لقد طلبت هذه الادارة من ممثل المخابرات البريطانية تلخيصاً لأهم الصفات الواجب توفرها في الاشخاص الذين سيمثلونها في هذا المكان الحساس في لشبونة . وكان الجواب سريعاً : «استحلفكم بالله ، ارسلوا سميث» وخلافاً لرغبة كاوغيل اطلعت بيرسون على البرقية فاصطنع السرور .

في النصف الثاني من العام ١٩٤٢ شاع خبر مؤداه ان هناك قراراً بالتدخل في شمال افريقيا وقد القيت على عاتق الفرع رقم خمسة مهمة ايصال المعلومات في اوانها الى قيادات الجيوش التي ستقوم بالتدخل . المواد التي كان يجب ارسالها يجب ان تعطي معلومات عن نشاط المخابرات الالمانية وعن الاشخاص المتعاملين او المتعاطفين معها من مخابرات حكومة فيشي .

لقد كان هذا يمثل صعوبات بالنسبة لكاوغيل لكنه كان من جهة اخرى يعطي امكانيات جديدة . الصعوبات تكمن في تأمين الحفاظ على سرية المصادر عند ارسال المواد الى الامريكان . لقد استطاع كاوغيل ان يبرهن بنجاح ان مثل هذا العمل ممكن فقط إذا تم إرسال مجموعة من الاختصاصيين التابعين للفرع رقم خمسة الى اركان القوات الامريكية او ارسال اشخاص مدربين خصيصاً للقيام بهذه المهمة . وبعد ان ربح كاوغيل الجولة في هذا البند استطاع بسهولة ان يبرهن بأن تحقيق مثل هذه المهمة يتطلب زيادة في المخصصات المالية . وهنا ايضاً حقق انتصاراً مكنه من توسيع ملاك العاملين لديه وزيادة رواتب الموظفين السابقين . وبمناسبة توسيع ملاك العاملين ، استطعت ان اقيم اطيب علاقاتي مع اثنين منهم . ولتقوية الفرع رقم خمسة عاد الينا غريم غرين من فريتاون حيث كان يراقب

دسائس حكومة فيشي . فليعذرني على صراحتي فأنا لااتذكر انه حقق اي نجاح يذكر في غرب افريقيا . من المحتمل ان لايكون الفرنسيون قد حاولوا القيام بأية دسائس ؟ إلا انني اذكر ان غرين طلب في احد الاجتماعات الموافقة على افساد فرنسيين والمانيين اثنين يعتقد بأنهما يقومان باعمال تجسسية على السفن الانكليزية في غينيا البرتغالية لصالح الالمان . نوقش الاقتراح بجدية ورفض لأنه كان من المشكوك فيه انه يمكن الحصول على معلومات ذات فائدة . ولحسن الحظ ، تم تعيين غرين عندي في القسم فأوكلت اليه البرتغال .

في هذا الوقت تقريباً ظهر مالكولم ماغيريج ، وكان مظهره عصبياً . في البداية ارسل لورانس ماركيش ، بعيداً جداً ، من وجهة نظري . لقد كان كومبيني القنصل الايطالي عدواً لدوداً له حيث كان هذا الاخير يقوم بمراقبة تحركات السفن الانكليزية . وقد احسست بالسرور لدى سماعي خبر الاهتمام بنشاط لومبيتي وقد اعيد ماغيريج الى مكان اقرب حيث عهد اليه بمختلف جوانب القضايا الفرنسية . إن موقفه المعارض للسياسة اليومية (كائنة ماكانت) بعث في حياتنا شيئاً ما انسانياً .

قبل عدة اسابيع من التدخل في شمال افريقيا سألني كاوغيل فيما إذا كان لدي اي اعتراض على ضم هذه المنطقة الى دائرة صلاحياتي فقبلت المهمة دون تردد . كنا قد حاصرنا الالمان تماماً في اسبانيا والبرتغال ، وكان جواسيسهم يقعون تباعاً في ايدينا ولذلك لم يكن لدي اي سبب يدعوني لرفض مهمات اضافية . كان مهماً بالنسبة لي شخصياً ان اكون قريباً من مسرح العمليات الحربية . ذلك ان توسيع مجال نشاطي في هذه الفترة العصيبة خلق لدي املاً كبيراً هو اني مستقبلاً ومع تقدم جيوش الحلفاء ستصبح دائرة نشاطاتي اوسع . وهذا ماتحقق فعلاً .

كانت واجباتي الجديدة على الاغلب سياسية اكثر منها عملاً تجسسياً . لقد شكلت المجموعات الخاصة التي ذكرناها سابقاً ، كما يجب ، وارسلت

الى قيادات اركان الجيوش الامريكية واطلقت عليها تسمية ، الفصائل الخاصة بالجاسوسية المضادة . كان هذا مصطلحاً امريكياً بحتاً ، تنازل ، فرضه استسلام الامريكان للقيادة العليا . لقد وزعوا علينا ايضاً اختام برمز «توب سيكريت» بدلاً من «موست سيكريت» [1] كان هذا كله تحضيراً للاحداث اللاحقة ، ولكن الانكليز في تلك الفترة كانوا ينظرون بإعجاب شديد الى «عزيزهم آيزنهاور» .

عملنا الرئيسي ، إذاً كان يمكن ان نسميه هكذا ، آنذاك كان بخصوص علاقاتنا مع الفرنسيين . ارسلوا لبعض الوقت رجلاً من المخابرات المضادة الديغولية . لم تكن له اية مهمة محددة . فرزوا له أجمل سكريتيرة بحجة انها الوحيدة التي تعرف الفرنسية جيداً . وبشكل عام كان هذا الفرنسي في وضع مميز . ومن الصعب ان نعرف ما الذي اجبر كاوغيل على ضبط اعصابه بخصوص باسي الذي كان يقود منظمة الجاسوسية الديغولية المضادة ، المكتب المركزي للمعلومات والتحركات . وبالمقابل ، عندما حدث انعطاف حاد في الوضع السياسي وعاد اعداء الامس دارلان وجيرو صديقين ، قام كاوغيل باستقبال رجل الجاسوسية المضادة الفيشي الرائد بايول . في الواقع كان الرائد لطيفاً جداً ولم يكن هناك شك في عدائه لدول المحور . ولكنني لم استطع ان افهم ماهي الفائدة التي كان يتوخاها كاوغيل من حمايته لبايول . وماذا كانت النتيجة ، لست ادري . قبل ان يظهر حل لهذه المسألة ـ هذا اذا كان قد ظهر اطلاقاً ـ كنت قد غرقت حتى قمة رأسي في الحملة الايطالية .

إن التوسيع الذي قام به كاوغيل في العام ١٩٤٢ ـ ١٩٤٣ لصلاحياتي ـ في البداية اضافة غرب افريقيا وبعدها ايطاليا ـ قد اوصلتني الى استنتاج هو

---

(١) «توب سيكريت» ـ مصطلح اميركي بخلاف المصطلح الانكليزي «موست سيكريت» . والاثنان يعنيان «سري للغاية» .

انني على ابواب الصعود في سلم الخدمات السرية . وهـذا ماتـأكد فعـلا فور عودتنا الى لندن . فقبل هـذه الفترة وعنـدما كـان كاوغيـل يتغيب عن العمل ـ إجازة او عمل خاص بالخدمة ـ كان يسلم القيادة لنائبه فيرغسون .

كان على كاوغيل ان يقوم بزيارة رسمية الى الولايات المتحـدة ، حيث كان من المتوقع ان يقيم اسبوعين ـ ثلاثة . وقبل سفـره جمع كـل العاملين في الفرع رقم خمسة وابلغهم بأن فيرغسون سيكون مسؤولاً عن تسيـير القضايـا الادارية وكل ماتبقى من اعمال الجاسوسيـة المضادة سـأكون انـا مسؤولاً عن تسييره . وهكذا كانت اول مرة يحاولون بشكل رسمي ان يفهموني انني على ابواب الصعود . مسكين كاوغيل !

الفصل الخامس

أعلى فأعلى

لقد كتب مرة احد المستخدمين الاذكياء في فرع امن الدولة على إحدى الوثائق : «هذه الوثائق ذات اهمية استثنائية ، ولذلك انصح بأن يُعهد بها الى موظفين صغار» . وخلال اسبوعين او ثلاثة لغياب كاوغيل ، الموجود في الولايات المتحدة ، كان لدي مايكفي من الاسباب للتفكير بهذا التصريح والآن ، بعد ان صعدت درجة اعلى ، فإن القسم الاكبر من العمل الحالي يعتبر سهلاً نسبياً . ويبدو ان رؤساء الاقسام الاخرى كانوا يقومون بمهماتهم بنجاح دون الحاجة الى مساعدة مني . ولكن عندما بدأت ادخل في العمل الخاص بكاوغيل اصطدمت باختلاط رهيب للامور ، وهذا ما ساعدني على ان ارى بأم عيني التأثير القاتل ، لدسائس الدوائر على العمل التجسسي . هذا التشويش جلب لي كثيراً من المتاعب . قبل سفره بعدة اسابيع دعى كاوغيل الى اجتماع لرؤساء الاقسام . في هذا الاجتماع اخبرنا انه وكلودينسي ينفذان معاً عملاً ما . وان هذه القضية من الاهمية بمكان ، وذات صبغة سياسية جدية جداً بحيث انه رأى إن يتابعها منفرداً . ولكن يجب ان تكون لدينا فكرة عامة عنها لأنه قد تظهر لدينا معلومات لها علاقة بها . ويبدو ان كاوغيل كان مشوش الافكار لأنه تكلم دون رابط منطقي لكلامه وكان من الصعب علينا ان نفهم الفكرة التي اراد ان يكوّنها عندنا . كل مافهمناه هو ان هناك قوى معادية تضع او وضعت خطة هائلة . ولكننا لانعرف طابع هذه الخطة وأهدافها . «انا شخصياً ـ قال كاوغيل اعتقد بأن الخطة لها علاقة ما بالعرب . وفي اية لحظة انظر الى هذه القضية ، أرى العرب !» .

بعد ساعة او ساعتين نسيت هذه القضية ، ولكن كاوغيـل ذكرني بهـا عندما كان يعطيني التعليمات قبل سفره مباشرة . فقد اخرج من درجه مصنفاً منفـوخاً ، نـاولني اياه ثم طلب مني ان اهتم بـوثائقـه واقـوم بمعـالجتهـا حتى عـودته . «انـظر مـاذا فعلت هنـا» ، ـ قـال مضيفـاً . ثم طلب مني ان اقيم علاقات مع دينسي لأن هذا الاخير يهتم بهذه القضية ايضاً . ولكن ماأدهشني هو اهتمام دينسي بقضايا الجاسوسية المضادة التي كان دائماً يحتقـرها . والـذي اثار دهشتي اكثر هو العلاقات الوثيقة التي قامت بـين كاوغيـل ودينسي بسبب هذه القضية . ولكنني قررت الا اتدخل . فمن المحتمل ان يكـون كاوغيـل قـد احس بطوق العـزلة المضروب حـوله . ولـذلك فـالعلاقـات ، حتى مع دينسي ، قد تكون مفيدة . ومن المحتمل ان يكونا قد اتحدا معاً ضد فيفين وفرع امن الدولة ؟ وهذه خـطة قد تكـون ذات فائـدة في دسائس الـدوائر . وعندما فتحت المصنف اتضح لي فوراً لماذا يهتم دينسي بهذه القضية . فبدأت اقرأ الاوراق باهتمام بالغ . وسأروي القصـة بتسلسلها الـزمني لابالتسلسـل الذي دونت فيه في الوثائق الموجودة في ذلك المصنف . الواقـع ان فك عقـدة الاشياء وفهم محتواها تطلب مني كثيراً من الوقت .

مـع نهايـة ١٩٤٣ ، اصبـح واضحـاً ، ان دول المحـور تسـير نحـو نهايتها ، وكثير من الالمان بدأ يفكر ، هل من المفيد المحافظة على اخـلاصهم لهتلر . ولـذللك فإن كثيـراً من مواطني دول المحـور بدأ يـظهر عـلى مداخـل سفـارات دول الحلفاء طـالباً التعـاون واللجوء السيـاسي . وكـان لابـد من موقف حذر تجاه مثل هذه الطلبات لاسباب كثيرة . فقد كان باستطاعة غملر ان يـرسل الينـا جواسيسـه تحت اسم لاجئـين سيـاسيـين . كـذلـك لم يكن الانكليز يرغبون في اعطاء حجة للسوفييت للتفكير في انهم يدخلون في عملية مساومة مع الالمان : كان الجو عابقاً بشكوك متبادلة بين الحلفاء حول امكانية عقد سلم منفرد مع الالمان من قبل طرف من الاطراف . واخيراً كان يجب ان لانشجع مثل هؤلاء الـذين قرروا في آخـر لحظة الانتقـال الى الطرف الآخـر

لكي ينقذوا انفسهم من المحكمة العسكرية . فأعطيت تعليمات مشددة الى السفارات البريطانية بعدم اعطاء أية وعود لأي الماني دون التشاور مع لندن .

وفي احد الايام جاء الى الممثلية البريطانية في بيرن شخص الماني وطلب مقابلة الملحق العسكري البريطاني ، مدعياً انه مسؤول في وزارة الخارجية الالمانية . وصرح هذا الالماني بانه جلب معه من برلين حقيبة مليئة بوثائق وزارته . وعندما سمع الملحق العسكري هذا التصريح المدوّخ للرأس ، قام فوراً بطرد الالماني خارجاً . ولقد فشلت محاولاته التالية لمقابلة الملحق العسكري البريطاني .

يجب الا نتسرع في إدانة مثل هذه التصرفات الصادرة عن المسؤولين البريطانيين ، لأنه من الصعب التصور ان شخصاً ما يستطيع ان يعبر الحدود الالمانية بمثل تلك الحقيبة المليئة بالوثائق الرسمية .

ولكن يبدو ان الالماني كان مصراً على تحقيق هدفه . لقد خسر المعركة مع الانكليز ولكن يبدو ان مساعيه تكللت بالنجاح عند الامريكان . فقد كان هؤلاء اكثر مرونة منا . حيث قرر الملحق العسكري الامريكي ان مثل هذه الامور لايحلها الا «امراء العباءة والخنجر» ، وعرض على الزائر مقابلة الن دالاس : «الباب الرابع في الكوريدور على اليسار» . كان دالاس في ذلك الوقت رئيس مكتب إدارة الخدمات الخاصة في سويسرا . وبعد ان سمع قصة الالماني طلب منه ان يطلعه على محتويات الحقيبة وقد استطاع دالاس دون صعوبة ان يتأكد من ان الوثائق غير مزورة . لقد كان دالاس في غاية السرور لما حصل وبدأ فوراً بإعداد بلاغ بالامر الى واشنطن . «لو رأيتم فقط هذه الوثائق ـ كتب دالاس ـ وهي طازجة !» صوّرت الوثائق وارسلت الى واشنطن ، وإدارة الخدمات الخاصة تقاسمتها معنا بشرف . الاّ ان دينسي كان يهتم بسويسرا سنوات ماقبل الحرب . وهذا الاهتمام تحوّل مع الزمن الى الشعور بالملكية تجاه كل ما له علاقة بسويسرا . فاستاء دينسي استياء شديداً من تمركز إدارة الخدمات الخاصة في سويسرا ، ولم يترك مناسبة

الا وحاول فيها التقليل من اهمية عمل دالاس . وبعد ان علم ان وثائق برلين وقعت بين يدي دالاس ، يبدو انه عانى كثيراً من جراء ذلك ـ وهذا ماتؤكده ملاحظاته المكتوبة . ولكن دينسي خرج بسرعة من تحت تأثير الصدمة . يجب الا يسمح لدالاس ان يأخذ هذه الوثائق المهمة من تحت انفه ! ولذلك فقد اكد ان الوثائق مزورة ومرسلة خصيصاً من قبل المخابرات الالمانية . ووقع دالاس في الصنارة كطفل صغير . والمعركة حول هذا النوع من الوثائق كانت من اختصاص الجاسوسية المضادة ولذلك فقد توجه دينسي الى كاوغيل بدعوة لدراسة هذه القضية . تفاصيل لقاءاتهما ليست مدونة . ولكن يبدو ان مصلحة كاوغيل ايضاً كانت تقتضي اثبات ان وثائق دالاس مزورة . لم يدرس كاوغيل الوثائق ابداً . لقد كان مشغولاً جداً ، والدسائس مابين الدوائر اجبرته على الوقوف الى جانب دينسي . لقد انفصل كاوغيل نهائياً عن فيفين . وعلاقاته مع الشيف كانت جيدة ولكن ليس الى الدرجة التي يريدها ان تكون . علاقات دينسي مع الشيف كانت وثيقة جداً . ولذلك فإن كاوغيل سيحصل على نفع كبير فيها لو اثبت ان دالاس قد خُدع . هذه هي الصورة التي رسمتها من المراسلات غير المنظمة بين كاوغيل ودينسي . في هذا الوقت بدأت تنضج لدي خطة ولكنها تتطلب حذراً شديداً . لقد اردت ان احصل على مركز يحررني بسرعة اي ان اصبح سيد نفسي وكان علي الا اسمح بان تسوء علاقاتي مع اي شخص يمكن ان يساعدني في ذلك . كاوغيل ، فيفين ، دينسي ، فرع امن الدولة ، وزارة الخارجية ، الشيف ـ كل هؤلاء يشكلون جزءاً من وجع رأسي ، وكان من الصعب علي ، بحكم وجودي في منصب ليس عالياً نسبياً ، ان استطيع تحديد مواقفهم عندما ابدأ بالتحرك لتحقيق خطتي . في الحقيقة انني منذ زمن توصلت الى نتيجة مؤداها ان المناورات السياسية يمكن ان تعطي نتائج ممتازة ولكنها يجب ان تكون ذات قاعدة متينة . ولذلك فقد قررت ان ادرس وثائق دالاس واقوّمها حسب اهميتها . إذا كانت هذه الوثائق بالتأكيد اصلية او

العكس ، مزورة ، فسأقول ذلك فوراً . ولكن إذا كان من الصعب تحديد اي موقف منها فإنه يترتب علي ان ادرس كافة الجوانب السياسية للقضية قبل ان احدد موقفي منها .

إن القسم الاكبر من الوثائق كان عبارة عن برقيات موجهة إلى وزارة الخارجية الالمانية من ممثلياتها في الدول الاخرى . ولذلك كان علي ان اسأل مركز الشيفرة عندنا فيما إذا كانوا قد التقطوا برقيات مماثلة لوثائق دالاس . فهذا الاجراء الاولي لم يفطن اليه احد على مايبدو . فكاوغيل وذينسي اكتفيا بمراجعة سريعة لهذه الوثائق بهدف إيجاد نصوص تثير الشك او متناقضات تثبت وجهة نظرهما في ان الوثائق مزورة . وعندما تذكرت تعليمات كاوغيل بالتشاور مع دينسي تساءلت فيما إذا كان مفيداً ان اتشاور معه في مسألة مركز التقاط الشيفرة . لم يكن بودي ان افعل ذلك لأنني كنت متأكداً من ان دينسي سيقف ضد هذا الاجراء . وبعد ان راجعت الإضبارة مرة اخرى وجدت اقتراحاً موجهاً من دينسي الى كاوغيل «اعطيك حرية التصرف بها لما تراه ضرورياً» . والآن اصبح لدي اساس متين لأتصرف كما اشاء .

في ذلك الوقت كانت مدرسة الشيفرة قد انقسمت عملياً الى قسمين : قسم تحت قيادة النقيب تريفي ، وكانت مهمته تنحصر في المراسلات الجاسوسية ، والقسم الثاني ، تحت قيادة النقيب دينيستون ، وكانت مهمته الوثائق الدبلوماسية . وبما ان مواد دالاس كانت وثائق وزارة الخارجية الالمانية فقد كان علي ان اتوجه الى دينيستون . فاخترت مجموعة من برقيات الملحقية العسكرية الالمانية المرسلة بالشيفرة من طوكيو . تحتوي هذه البرقيات على معلومات دقيقة عن جاهزية القوات اليابانية وتسلحها وتوضعها وتصورات اليابانيين للمستقبل . كانت هذه حوالي عشر برقيات . ومن الواضح انه في حال ثبات ان هذه الوثائق صحيحة غير مزورة فستكون لها اهمية خاصة .

بعد يومين كلمني دينستون بالهاتف . صوته كان مضطرباً . دينستون

اخبرني بأن ثلاث برقيات تطابقت تماماً مع البرقيات الملتقطة من قبلنا . اما الباقي فله اهمية فائقة في فك رمز الدبلوماسية الالمانية . وسأل دينستون اذا كان باستطاعتي ان اعطيه بعض الوثائق الاخرى . طبعاً كان باستطاعتي ان افعل ذلك وبدأت بارسال المواد اليه تبعاً لسرعته في تحليلها . وعندما تم تحليل ثلث الوثائق تقريباً ولم تظهر لدينا اية وثيقة مزورة كان هذا كافياً لاثبات ان كافة الوثائق حقيقية وينبغي علي ان اوزعها . فقمت بارسال الوثائق الى اقسامنا التي تتعامل مع الوزارات الحربية ومع وزارة الخارجية ، محاولاً التقليل من اهمية الوثائق كي لايشعر دينسي قبل الأوان ان هناك اشياء مقلقة تحدث . كان رد الفعل عند الوزارات الحربية فورياً . فممثلي الجيش ، الطيران ، والاسطول ، كلهم طلبوا منا بإلحاح المزيد من المعلومات المماثلة . اما رد وزارة الخارجية فكان اقل حماساً . طلبت من الاقسام المختصة ان تطلب من وزاراتها تعليقات مكتوبة بخصوص هذه الوثائق ، وطلبت كذلك من دينيستون ان يكتب تقريراً عن صحة هذه الوثائق بالمقارنة مع الوثائق الملتقطة من قبلنا بالشيفرة . بدأت احضر لصدام اكيد مع دينسي . وكان لابد من التحرك قبل ان يعرف دينسي من مصادر اخرى . فقررت ان ارسل له الاضبارة بكاملها ولكنني تخليت عن هذه الفكرة ، لعلمي ان دينسي لن يقرأ الاضبارة . فسألته ، متى يستطيع استقبالي . الزيارة استمرت نصف ساعة وكانت غير ودية . وكما كان متوقعاً ، فقد غضب دينسي اشد الغضب . ولكن يبدو ان فكرة انه انا الذي درس الوثائق وليس هو قد اعادت اليه وعيه . كما ان تقرير دينيستون هدأ من روعه قليلاً . ولكنه مالبث ان ثار من جديد عندما قرأ تعليقات الوزارات الحربية على المواد المرسلة اليها . وبصعوبة فائقة تمالك دينسي نفسه ليقول لي : حتى إذا كانت الوثائق حقيقية ، فماذا يعني هذا ؟ انا اشجع إدارة الخدمات الخاصة في سويسرا ان تتخطى كافة الحدود وتثير البلبلة في عمل الاستخبارات هناك . الله وحده يعلم اي ضرر يمكن ان تجلب لنا هذه الادارة . يجب ان يقوم بممارسة هذه

الاعمال رجال مجربون يستطيعون ان يحيدوا عن الفخ . وإذا شجعنا إدارة الخدمات الخاصة هكذا فعما قريب سوف تفجر كل شبكة دينسي . وعندما نفث دينسي كل غضبه سألته بكل احترام عن علاقة هذا الامر بإدارة الخدمات الخاصة . حتى اقسامنا التي وزعت هذه المعلومات على الوزارات المختصة لاعلم لها ابداً بان لإدارة الخدمات الخاصة علاقة بهذه الوثائق فكيف بالاحرى الوزارات . فهؤلاء يعتبرون ان المواد لنا ، من عندنا ويطلبون ارسال المزيد منها . وعندما انهيت كلامي ، نظر الي دينسي نظرة طويلة متفحصة . «تابع ـ قال اخيراً ـ ليست هذه صفعة قاسية ، كما كنت اعتقد» .

عندما عاد كاوغيل وضعت امامه الاضبارة كاملة ورويت له ماحدث بالتفصيل . فسألني باضطراب عن رد فعل دينسي على ذلك . فأجبته بأنني تشاورت مع دينسي وانه وافق على تصرفاتي . عندها تنهد كاوغيل بارتياح وأعاد الي الاضبارة طالباً متابعة العمل . وكم كانت دهشتي عظيمة عندما علمت ان الامر لم ينته عند هذا الحد . فذلك الالماني الجريء ظهر بعد ذلك في بيرن عدة مرات مع حقيبته المليئة بالوثائق .

في الوقت نفسه بدأ عمل قسمي يتحسن وذلك بفضل تنويرنا المتزايد . كنا نصطاد عملاء الالمان بصورة منتظمة . وحسب معلوماتي لم ينج من شبكتنا اي طير له اهمية . بالاضافة الى ذلك كان بين ايدينا مفتاح معرفة نوايا الالمان : كنا نقرأ برقياتهم بصورة منتظمة . ومع ان الحكومة الاسبانية اتاحت للالمان إمكانيات واسعة ، وسالازار احاطهم بضيافته ، فإن قليلاً من الاسبان قَبِلَ ان يتعاون مع الالمان وإذا حدث ووافق احدهم على تنفيذ مهمة كلفه بها الالمان ، فكان يفعل ذلك فقط ، إما للخروج من اوروبا او ليتمكن من الوصل الى انكلترا .

ويمكن ان تكون قضية ارنست سيموس مثلاً حياً لما قلنا آنفاً . فقد استطعنا ان نعرف من البرقيات الملتقطة ان الاستخبارات الالمانية قد جندت

سيموس للعمل في انكلترا . ولقد خبأ هـذا التعليمات في ثيـابه . وكـان من المفروض ان تكون مراسلاتـه بالـبريد العـادي . بعد الاتفـاق مع فـرع امن الـدولة تقـرر ان يسمح لـه بالتحـرك بحريـة في بريـطانيا ، عـلى امل كشف جـواسيس آخرين . فلم تـوضع ايـة عقبات في طـريقه ، عنـدما وصـل الى بريطانيا ، بل على العكس قدمت له مساعدة للعمل في مصنـع لوتـون الذي ينتج قطعـاً للطائرات . وهـذه المنتوجـات تثير اهتـمام اي جـاسـوس . وفي الـوقت نفسه لم تكن هنـاك خطورة فيـما لو وصلت بعض المعلومـات عن هذا المصنع للالمان . اقام سيموس لدى عائلة انكليزية ، الزوج كان يعمل معـه في المصنع نفسه . ثم تم وضع سيموس تحت المراقبة وكانت مراسلاته تراقب ايضاً .

خلال عدة ايام لوحظ ان في تصرفاته روتيناً محدداً . بعـد انتهاء نـوبته كـان يذهب مـع صاحب البيت الى اقـرب محل للبـيرة حيث يتركـه هنـاك ثم يتوجه الى البيت لايلوي على شيء . وبعد مراقبة دقيقة وجدنا تفسيراً مـرضياً لتصرفه هذا . فكل مساء ، بعد وصوله الى البيت كان يبدأ بممارسة الحب مع صـاحبة البيت (ولست ادري لمـاذا كانـا يقـومـان بهـذا الفعـل تحت طـاولـة المـطبخ ، شيء غـريب ، ولكن الجواسيس هم الـذين اكدوا ذلـك) ، بعـد ذلك كان يتناول عشاءه بشهية ثم يأوي الى فراشه .

وبعد عدة اسابيع قررنا انهاء هذه الكوميديا . فتم اعتقال سيموس . ثم ارسـل الى مركـز التحقيق حيث كلفني تـومي هـاريس بـالتحقيق معـه . هاريس بطبيعته لايستطيع ان يكون قاسياً مـع احد ، ولكنـه هنا بـذل جهده ليكون قاسياً . لقد اخـبر هاريس سيمـوس بأن هـذا الاخير مـوجود الآن في سجن المخابرات الانكليزية ، خارج حماية القانون ، وان القنصلية لاتعرف ولن تعـرف ابداً اين هـو ، ويمكن ان يبقى هنا مـدى الحيـاة ، هـذا فيـما إذا منحوه اياها ، ويمكنهم ان يتركوه يموت جوعاً ، ان يضربـوه ، ان يقتلوه ولن

يعلم به احد اطلاقاً . وامله الوحيد بالنجاة ـ هو ان يعترف بانه يقوم باعمال تجسس لصالح الالمان . لقد قال هاريس اشياء اخرى كثيرة ورهيبة . فلقد قال لي فيما بعد ، انه رسم لسيموس صورة رهيبة ملطخة بالدماء لدرجة انه خاف منها هو نفسه .

لقد استمع سيموس الى كل تلك الاقوال بتوتر متزايد ومن وقت لآخر كان يعلن بعصبية ، انه يريد ان يأكل . وبعد ساعة من التحقيق اتخذ قراراً . وطلب ورقة وقلماً ، واوجز على ورقتين صورة وافية لعلاقاته مع الالمان في لشبونة ، بما في ذلك لائحة التعليمات وكل مالديه من اشياء تتعلق بهذا الامر . لقد صرح سيموس بانه لم يفكر لحظة واحدة في حياته ان يعرض نفسه للخطر وان امله الوحيد كان ايجاد دخل جيد في بريطانيا التي لايستطيع الوصول اليها دون مساعدة جانبية . وقد تطابقت اعترافات سيموس تماماً مع المعطيات المتوفرة لدينا . وبعد ان انتهى سيموس من كتابة تقريره هذا قذف بالقلم جانباً وبنبرة حادة سأل : «والآن هل ستقدمون لي شيئاً آكله ؟» .

مثل آخر . ريفير ربيكسوتودي مينزيس شخص برتغالي يعمل في وزارة الخارجية البرتغالية ، تم إرساله للعمل في السفارة البرتغالية بلندن . وعلم الانكليز انه قبل سفره الى لندن استطاعت الاستخبارات الالمانية ان تجنده للعمل لحسابها . وانه عهد اليه بجمع معلومات عامة وارسالها ، مستعملاً كتابة رمزية ، عن طريق البريد الدبلوماسي الى عنوان محدد في لشبونه . كان البريد الدبلوماسي للبرتغال يخضع لمراقبة دورية قبل خروجه من انكلترا . وبعد عدة اسابيع وجد ظرف لأحد عناوين مينزيس . كانت الرسالة مكتوبة بخط جميل جداً . وفيها صورة سخيفة للحالة التي وصل اليها الانكليز . ولكن حتى شخص سخيف مثل مينزيس يمكن ان يقع على شيء ما مهم ، ولذلك قررنا ان نتفادى حدوث مثل هذا الامر .

ولكن مينزيس يتمتع بحصانة دبلوماسية وقبـل اتخاذ اي اجـراء بحقه كان يجب تجريده من صفته الدبلوماسية . وهذا مـالايستطيـع احد القيـام به سوى السفير الـبرتغالي في لنـدن . ولكن اين الاثبات . كـان يجب اثبات تم الحصول عليه بطريقة غير دبلوماسية . وتقرر اخيراً تقديم تلك الـرسالـة الى السفير على اساس ان الجاسوسية الانكليزية المضادة ارسلتها لنا من لشبونة . وبعد ان قرأ السفير تلك الرسالة لم يستطع ان يقدم اي عـون لمينزيس الـذي قدم للمحاكمة . كان مينزيس يثير الشفقة عندما كان ماثلاً امـام المحكمة ، حتى ان بعضاً منا بقي يعيش تحت وخـز الضمير الى ان صـدر قرار المحكمـة بحقه . لأنه من الناحية النظرية كـان يمكن ان تصدر المحكمـة بحقه عقـوبة الاعـدام . ولكن لحسن الحظ كان الحـاكم متسامحـاً عندهـا ، ولم يكن عنـد الانكليز اية نوايا لإثارة اعصاب البرتغاليين . ومع ذلـك فقد انتهت القضيـة بمفاجأة غير سارة . فقد لخص السفير الـبرتغالي الحـادث في رسالـة بالشيفـرة (وقد قرأناها ايضاً) يحدد فيها الطريقة التي وصلت فيها الرسالـة الى الانليز ، ويشير السفير الى احتمال تعرض البريد الدبلوماسي للمراقبة .

إن وجود دبلوماسي الدولة المحايدة لدى بريـطانيا كـان يسبب متاعب دائمة . واحدة من هذه الحالات الحرجة وقعت لنـا مع سفـير اسبانيـا الامير ألبا . لقد كان البريد الدبلوماسي الاسباني يخضع لمراقبـة مستمرة من قبلنـا ، وكنا نعلم ان البا يبعث الى اسبانيا بتقارير من النوعية الممتازة تلخص الوضع السيـاسي في بريـطانيا . لم يكن هنـاك اي مجال للشـك في ان مـدريـد تـطلع اصدقاءها الالمان على هذه التقارير التي تعتـبر مصدراً وثيقـاً . ولم تكن لدينـا اية اثباتات تشير الى ان الامير كان يحصل على معلوماته بـطرق ملتويـة او غير شرعيـة . كانت عـلاقاتـه مع اشخـاص مـطلعـين وكـان يـدون في رسـائله تصريحاتهم مع تعليقاته الشخصية . لقد اقترح فرع امن الدولة استعـال البا كمصدر للمعلومات المزورة ولكنه اكتشف ان علاقات البا مع اناس يشغلون مناصب عالية جداً في الحكومة البريطانية . منهم بريندان ، بيفربـروك وحتى

تشرشل نفسه . ولم نتصور انهم يوافقون على ان يتنازلوا ويوافقوا على خداع الامير الاسباني ! وكان قسمنا ملزماً بوضع هذه القضية جانباً . لكن بقي لدينا امل واحد ، وهو انه طالما ان الرسائل مكتوبة باسلوب ودي بالنسبة للانكليز ، فإن هتلر سوف يفقد الامل في اصلاح هذا الامير الموالي للانكليز ولن يعتمد كثيراً على تقاريره السياسية .

الفصل السادس

تحقق الهدف

لقد اشرت سابقاً الى انه كانت قد ظهرت امامي امكانيات للارتقاء في العمل . وفيما يتعلق بهذا الامر أتذكر موقفاً اخجل ان اكتب عنه . فقد صادفت الامكانيات الاولى لارتقائي في الخدمة لدى الاستخبارات البريطانية وجود شواغر في العمل .

قبل نهاية الحرب بوقت طويل بدأت الحكومة البريطانية تركز اهتمامها بشكل رئيسي على عدو المستقبل . ففي فترة مابين الحربين وجهت الاستخبارات البريطانية جل اهتمامها وانفقت القسم الاكبر من مخصصاتها للتغلغل في الاتحاد السوفييتي وحماية بريطانيا مما كان يطلق عليه بشكل عام اسم «البلشفية» . وعندما اصبحت خسارة دول المحور للحرب حتمية لامرد لها ، عادت «حليمة لعادتها القديمة» . كانت البداية متواضعة . فقد تم تشكيل الفرع رقم تسعة بامكانيات محدودة لدراسة القضايا القديمة المتعلقة بالاتحاد السوفييتي ونشاط الشيوعيين . وتم تعيين شخص يدعى كاري من فرع امن الدولة رئيساً للفرع رقم تسعة . وكان هذا شخصاً مسناً يقترب من سن التقاعد ، اصم لايفقه شيئاً عن طبيعة عمل الاستخبارات . بالاضافة الى ذلك ، فان الوضع السري الخاص اعاقه عن الحصول على معلومات تتعلق بعمله . وبشكل عام فقد فهم الكل ان كاري قد تم تعيينه مؤقتاً وانه بمجرد انخفاض حجم العمل ضد المانيا سيتم استبداله بشخص آخر .

خلال الاسابيع اللاحقة بحثت مع زميلي من موسكو مستقبل الفرع رقم تسعة . فكتبت تقريراً شاملاً بهذا الخصوص ثم بحثناه بالتفصيل .

الوضع آنذاك ، كما كنت اتصوره ، يفرض احد امرين : بعد احالة كاري على التقاعد إما سيتم استبداله بشخص آخر او سيتم دمج الفرع رقم تسعة مع الفرع رقم خمسة . ولم يكن لدى كاوغيل أدنى شك في انهم سوف يقرّون الحل الثاني . لقد كان كاوغيل ينتظر بفارغ الصبر حلول اليوم الذي يتم التخلص فيه من العجوز كاري ويبدأ العمل الحقيقي ضد الشيوعيين . فأحلام كاوغيل هذه كان لها اساس . ذلك انه بعد انهيار دول المحور سيبدأ زمن الاقتصاد والتقتير ، وملاك الاستخبارات البريطانية سيتم اختزاله الى الحد الادنى . وكان من غير المحتمل ، ان يبقوا على فرعين للجاسوسية المضادة : واحد لمعالجة قضية هامة جداً كالقضية السوفييتية وآخر ، لمعالجة قضايا أقل اهمية بكثير . حتماً ، سوف يتم دمج الفرعين في فرع واحد وعندها سيتم تعيين كاوغيل ، كأقدم موظف في الخدمة ، رئيساً للفرع الجديد .

لقد تساءل صديقي فيما إذا كانوا قد يقترحون علي منصباً قيادياً ما في هذا الفرع . انا لم استبعد ذلك . «ولكن هل يمكننا ان نقول ان هذا مجرد احتمال ؟» . ولم استطع طبعاً ان اعطي اي جواب قطعي . فقد كانت كوريدورات برودفيي مليئة بالاشاعات عن تنظيم مابعد الحرب والتغيرات المحتملة . ولكن كان من الصعب تحديد مكان هذه التغيرات وطبيعتها في وقت السلم . فمن المحتمل ، مثلاً ، إرسالي الى الخارج لاكتسب الخبرة على الطبيعة . وقد بحثنا هذه القضية عدة مرات . واخيراً وجه اليّ زميلي السوفييتي سؤالاً مباشراً : ماذا لو عرضوا علي انا رئاسة الفرع وليس على كاوغيل ؟ اجبت ، بان مثل هذا التقدم السريع في الخدمة سيعطيني امكانية اكبر للتأثير على سير الاحداث ، بما في ذلك تطوري في المستقبل . واعتقد ان صديقي الذي على صلة مباشرة بالمركز كان راضياً تماماً عن إجابتي ، فقال انه في اللقاء القادم يأمل ان يحصل لي على تعليمات جديدة .

وصلت التعليمات . المركز يلح علي ان اعمل كل مابوسعي ،

للوصول الى رئاسة الفرع رقم تسعة ، بغض النظر عن كونه سيدمج مع الفرع رقم خمسة او سيبقى فرعاً قائماً بذاته . يجب ان يغيب كاوغيل عن المسرح والى الابد . لقد حاولت ان اعترض شارحاً ان عدم مشاركتي في مؤامرات الدوائر هي التي ساعدتني على الوصول الى زوايا محرمة على غيري . ولكنهم لم يعتبروا حجتي هذه مقنعة بالاضافة الى ذلك ، فان صديقي لاحظ بحق ، انه بعد عدة اسابيع سينسى الكل كاوغيل وفصله من الخدمة . لقد كان محقاً ، ولكن مع ذلك كان ضميري يعذبني . لقد كنت احترم كاوغيل وكنت مديناً له باشياء كثيرة . ولكنه اصبح يشكل عقبة في الطريق الذي كان علي ان اسير فيها وكان لابد له من ان يتنحى جانباً . لم استطع ان انفي وجود مزاحمين خطرين لو بقي ، كما انه لايوجد مزاحمون خطرون لي فيما لو ذهب .

لقد اخذ اصدقائي بعين الاعتبار كل حججي وتصوراتي ، مع انهم لم يأخذوا بعين الاعتبار عدم رغبتي اطلاقاً في المشاركة في دسائس الدوائر . لقد نصحوني ان ابدأ حملتي ضد كاوغيل بمنتهى الحذر . ولم يكن باستطاعتي ان اتحرك بشكل مكشوف للوصول الى هدفي ، ذلك لكي يكون باستطاعتي إذا خسرت المعركة ان اؤكد ان الامر فرض علي فرضاً . فكل تحرك في هذه الحملة كان يجب ان يقوم به شخص آخر . بتعبير آخر ، كان علي ان ابحث عن حلفائي بين اعداء كاوغيل ، وهؤلاء لم يكونوا قلة . لم تكن آمالي في هذا الوضع مهتزة ، خاصة وان كاوغيل شخص فخور جداً بنفسه . وانه إذا ذهب ، فإلى غير رجعة .

لقد وقع اختياري الأول على العقيد فيفين . كان هذا شخصاً ضعيف الارادة . وكان يشغل منصب نائب رئيس الاستخبارات البريطانية والرئيس المباشر لكاوغيل . كان فيفين مسؤولاً شكلياً عن كل مايتعلق بعمل الجاسوسية المضادة . ولقد اشرت الى ان كاوغيل لم يقم وزناً لفيفين . ورأى انه من الافضل اقامة علاقات مباشرة مع الشيف نفسه . وهذا ماخلف

جرحاً عميقاً في نفس فيفين . وكثير ما شكا الي ، بنفس حزينة ، ضياع سلطته مما وضعني اكثر من مرة في وضع حرج للغاية . أما الآن فقد اصبحت اشعره بانني متفهم لوضعه ، وبدأ في الوقت المناسب ، يسألني ، ماالعمل مع كاوغيل هذا . من الواضح انه في وضعي الحالي لااستطيع ان ابحث معه تقرير مثل هذه الامور ، ولكنه كان باستطاعتي توجيهها بقنوات اخرى ، اكثر قرباً من مصدر السلطة . فلم يكن مجدياً ان اقترح عليه بحث القضية مع الشيف . لقد كان فيفين يخاف الشيف تماماً كما يخافه كاوغيل . كان هناك اشخاص آخرون يحوذون على ثقة الشيف ولم يكن باستطاعته تجاهل آرائهم .

الشخص الأكثر ملاءمة من بينهم كان كريستوفر أرنولد ـ فورستر . فعندما اتيت الى الاستخبارات لأول مرة كان يعمل في قسم الاسطول البحري ، حيث يقوم بمعالجة المعلومات الخاصة بالاميرالية . لقد وضعه الشيف آنذاك في مكتب مقابل مكتبه مسنداً اليه مهمة أقدم ضابط ركن . ومن المحتمل ان يكون الشيف قد ندم فيما بعد على هذا التعيين ولكن عملياً كان هذا من انجح قراراته . لقد كان أرنولد ـ فورستر يتمتع بعقل صاف وبقدرة غير عادية على فهم لب القضية وانتزاعها من الفوضى البيروقراطية . بالاضافه الى ذلك كان يتمتع باسلوب رائع في الكتابة والحديث . وكان من اشجع الرجال الذين قابلتهم طيلة حياتي . لقد كان يقضي إكبر قسم من يومه الى طاولته . وكنت متأكداً من انه فيما لو بدأ بمعالجة مشكلتنا ، بصفاء ذهنه المعهود ، فإنه سوف يتوصل سريعاً الى استنتاج واحد : هو انه من المستحيل ان يبقى رئيس فرع الجاسوسية المضادة ، لدى المخابرات البريطانية ، تحت رحمة فرع امن الدولة . كان هذا امراً محتملاً إبان الظروف الصعبة التي خلقتها الحرب ، ولكن ان يبقى الامر كذلك الى مالانهاية ، فذلك امر مستحيل . لقد كنت متأكداً من انه فيما إذا فهم أرنولد ـ فورستر لبّ القضية ، فانه حتماً سيجد لها المخرج الصحيح .

ولكن من اين أبدأ ؟ الافضل لو سمع أرنولد ـ فورستر رأي شخصية مرموقة ، من فرع امن الدولة ، عن كاوغيل . ولكن من سيقوم بهذا ؟ وأجبت ديك وايت : لقد كان هذا يحب ان يغتاب الكل . ولذلك فإن وايت سيساعد في تخفيف الضربة فقط . إذن افضل من يقوم بهذه المهمة كان غاي ليديل . فقد كان ليديل رئيس وايت وعمل في فرع امن الدولة فترة طويلة جداً لدرجة تخاله فيها انه نفسه اصبح فرع امن الدولة . لقد كان ليديل رجلاً صريحاً يقول رأيه جهاراً دون اي تحيز . وبالتالي ، عندما أتى فيفين في اللقاء التالي بيننا على ذكر كاوغيل ، قلت له ، انه لاشيء لدي اقترحه عليه سوى ان يتشاور في هذه القضية مع فورستر . ومن المفيد ايضاً ان يُنظِّم لقاء بين أرنولد ـ فورستر وغاي ليديل . بدأ فيفين بهدوء يوازن الفكرة ، ولكن عندما اقتنع بأهميتها اعلن بكل تصميم «تعرف ياكيم ، انني سأفعل هذا !» .

ولااعرف كيف نظم ذلك اللقاء . لقد كان فيفين عضواً في نادي «الهند الشرقية والرياضة» ، ولكنني لااعتقد انهم تناولوا غداءهم هناك : فالبطاطا مع الشرحات التي كانت تقدم هناك ايام الحرب كانت كفيلة بان تقضي على أرنولد ـ فورستر المريض جداً في معدته . وعندما رأيت فيفين في المرة التالية فهمت ان كل شيء على مايرام . فقد ابتسم لي فيفين بخبث وقال : «اعتقد ان اللقاء قد فتح عيني كريس !» . ولكن الجرس الاهم كان من ارنولد ـ فورستر . فقد طلب مني الحضور اليه . كان فورستر متحفظاً جداً ولم يطرح المسألة بصراحة . تحدثنا مطولاً عن الاستخبارات البريطانية بشكل عام ، عن مستقبلها ، عن الامكانيات المتوفرة لتحسين العمل على ضوء التغيرات الضرورية في ظروف السلم المرتقبة . ويبدو ان ارنست ـ فورستر قد كون عني فكرة جيدة ، وانا بدوري حاولت ان اكون مستقيماً وصريحاً . ولم نأت على ذكر كاوغيل اطلاقاً .

الخطوة التالية التي كان يتوجب علي القيام بها هي تجنيد مؤيدين لي في

وزارة الخارجية ، من اولئك الذين كانت لي معهم علاقات خلال تقديم الاحتجاجات ، الى فرانكو وسالازار ، على نشاط المخابرات الالمانية في شبه جزيرة ابيريا . فخلال الحرب ارسلت وزارة الخارجية ممثلاً قائماً لها في برودفيي لتنسيق العمل معنا . كان باتريك ريل اول ممثل لوزارة الخارجية في برودفيي . وكانت لي معه لقاءات بخصوص عمليات الالمان في الدول المحايدة ، ولااستطيع ان اقول انه يقف مني موقفاً عدائياً . ولكنني لست ادري فيما إذا كانت العلاقات بينه وبين كاوغيل سيئة لدرجة تمكنني من اعتباره حليفاً لي . لكن يبدو ان نجمة الحظ كانت تضيء لي في تلك الفترة .
فكاوغيل ، الذي خيل الي ، انه يميل الى انهاء نفسه ، اختار هذه الفترة العصيبة بالذات ليرمي الشيف في مشكلة غير ضرورية اطلاقاً مع ادغار غوفر . هذه المشكلة التي كانت ستؤدي ، حتماً ، الى سوء العلاقات بين امريكا وبريطانيا ، ولذلك فقد ظهر ريلي على المسرح وادان بحدة قصر النظر السياسي عند كاوغيل . سمعت عن هذا كله من فيفين . لقد وضع امامي رسالة مؤلفة من ورقتين بعث بها كاوغيل الى الشيف ليوقعها . ولااستطيع بالضبط ان اتذكر فحوى الموضوع . لقد كان هذا عبارة عن تقرير ضد تصرفات غوفر الذي يضحي بمصالح الاستخبارات في سبيل تحقيق اهدافه السياسية في واشنطن . لقد كان هناك كثير من الحقيقة في كلام كاوغيل ، ولكن مثل هذه الاشياء لاتكتب على الورق في مراسلات بين رؤساء الخدمة . وفي نهاية التقرير كتب ريلي تعليقاً : «اعتقد ان التقرير بمجمله غير مقبول . واذا تم ارساله الى الشيف فسيكون في وضع حرج جداً» . لقد طلب ريلي من فيفين ان يكتب الرسالة من جديد . وفيفين بدوره طلب الي ان اكتب مسودة الرد . كتبت مسودة الرد بحجم نصف صفحة ، وبعبارات لطيفة اشرت الى فحوى الخلاف ، ثم حملنا المسودة وذهبنا سوية الى ريلي . بعد ان اطلع ريلي على الرد اعطاه ، دون اية اضافات او تغييرات الى سكرتير الشيف ، ثم تركتهم وذهبت . وفي اليوم التالي اخبرني فيفين انه «دار بينه

وبين باتريك حديث ممتع جداً» .

التربة اصبحت جاهزة . فيفين هذا المتعطش لدم كاوغيل ، اصبح يعتمد على دعم قوي لرجال ذوي سلطة . ارنولد ـ فورستر الواقع تحت تأثير موقف فرع امن الدولة العدائي من كاوغيل ، عمل على لفت انتباه الشيف الى موقف فرع امن الدولة هذا . وموقف فرع امن الدولة كان صلباً باستثناء ديك وايت ، الرجل الطيب ، كان كل فرع امن الدولة يعتبر كاوغيل عدواً لدوداً له في الصراع بين الدوائر . تحركت الغيوم نحو كاوغيل من جهة بليتشلي ايضاً . لقد ظن كاوغيل دائماً ان مدرسة الشيفرة غير راضية عن مراقبته للمواد الملتقطة . وفور عودتنا من سانت ـ البانس اصطدم كاوغيل مع اثنين من عمال هذه المدرسة ، جونس وهاستينفوس . لقد كان موقفاً حرجاً للغاية عندما «حطم» جونس كاوغيل امام رؤساء اقسام فرعه . الاثنان كانا يدافعان عن وجهتي نظر مختلفتين كلياً . ولكن جونس كان متهيئاً للنقاش اكثر من كاوغيل بكثير . انا لااريد ان اقول ان مدرسة الشيفرة لعبت دوراً نشيطاً في الحملة ضد كاوغيل . لقد كانت بعيدة جداً عن ذلك ، ولكن الشيف بطرقه الخاصة كان يعلم ان المدرسة لها موقف فلسفي من ذهاب كاوغيل . وتتويجاً لكل ذلك دعاني فيفين وعرض علي تقريراً موجهاً الى الشيف . لقد كان التقرير طويلاً جداً ومزيناً بمقاطع من «هملت» . يشرح التقرير قصة خلاف ، كاوغيل ، المحزنة ، كذلك يعرض التقرير ضرورة إحداث تغييرات جذرية قبل البدء بالعمل في مرحلة السلم . لقد اقترح اسمي لخلف كاري في رئاسة الفرع رقم تسعة . اسم كاوغيل رفض قطعياً كمرشح لهذا المنصب . لقد تم تعداد مناقبي كخلف وحيد لكاري يحمل كل الصفات التي يجب ان تتوفر بمن يجب ان يشغل ذلك المنصب . ومن العجيب انهم عند تعدادهم لصفاتي ومؤهلاتي ، فاتتهم اهم صفة من الصفات التي يجب ان تتوفر بمن سيمارس العمل في القسم المذكور : وهي انني كنت اعرف شيئاً ما عن الشيوعية .

لقد اعتُبرت المعركة منتهية بالنسبة لي . ولكن فيفين لايجرؤ على تقديم مثل هذا الاقتراح الى الشيف دون موافقة أرنولد - فورستر وهذا الاخير لايمكن ان يبارك هذا الاقتراح دون ان يكون قد هيأ الوضع لاتخاذ قرار ايجابي بهذا الخصوص . وواقع ان التقرير مطبوع وجاهز ، يدل على ان الشيف قد قرر ان يبدأ حواراً مع كاوغيل ينتهي بقبول استقالته . ولم يكن لدي ادنى شك في انني قريباً سوف ادعى لمقابلة الشيف وكان علي ان احضر نفسي لحديث هام معه . القضية هي ان الارتقاء في العمل السري لايأتي بالتنبؤات والتمنيات وانما تجب المخاطرة . الاخطاء ممكنة دائماً ولكن يمكنني بسهولة ان اتخطى بمفردي نتائج الاخطاء الصغيرة . اما اذا كان الامر يتعلق بقضية كبيرة من هذا المستوى فلا اود ان اعتمد كثيراً على موقف زملائي المؤيد لي . لقد اعتبرت انه في حال ظهور اية متاعب في عملي الجديد ، ليس سيئاً ان اضم فرع امن الدولة رسمياً الى صلاحياتي . وسيكون مفيداً جداً لو حصلت على طلب رسمي من فرع امن الدولة بهذا الخصوص . ولكن لم اكن واثقاً انه باستطاعتي ان اشرح كل هذا للشيف . وباختصار ، كان لابد من ايجاد الصيغة المناسبة . واخيراً قررت انه من الافضل ان استغل شغف الشيف بالدسائس بين الدوائر .

وجهت الدعوة لي . والى عرش السرية اتيت اكثر من مرة ، ولكن مس بيتفريو ومس جونس سكريتيرتا الشيف في هذه المرة كانتا اكثر احتفاء من اي وقت مضى . عندما توجه الشيف بالحديث الي دعاني ، ولأول مرة ، كيم . لقد وضع امامي تقرير فيفين ، وانا مجاملة ، اتخذت مظهراً انني اقرأه . واعلن لي الشيف ، انه قرر ان يتصرف حسب اقتراح فيفين ويعينني خلفاً لكاري . هل عندي مااقوله بهذا الخصوص ؟ نعم عندي . «آمل ان لااقول شيئاً غير مرض سير» . ثم تابعت قائلاً : إن تعييني قد تم نتيجة لسوء المعاملة او التفاهم القائمين بين كاوغيل وفرع امن الدولة . وعبرت عن املي في ان استطيع ان تجنب مثل هذه الخلافات في المستقبل . ولكن من يعرف ؟

سـأكون سعيـداً فيما لـو علمت موقف مـوظفي فـرع امن الـدولـة ، الـذين سأتعامل يومياً معهم ، من تعييني في هذا المنصب . بالاضافـة الى ذلك فـإن موافقة فرع امن الدولة الرسمية سوف تجنبنـا انتقاداتهم مستقبـلاً . وقبل ان انهي كلامي فهمت ان الشيف قد فهم قصدي تماماً . لقد كـانت لديـه قدرة كبيرة على رؤية المتسللين عبر غابات البيروقراطية . ونقاد الشيف اشاروا اكثر من مرة ، بان قدرته على المناورة واتخاذ القرارات التكتيكية هي التي ساعـدته على البقاء في هذا المنصب الذي يسعى كثيرون للحصول عليـه لأنه يسيـطر عـلى مفاتيـح المخصصات السريـة . وبعـد ان سمعني الشيف حتى النهـايـة اصبح نفسه يؤكد على اهمية اقتراحـاتي . وودعني بحرارة ووعـدني ان يكتب فوراً الى السير ديفيـد بيتري (رئيس فـرع امن الدولـة) . تركت الشيف عـلى امل انه سوف يتعامل مع اقتراحي هذا على اساس انه اقتراحه هو شخصياً . بيتري اجاب بالموافقة فوراً .

وبعـد ان دخلت في هذه الـدسيسة ، تصـورت ، ان كاوغيـل نفسـه سـوف يـذهب . وهكـذا فعـل . بعـد ان سمـع عن تعييني طلب مقـابلة الشيف . لااعرف تفاصيل لقائهما ولكنني لم أر كاوغيل بعدها اطلاقـاً . قدم استقالته ، فقبلت . كانت هذه خطيئة كـاوغيل المميتـة . بعد هـذا الحدث بسنة تقريباً تم توحيد الفرع رقم خمسة والفرع رقم تسعة تحت قيادتي . ذهب كاوغيل والى الابد من طريقي . لو وافق كاوغيل على البقـاء في الظل لـوقت ما ، لاستطاع ، حتماً ، ان يجد عملاً محترماً في الخدمة السرية . ولكنـه اعتاد ان يحلق عالياً .

بعد عدة ايام استلمت العمل من كاري . اخاف ان اكون قد اظهرت خلال ذلك نفـاذ صبر غـير ضروري . ولتثبيت استقلاليـة الفرع رقم تسعـة طلبت من الشيف ان يصدر قراراً موقعاً منه عن وصع هـذا الفرع . لااذكـر التفاصيل ، ولكنني كلفت ان اقـوم بجمع المعلومـات عن الاتحاد السـوفييتي ونشـاطه ونشـاط الشيوعيـين في كل البلدان خـارج حدود بـريطانيـا . وهذا

العمل كان يجب ان يتم تحت اشراف الشيف مباشرة . وكان علي ان اقيم علاقات وطيدة مع فرع امن الدولة لتبادل المعلومات بهذا الخصوص . ثم اضاف الشيف مادة اخيرة : يجب الا تكون لي اية علاقات مع الاستخبارات الامريكية . الحزب لم تنته بعد ، والاتحاد السوفييتي لايزال يعتبر حليف بريطانيا . فلا يجوز اطلاقاً ، ولأي سبب كان ، تسريب اية معلومات . كان الشيف يقصد تسريب معلومات من الامريكيين الى الروس . وضع غريب فعلاً !

الفصل السابع

من الحرب الى السلم

الانتقال للعمل في الفرع رقم تسعة يعني ايضاً الانتقال من ريدر ـ ستريت الى برودفيي ـ بيلدينغس . لقد سرني هذا التغيير لعدة اسباب . لأنه ابتداء من صيف العام ١٩٤٣ ، عندما انتقلنا من سانت ـ البانس الى لندن ، اصبحت اقرب قليلاً من قلب الاستخبارات البريطانية ، اما الآن فقد اصبحت في مركزها ، بل في افضل موقع ممكن ، حيث استطيع ان التقط اخبار التجسس كافة وان ادرس الناس الذين قابلتهم في الكوريدورات . بالاضافة الى ذلك ، فان سانت ـ جيمس ـ بارك فقط كانت تفصلني عن موظفي الجاسوسية المضادة التابعة لإدارة الخدمات الخاصة .

عندما انتقل الفرع رقم خمسة الى البناء المخصص له في ريدر ـ ستريت ، حصل بيرسون وزملاؤه على مكان لهم هنا بمساعدة كاوغيل . احياناً كانوا مصدر إزعاج لنا واحياناً على العكس . كتب غريم غرين في احدى مقالاته الصحفية ، انه في إدارة العمليات الخاصة كان يوجد صندوق لم نستطع ان نقفله ابداً . ولكي نُطمئن الضباط المناوبين ، الذين كانوا يقومون بجولات مستمرة ليلاً ، كتب بيرسون ـ ايضاً بموافقة كاوغيل ـ على هذا الصندوق العبارة الخادعة التالية : «يعتبر هذا الصندوق مقفلاً» .

كما قلت ، منذ البداية حرّم علي إقامة اية علاقات مع الامريكيين . وبيرسون كان يعرف ذلك جيداً . ولكن هذا لم يمنعه من إحاطتي باهتمامه

الخبيث . وكان من الافضل لي ان اكـون بعيداً عنـه ، في الطابق السـابع في برودفيي ـ بيلدنغس .

في البدء كان العمـل اليومي يبتلع كـل وقتي : انتقاء النـاس ، اختيار امكنة العمل ، فرش المكتب . . . الخ . لقد كان باستطاعتي ان اجد عملاً لكل الملاك العامل لدي مهما كان عدده كبيـراً . ولكن كان لابـد من انتقاء موظفين أكفّـاء طالما انهم متوفـرون . ففي ظل نـظام التغيير الاقتصـادي ، الـذي بـدأ يقـترب مـع اقـتراب السلم ، يصبـح التخلص من الاشخـاص الاضافيين اسهل بكثير من اضافة اشخاص جدد للعمل .

كان الفرع رقم تسعة الذي يرأسه كـاري مؤلفاً من أربعـة اشخاص ـ كاري نفسه ، فتاتان ونصف ذكي . واحدة من هاتين الفتاتـين كانت لـطيفة جداً وقد ابقيتها . والثانية كانت غريبة نوعاً ما ، لذلـك ارتحت كثيراً عنـدما اضـطرت لترك العمـل عندنـا لحادث اصـابهـا . والنصف ذكي ، ويـدعى ستبتاو ، جاء الينا من شنغهاي ، حيث كـان في فترة مـابين الحـربين مسؤولاً عن عمـل الاستخبارات الـبريطانيـة في كـل الشرق الاقصى . كيف حـدث ذلـك : حتى اللحظة لااستـطيع ان افهم . من الصعب التصـديق ان هـذا الشخص يستـطيع ان يبقى في عمـل واحد لأكـثر من اسبوع . كـان ستبتـاو مفروضاً عـلى كاري من فيفـين ، على مـايبدو ، بحكم الصـداقة القـديمة . ولكنني لم اخجـل في وقت ما ان اقف ضـد فيفين : في نهايـة المـطاف ، هـذا ايضـاً لعب دوره . ولكن ولحسن الحظ ان ستبتاو قـد حفر الحفـرة لنفسـه ، فباقتراح من فيفـين تم إرسالـه بمهمة الى مـراكز الاستخبـارات البريـطانية في حوض البحر الابيض المتوسط ، ليشرح لهم مهمات الفرع رقم تسعة . هـذه الرحلة انتهت الى فشل ذريـع ، لأن صاحبنـا تصرف بسرية ظـاهرة للعيـان حتى ان ممثلينا في الخارج صدقوا بصعوبة ان هذا الشخص ضابط في الخـدمة السرية . فقد جاءت الى برودفيي مجموعة كبيرة من الرسائل والـبرقيات غـير العادية والتي تعبر عن الشك في هوية ستبتـاو كضابط مخـابرات . وبمسـاعدة

هذه المواد استطعت بسهولـة ان اقنع الشيف بـان جهازه لايخسر كثيـراً إذا ما احيل ستبتاو الى التقاعد . وهذا ماتم فعلاً .

لم آسف ابداً لخسارة اثنين من جهاز كاري . لأن مسألة إيجاد الكـوادر اصبحت اسهل واسهل مع تقدم الحلفاء في اوروبا . فـالضباط العـاملون في الاستخبـارات الهجوميـة ، لاحـظوا ، ان مجـالات التجسس بـدأت تختفي امامهم . واختصاصيو الجاسوسية المضادة الذين كانوا يقودون العمل بمهـارة ضد اجهزة الاستخبارات التابعة لدول المحور ، ادركوا ، انه قريباً لن يكون امامهم عدو . لقد وجدت نفسي في وضـع احسد عليـه حقاً . فبـدلاً من ان ابحث بنفسي عن كوادر للعمل عندي ، اصبحت انا محط عناية من قبـل كل الذين يودون العمل في فرعي ، بمن فيهم اولئك الذين لم أرغب في ان يعملوا لدي . باختصار ، فيما يتعلق بـاليد العـاملة مالت الكفـة في السوق لصـالح المشـتري . لقـد قسمت الـدائـرة التي سيتم اختيـار الكـوادر منهـا الى اربـع مجموعات : كان هناك اناس لانفع منهم . وهؤلاء كـانوا كثـراً ، وكان بينهم اناس ،موهوبين جداً ، كل مايريدونه ـ العودة الى العمل السلمي ، وباسرع وقت . وقد حاولت ان اقنع بعضهم بالبقاء في الخدمة ولكنني لم انجح سـوى مرة واحدة مع احدهـم . والمجموعة الثـانية وهي فئـة من الضباط المجـربين القـدمـاء الـذين يـريـدون البقـاء عـلى كـراسيهم لعـدة سنـوات اخـرى ثم يتقـاعـدون . واخيـراً كـانت هنـاك فئـة من الشبـاب ، عـددهم لايتجـاوز العشرين ، بعمري تقريبـاً ، اكبر او اصغـر بخمس سنوات ، هؤلاء كـانوا يتحرقون شوقاً لاحتراف العمل في الاستخبـارات . وكانت خـبرتهم مقبولـة الى حد معقول .

الفئـة الاخـيرة هي التي استحـوذت عـلى اهتـمامي اكـثر من ايــة فئـة اخـرى . وعندمـا اكتمل نصـاب القسم تبين ان اكـثرهم دون الاربعين من العمر . ولكن كان من غير المعقول ان يكون كل الموظفين من سن واحـدة . لأن ذلك من شأنه ان يخلق لنا مشاكل وصعوبات في عمليـة ارتقاء النـاس في

الخدمة . لذلك فقد قبلت بعض المسنين الذين سيتقاعدون بعد عدة سنوات . وكان بوب كيريو ـ هانت اوسعهم شهرة ، وقد اوكلت اليه مهمة جمع معلومات عامة عن الشيوعية . كان هذا الرجل مثقفاً ، ولكنه لم يكن متحدثاً بارعاً . ومع الزمن اصبح بوب اختصاصياً واسع الشهرة بقضايا الشيوعية ، ليس في بريطانيا وحدها وانما في الولايات المتحدة ايضاً . حيث دعي عدة مرات لإلقاء محاضرات حول هذا الموضوع . بعد ذلك وعدني بانه سيهدي الي اول كتاب له تحت عنوان «الشيوعية في النظرية والتطبيق» ، ولكنه قرر بعد ذلك ان مثل هذا الشرف سيضعني في موقف حرج لعدة اسباب . فعندما كنت غارقاً حتى قمة رأسي في اختيار الكوادر التي احتاجها ، قال لي فيفين ، إن جين ارثر قد تركت عملها ، واشار الى انها تعتبر لقطة فريدة للفرع رقم تسعة . هذا الاقتراح كان مفاجأة غير سارة بالنسبة لي ، خاصة وانني لاأملك اي حجة ضده . بعد غاي ليديل كانت جين من اكثر الضباط العاملين في فرع امن الدولة موهبة وذكاء . فقد صرفت جزءاً كبيراً من حياتها في دراسة الحركة الشيوعية العالمية من جميع النواحي . وهي بالذات التي حققت مع كريفينسكي ، الضابط في الجيش الاحمر ، الذي فر الى الغرب في العام ١٩٣٩ ، وبعد عدة سنوات خاب ظنه وفقد الامل بكل شيء ومات في الولايات المتحدة منتحراً . وقد استطاعت ان تنتزع منه اعترافاً بأن المخابرات السوفييتية ارسلت صحفياً انكليزياً شاباً الى اسبانيا اثناء الحرب الاهلية هناك . وهاهي ارثر تعمل تحت قيادتي . لحسن الحظ ، كنت ارتاح لجين كإنسان ، ذهنها صاف ولسانها حاد . لقد طردت من العمل في فرع امن الدولة لأنها وجهت اهانة قاسية الى البريغادير هاركير في احد الاجتماعات العالية المستوى . وكان هذا نائباً لرئيس فرع امن الدولة لعدة سنوات . كان لطيفاً جداً ، ولم تكن لديه اية مواهب اخرى على الاطلاق . لقد اندلعت الازمة اليونانية بعد انتقال جين للعمل عندنا بوقت قليل . وكان الوضع يتطلب من الجنرال بلاستيراس اتخاذ تدابير حازمة .

عهـدت الى جين بـدراسة اكـبر مجموعة من المـواد لـدينـا عن الحـركـة الشيـوعيـة . وكـانت هـذه المجمـوعـة مؤلفـة من عـدد كبـير من الـبرقيـات الملتقطة ، والمتعلقة بحركة التحرر الوطني في اوروبـا الشرقية . وكـانت هذه البرقيات تعطي صورة صادقة ومقنعة عن التأثير الفعلي لنشاط الشيوعيـين في حربهم ضد دول المحور . ولكن المساعدة الكبيرة التي كان يقدمها لهم الاتحاد السوفييتي بصورة دائمة ومنتظمة ، كانت تدعو للتفكير بامـور شتى . فبغض النظر عن المحاولات التي بـذلتها إدارة العمليـات الخاصـة وإدارة الخدمـات الخاصة للحصـول على تـأييد سيـاسي في البلقان عن طـريق تقديم السـلاح والمـال والمواد الاخـرى ، فإن حـركـات التحـرر الـوطني هنـاك لم تقبـل ايـة مساومة . لقـد كان هؤلاء مستعـدين لقبول المسـاعدة من الشيـطان نفسه ، ولكنهم كانوا يرفضون التعاون معه . بالاضافة الى بوب كيريو ـ هانت وجين ارثر وواجباتها الخاصة تم تقسيم الفرع رقم تسعة الى عدة اقسـام وكل قسم يختص بمنـطقة معينـة من العالم . ففي تلك الايـام كانت المعلومـات السرية قليلة جداً عندنا . ولكن هذا النقص بالمعلومات كانت له فـوائده . فقـلائل جداً في فرعنا هم الذين كانوا يعرفون شيئاً ما عن الشيـوعية . كـانت مهمتنا الاولى الذهاب مرة اخرى الى المدرسة ليصبح لدينـا إلمام بهـذه المسألـة ، في الوقت نفسه كـان علينا ألا ننقـطع عن دراسة المـواد العلنية كـبرامج الـراديو ومـاينشر في جرائـد ومجلات الـدول الاشـتراكيـة عن الشيـوعيـة . امـا تلك المعلومات التي كانت تصلنـا فكان الجـزء الاعظم منهـا كاذبـاً . لقد شرحت سابقاً كيف ان الخلافات بين جهاز المخـابرات الـبريطانيـة العامـة وفرع امن الدولة هي التي أدت الى تعييني رئيساً للفرع رقم تسعـة . والآن كان عـلي ان اعمـل على اعـادة بناء عـلاقاتنـا مع فـرع امن الدولـة على اسـاس التفـاهم والتعاون المتبادل .

كان روجر هوليس زميلي في فرع امن الدولة رئيس القسم الذي يقـوم بمراقبة اعـمال المواطنـين السوفييت في بـريطانيـا وكذلـك مراقبـة الشيوعيـين

الانكليز . كان هذا الرجل لطيفاً ، يميل الى ان يكون دائماً حذراً . لقد جاء الى امن الدولة ، ويا للغرابة ، من الشركة الانكليزية الامريكية لتجارة السجائر ، حيث كان ممثلاً لها في الصين . ومع انه كانت تنقصه حصة قليلة من «خفة العقل» ، الصفة التي اعتبرها مهمة (لحد معقول) لأي شخص عادي ، مع كل هذا استطعت ان اقيم معه بسرعة نسبية ، علاقات طيبة . فسرعان مابدأنا نتبادل المعلومات دون تحفظ . لقد كنا نحن الاثنين اعضاء لجنة مهمتها دراسة مسائل الحركة الشيوعية ، وكانت دائماً وجهة نظر مماثلة نصوغها ونرسلها الى الجهات المختصة الاقل اطلاعاً على هذه المسألة .

ومع أنه لم يستطع أن يحقق نجاحاً كبيراً في عمله ضد الاستخبارات السوفييتية ، فقد استطاع ان يحصل على معلومات وافية عن الشيوعيين البريطانيين باسلوب مبسط جداً : وضع جهاز ارسال في مقر الحزب في كينغ ـ ستريت . والنتيجة كانت تناقضاً جميلاً جداً .

في بداية العام ١٩٤٥ ، وبعد ان اكتمل تشكيل فرعنا بشكل كامل ، وجدت أنه آن الآوان لكي أقوم بجولة على مكاتبنا بالخارج . فقد كان هدفي اصلاح مافسدته زيارة ستبتاو ، وبحث أفضل السبل للحصول على المعلومات التي تهم فرعنا . الجزء الاول تم تحقيقه بسهولة . فقد اخبرت من يهمهم الامر ، أن أول مافعلته عندما استلمت مهامي في الفرع رقم تسعة هو انني طردت ستبتاو من العمل . وقد قوبل هذا الخبر بارتياح من قبل الكل . ولكن الجزء الثاني من هدف مهمتي كان تحقيقه اصعب . فلم يكن موضوع عملنا ظاهراً او مسموعاً . فالاستخبارات السوفييتية لم تكن معروفة بالنسبة للمخابرات البريطانية . ولذلك فقد كانت النتيجة الوحيدة لمحادثاتنا القرار التالي : ان نتابع الحصول على معلومات وملاحظات بسيطة عن رجال الدبلوماسية السوفييت والاوربيين الشرقيين واعضاء الاحزاب الشيوعية المحلية . وطيلة سنوات خدمتي لم نستطع ان نقوم بأية عملية كبيرة أو جدية ضد المخابرات السوفييتية . لقد عاشت المخابرات البريطانية تنتظر

المفاجآت التي ارسلها لها القدر ، باستثناء عملية أو عمليتين سيأتي الكلام عنها لاحقاً . هذه المفاجآت كانت عبارة عن افراد هاربين من الاتحاد السوفييتي . «لقد اختاروا الحرية» ، كما فعل كرافتشنكو ، الذي حذا حذو كريفيتسكي ، الذي فقد أمله بسرعة ومات منتحراً .

شملت رحلتي كلاً من فرنسا ، المانيا ، ايطاليا ، واليونان . وكانت بمثابة رحلة تعليمية حيث تعرفت فيها على مختلف النماذج التنظيمية لمكاتب المخابرات البريطانية في الخارج . ولكن بعد كل رحلة كنت ازداد قناعة بأن المخابرات البريطانية تحتاج لسنوات وسنوات حتى تستطيع ان تضع قاعدة ما للعمل ضد الاتحاد السوفييتي . ولم يبق في ذاكرتي من هذه الرحلات سوى بعض الحوادث الطريفة ، اما النجاحات الحقيقية فلم يكن لها وجود ، ففي برلين ، مثلاً ، قدموا لي نوعاً من المرطبات ، وقد اعتبره مضيفي ببساطة نوعاً من انواع الخمرة . أما في روما فإن أهم مسألة شغلتني هناك هي : هل يحق لرئيس قسم مراقبة جوازات السفر ، في السفارة البريطانية هناك ، ان تكون له سيارة . في باري شجعت قذف احدهم بالباراشوت في يوغسلافيا ، ولكنه بدلاً من ان يكسر رقبته هناك عاد ثانية . في لاريسي في اليونان شاهدت واحدة من عجائب الطبيعة هناك : عاصفتان منفصلتان تماماً عن بعضهما واحدة فوق اوسا ، والثانية فوق الاوليمب ، في الوقت نفسه كانت السماء فوق وادي الفيصليّة زرقاء صافية تماماً .

في هذا الوقت بالذات كانت الاحداث في برودفيي تتطور بشكل اجبرني على ان اعطيها اهتماماً كبيراً . فبعد الانتصار الذي تحقق في اوروبا بدأت مرحلة الجذر في نشاط الاستخبارات البريطانية هناك . وماتبقى من بقايا أيام الحرب كان يتطلب إعادة تنظيم جذرية . وكرئيس فرع ، اصبحت الآن من الضباط القادة ، خاصة وان فرعي يجب ان يصبح حتماً من اكبر الفروع ، اذا لم يكن اكبرها كلها . وعقوبة لي على هذا الوضع ، اصبحوا يدعوني للمشاركة في اتخاذ القرارات الادارية الهامة وتحديد السياسة العامة

الجزر

للاستخبارات البريطانية . لاشك انه كانت توجد اساليب اخرى لحل تلك الامور ولكننا لم نكن نعرفها بعد . لقد كنت اقضي كثيراً من الساعات صباحاً ومساء ارسم اشكالاً ما في مختلف المكاتب . وبالكاد اسمع مايجري من احاديث حولي .

لقد اشرت حتى الآن الى كبار الضباط الذين كانت لهم علاقة ما بعملي . وقبل ان ابدأ الحديث عن التنظيم الجديد لجهاز المخابرات البريطانية بعد الحرب ، لا بد من ان أعود قليلاً الى الوراء لاتحدث عن رؤسائي ، بدءاً من الشيف ، السير ستيوارت مينزيس .

لم يكن مينزيس رجل مخابرات عظيم بالمعنى الواسع لهذه الكلمة . فلم يكن لديه فيض ثقافي ، ومعارفه عن العالم لم تكن تتجاوز معارف ممثلي الطبقة العليا للمجتمع الانكليزي . كان تصوره عن جو العمل في فرعي انا ، سطحياً جداً : بارات ، لحى اصطناعية ، شقراوات . هذه اللمحة الطفولية كانت من اكثر صفاته جاذبية . ولقد استطاع ان يحافظ عليها بالرغم من المسؤولية الرهيبة التي كان يتولاها ، وبالرغم من انه كان مهدداً في اية لحظة بان يستدعيه تشرشل في منتصف ليلة ما عندما يكون متوتر الاعصاب . فقوته الاساسية تكمن في قدرته على فهم الاتجاهات العامة في وايت هول وتحديد طريقه بينها . الضباط الذين كانوا يعرفونه اكثر مني كانوا يتحدثون عن قصور جنسي عنده ولكنني لااود القول ان رجولته كانت ناقصة .

ولكن الشيف كرجل قوي الجانب وموهوب اصبح معروفاً بعد ان استطاع ان يصمد ويصد الهجوم الذي شنه ضده رؤساء مخابرات القوى البرية والبحرية والجوية ، والذين كانوا زملاءه في لجنة الاستخبارات العامة . اما فحوى الهجوم الذي شنه هؤلاء فقد تركز حول نقطة واحدة وهي ان المعلومات السرية التي تصلهم من جهاز الاستخبارات غير كافية وانه يجب عمل شيء ما . ولاشك ان هناك شيئاً من الحقيقة في هذا الاتهام .

ولكن اي جهاز استخبارات في العالم يبقى بحاجة دائمة لتحسين اساليب عمله . هذا الوضع قائم ابداً . كان الشيف يعلم انه لاجدوى من مناقشة هذه الاتهامات بنداً بنداً . نقطة ضعفه الوحيدة هي انه كان دائماً ينظر عبر كتفه . فقد كان كل من كبار الضباط المحيطين به يطمح لأن يشغل مكانه ، واحد منهم ، كما قيل ، كان الادميرال كودفري ، الذئب البحري ذو الوجه الاحمر ، رجل عصبي ، كان في وقت ما رئيساً لاستخبارات القوى البحرية .

لم تكن لدى الشيف رغبة في ان يقلب تنظيم جهازه رأساً على عقب ، ليرضي غرور اجهزة الاستخبارات العسكرية ، ولكنه كان يقدر تمام التقدير خطورة الهجوم القائم ضده . وبدلاً من ان يواجه هذه الخطورة بصلابة ، بدأ بالمناورة واعطى بعض التنازلات . فقد وافق على كثير من انتقادات زملائه طالباً منهم إفراز ضباط استخباراتهم للعمل لديه . وسيتم تعيين هؤلاء الضباط نواباً للشيف كما أنه سيكون لهم الحرية التامة في الاطلاع على عمل جهاز الاستخبارات العامة في كل مايخص دوائرهم . ويحق لهم تقديم اية اقتراحات وهذه الاقتراحات سوف تدرس بكل جدية . لم يكن لدى الشيف ادنى شك (هكذا قال) انه فيما إذا اصبح لديه ضباط من القوى العسكرية الثلاثة فإنه سوف يستطيع تلبية احتياجات القوات المسلحة من المعلومات التي تحتاجها .

لقد كان من الصعب على الدوائر العسكرية المذكورة ان ترفض هذا الاقتراح السخي . ولاشك ان هذا الاقتراح كان موقفاً ذكياً جداً من قبل الشيف ، فقد كان يعلم حق العلم . انه في هذا الظرف العسكري المعقد لن يستطيع اي رئيس من رؤساء الاستخبارات العسكرية ان يستغني عن ضابط لامع ، ذكي من ضباطه . لذلك كان من المنتظر ان يأتي الينا اناس من الدرجة الثانية ، هذا إذا لم يكونوا ممن لاعمل لهم اطلاقاً . وبمجرد وصولهم الى بروهفيي وضعهم في ظروف لاتسمح لهم بأن يجلبوا لنا اي ضرر .

لاعتقـد ، ان الشيف كان يخالجه ادنى شك في نجاح خطته . وقد اثبتت الحياة صحة ذلك . وهكذا اصبح لدينا ثلاث «قوميسارية» من القوات المسلحة (اطلقوا عليهم هذه التسمية فوراً) .

كان البريغادير بيدينغتون نائباً للشيف من الجيش . وحسب علمي لم يقدم ، ابداً ، اي اقتراح بخصوص تحسين اساليب جمع المعلومات العسكرية وطرائقها . فقد كان لعدة اسابيع مشغولاً في قضايا التفتيش وفي امكانية تخفيض رواتب ضباط الجيش العاملين لدى جهاز الاستخبارات البريطانية العامة . وبما انني رجل مدني ، لم تكن لي اية علاقات معه ، ولذلك لااستطيع ان اقول اية شخصية كانت تختبىء وراء وجهه المنتفخ . لقد اصطدمت معه مرة واحدة وهذا الحادث افهمني ، انه من الافضل ان ابقى بعيداً عنه . في ذلك الوقت ، عندما كانت الالبسة تعطى حسب القياس ، كنت احاول ان احافظ على جدة بذاتي المدنية الاثنتين او الثلاثة ، ولهذه الغاية كنت ارتدي اثناء الخدمة بذة عسكرية ، بقيت عندي منذ ان كنت اعمل مراسلاً عسكرياً . يوماً ما ، بهذا اللباس ، قابلت بيدينغتون في المصعد . لم يكن بيننا سابق معرفة ، لدرجة تسمح بان نتحدث مع بعضنا (اضف الى ذلك انه بطبيعته كان يميل للصمت) ، لكنني لاحظت كيف فتح عينيه ونظر الى بذتي العسكرية وأوقف نظره على كتفي حيث لم تكن هناك اية رتب . بعد نصف ساعة جاءني مساعده وبدأ يحقق معي بالتفصيل عن خدمتي العسكرية . فرويت له قصة هذه البدلة ، ولماذا املك الحق في ان ارتديها دون ان اضع اية رتب . ولم اسمع من بيدينغتون اية ملاحظات بعد ذلك حول هذا الموضوع .

ممثل وزارة الطيران الكومودور بن كان انساناً صعباً ايضاً . وسرعان ماطلقوا عليه لقب «بن اللعين» ، وافضل العاملين لدينا اتحدوا في «الجمعية الخيرية لمحاربة بن» . لم تكن معاناتنا مع هذا الرجل طويلة ، فقد تخلص الشيف منه بطريقة ذكية جداً . حيث ارسله بحجة ما ، في مهمة الى

الولايات المتحدة الامريكية .

اما نائب الشيف عن القوى البحرية ، العقيد كوردو ، فقد كان افضل «القوميسارية» الثلاثة . كان في الماضي لاعب كرة قدم . وقد لعب عن نادي غريمبسي ـ تاون . تم تعيينه ، بموافقة الشيف ، مشرفاً على عمليات الاستخبارات البريطانية في البلدان الاسكندينافية . كان جميلاً ان احد «القوميسارية» يهتم بعمل الاستخبارات ، ويقوم به ، بنفسه ، وإن كان بدرجة ضعيفة . اما الشيف فكان مسروراً جداً لأن عمل كوردو كان محصوراً في زاوية صغيرة من اوروبا الشمالية ، ولايستطيع ان يقوم باية ثورة داخلية في عمل الاستخبارات البريطانية .

وبعد ان تم حصر نواب الشيف هؤلاء في امكنة لااهمية لها ، سرعان مابدأت تغيرات جديدة في الدوائر العليا . لقد اشرت الى ان نجم فيفين بدأ يخبو . فبقاؤه في منصب نائب رئيس الخدمة اصبح امراً مشكوكاً فيه . لذلك سرعان ماانزلوه الى الاسفل قليلاً ثم انعطفوا به الى زاوية أنشئت خصيصاً له . واطلقوا عليه اسم مستشار لشؤون الامن . بقي فيفين متمسكاً بهذا المنصب لعدة سنوات اخرى ، يكتب تقارير طويلة لم يقرأها احد ، آملاً ان يتقاعد وهو يحمل لقب نبيل . وتم تعيين دينسي مكان فيفين ولكن ليس بلقب نائب للشيف وانما لقب مستشار الشيف ، مراعاة لفيفين . أما مكان دينسي فقد اصبح يشغله جنرال ناعم هو مارشال ـ كورنويل ، الذي جاء الينا من خارج الجهاز كله . قبل مجيئه الينا كان جنرالاً في الجيش الانكليزي . وإذا كان لم يشغل منصباً مرموقاً عندنا فذلك عائد الى كونه شخصاً ذا تأثير ضعيف ان لم يكن مؤذياً . وهذا هو بالذات الشخص الذي وقف بصلابة ضد رئيس قسم جوازات السفر في روما ، في مسألة السيارة .

بحلول زمن السلم بدأت تظهر وجوه جديدة . ودون اي اسف قوبل ذهاب مارشال ـ كورنويل . دينسي الذي احيل الى التقاعد مع اللقب النبيل ، وبعد ذلك تزوج ثم مات .

تم تعيين الجنرال سينكلير[1] مستشاراً للشيف خلفاً لـديني . وكان سينكلير قبل ذلك رئيساً للمخابرات العسكرية . وبعد ان استمع الشيف الى كافة الانتقادات بخصوص هذا التعيين قال : «ماالامر ؟ لقد اخرست وزارة الحربية لخمس سنوات !» . أما الفراغ الذي تركه مارشال ـ كورنويل فقد تم سده بكومودور آخر من سلاح الطيران ويدعى ايستون .

سرعان مابدأت أحس بالاحترام تجاه هذين القادمين الجديدين ، بعكس سلفيهما . مع ان سينكلير لم يكن يمتلك اية مواهب عقلية (ولم يحاول ان يطلب ذلك لنفسه) فقد كان انساناً ، ديناميكياً ومستقيماً لدرجة تجبرك على ان تمتدحه . اما ايستون فقد كان رجلاً من طراز آخر . لأول وهلة بعد التعارف يعطيك انطباعاً بأنه ثرثار ، ولكن هذا الانطباع خادع . فقوته كانت تكمن في انه كان ذا ذهن صاف جداً ، وفي الوقت نفسه لعيناً ومتقلباً . عندما كنت ، في وقت ما ، اتصورهما خصمين لي كنت اشبههما بالعصى ، سينكلير ، والرمح ، ايستون . لم اخف من العصا لأنه ببساطة يمكن تفاديها ، ولكن عندما كنت اتذكر رأس رمح ايستون كنت احس ببرودة تسري في ظهري . وقد كتب لي ان اعمل معه كثيراً . وقبل اجراء هذه التعيينات كانت قد اجريت محاولة جدية لوضع التنظيم على اساس صحيح صلب . لقد قلت إن الخدمة في زمن الحرب كانت قائمة على اساس الاجتهادات ومبدأ المصادفة . ولم تكن هناك خطة سليمة لاختيار الكوادر ، واعدادها ودفعها الى الامام ، وكذلك تأمينها بعد التقاعد . كان الشيف يقبل العاملين لاعلى التعيين ، وكان يمكن الغاء عقود العمل في اي وقت . وفي مثل هذه الظروف لايمكن تأمين الكوادر اللازمة للعمل بصورة مستمرة . وليس غريباً الا يكون جهاز الخدمة غير متناسق من حيث

(١) بعد الهزة التي احدثها تشرشل في جهاز الاستخبارات عام ١٩٥٣ استلم رئاسة الاستخبارات العامة البريطانية . اجبر على الاستقالة بعد حادث بورتسموث ١٩ نيسان ١٩٥٦ ، عندما اختفى الكومودور كريب ، الذي كان يقوم بمراقبة الطراد السوفييتي «أوردجونيكيذه» تحت سطح الماء .

الكيفية : كان يوجد موظفون من الدرجة الجيدة ، وكان يوجد اللامبالون ، وحتى السيؤون .

كانت الحرب بالنسبة لجهاز الاستخبارات البريطانية اختباراً قاسياً . فقد كان الوضع يفرض توسيع جهاز الخدمة ، وكثير من الناس الموهوبين مروا عبر هذا الجهاز ، مخلفين وراءهم افكاراً مفيدة . ولكن تقوية جهاز الخدمة تحققت بعد المرور باخطاء كثيرة ، وفي وضع من التوتر الذي خلفته ظروف الحرب . وكل ماتم تحقيقه كان يمكن ان يكون افضل ، فيما لو توفر لنا الوقت الكافي للتفكير . والآن آن الأوان . فنهاية الحرب في اوروبا خففت من طلبات النتائج الفورية ، ولكن الحكومة كانت لاتزال تقدر اهمية خدمات جهاز الاستخبارات . لذلك كان يجب استخدام الاشهر المتبقية من العام ١٩٤٥ لبناء تركيب جديد لجهاز الخدمة السرية هذا قبل ان تغرق الحكومة في تسويات مابعد الحرب . ولاشك ان الشيف كان يفكر بهذا الاتجاه . وعندما اخبروه بأن فكرة تحسين عمل الجهاز وتركيبه تلاقي تأييداً لدى كل العاملين في الجهاز ، سارع فوراً لتعيين لجنة لدراسة الاقتراحات الضرورية ووضعها بهذا الخصوص . وماسمي بلجنة إعادة تنظيم جهاز الاستخبارات بدأت اجتماعاتها في ايلول ١٩٤٥ . اما مشعلو شرارة الحركة لتحسين تركيب وعمل جهاز الخدمة السرية فقد كانا ارنولد ـ فورستر والنقيب هاستينفز ، المسؤول المتنفذ في مدرسة الشيفرة واعداد الكوادر . ومع ان هاستينفز لم يكن من العاملين في جهاز المخابرات البريطانية ، فقد كان له كامل الحق في ان يهتم بنشاطها ، لأن الحرب أثبتت ضرورة تعاون المدرسة وجهاز الخدمة السرية . وتعيينه في لجنتنا اعطى المناقشات حيوية متجددة . كان ديفيد فوتمان مسؤولاً في اللجنة عن تأمين الاحتياجات السياسية للخدمة ، والعقيد كوردو كان ممثلاً للمجموعة «ج» . ولقد دعيت انا ايضاً للمشاركة في اعمال اللجنة لا لأنني املك مواهب في هذا العمل (فقد كنت اكرهه كثيراً) وانما كنت اقدم ضابط ، بعد فيفين بقضايا الجاسوسية

المضادة . لقد تم تعيين ايلوريد دين سكرتيراً لنا ، كان هـذا رجلاً دقيقاً ، إذا لم يكن تفصيلياً . وكان يمكن الاعتماد المطلق على اندفاعه ، لأن مكاناً دافئاً ، في شركة «شل» النفطية ، كان بانتظاره . كانت اكثريتنا ترغب في ان يكون أرنولد ـ فورستر رئيساً للجنة . فبالاضافة الى قوة إرادته ، وصفاء ذهنه ، كان اقدم ضابط بيننا ويعرف كل دهاليز وخفايا جهاز الخدمة السري . ولكن الشيف ، الذي كان يشك في امكانيات ارنولد ـ فورستر ، الذي يريد ان يحصر اية اقتراحات باصلاح جهاز الخدمة في حدودها المعقولة ، كان قد خبأ لنا مفاجأة . كانت دهشتنا كبيرة جداً عندما اعلن ان رئيس اللجنة هو موريس جيفس ، رئيس قسم مراقبة جوازات السفر في وزارة الخارجية . هذا الموظف المسؤول عن اعطاء تأشيرات الخروج ، كانت له علاقات مع كل جواسيسنا . ولكنه لايملك اية معلومات عامة عن الخدمة ، امكانياتها ، محدوديتها . . الخ . اما فيما يتعلق بامكانياته ، فلا اعتقد ، انه كان يطمح لأن يكون اكثر من إداري عادي . ولكن ماالعمل . لقد قال الشيف كلمته .

قبل تشكيل لجنتنا بعدة سنوات ، وقع جيفس ضحية لحادث عجيب . فالدكتور الذي كان يعطيه ابرة ضد مرض ما ، اخطأ في تركيب الدواء ، مما اثر على لون وجهه ، الذي اصبح ازرق نيلياً . المصيبة وقعت ولامرد لها . وهكذا بقي وجه جيفس شبيهاً بالمعدن المحروق . وخلال احدى رحلاته الى واشنطن ، تعرض لإهانة فظيعة ، فقد رفضت إدارة احد الفنادق استقباله ظناً منهم انه زنجي اسود . وللحقيقة ، ان جيفس نادراً ماكان يتدخل في المناقشات ، ولم يشأ استعمال سلطته كرئيس للجنة اطلاقاً . وكان من المستحيل ألا تحبه ، إذ سرعان ماتعودنا على رؤيته على رأس الطاولة .

خلال السنوات اللاحقة ، اخذت اللجنة كثيراً من وقتي . فقد اصبحت افكارنا اكاديمية لانفع منها ، وليست بمستوى ان اكتب عنها

بالتفصيل . ولكن بعض الملاحظات يمكن ان تلقي ضوءاً على بعض القضايا العامة المحددة ، التي كانت امام الخدمة السرية . كان لابد ، وقبل كل شيء ، من ان نتحرر من مخلفات الماضي البغيض . فقد كانت المسائل المادية والادارية تحول دون اعطاء الاهتمام الواجب لعملية التنسيق . فلم يكن هناك وضوح في عمل الفئة «ج» : فالمسؤولون عن العمل في اوروبا الغربية كانوا يخضعون لقيادة دينسي ، ومابقى مباشرة للشيف . بمعنى آخر ، ان دينسي رغم كونه مستشاراً للشيف إلا انه عملياً كان مشرفاً على المعلومات التي كانت ترد من اوروبا الغربية فقط . وكان واضحاً ان كل تركيبة الجهاز كانت تحتاج الى تغيير جذري . ولكن قبل ان نجد حلاً لهذه المشكلة ، كان لابد من تحديد المبدأ الذي سيتم على اساسه قيام بنائنا : هل نحافظ على التقسيمات المختلفة القائمة في الخدمة حسب ترتيبها العمودي مع التنظيمات المسؤولة عن مناطق معينة من العالم ، والمسؤولة عن الحصول على المعلومات ، ودراستها ، وتقويمها وتوزيعها حسب المناطق المقابلة ، ام ان التقسيم يجب ان يكون افقياً ، بين الحصول على المعلومات من جهة ، ودراستها ، وتقويمها وتوزيعها ، من جهة اخرى . واعترف بانني حتى الآن لااملك اجابة على هذا السؤال . ولكن في ذلك الوقت كانت القضية تمس مصالحي الشخصية . فلو تم اقرار مسألة التقسيم الافقي ، فإن العمل ضد الاتحاد السوفييتي والحركة الشيوعية العالمية عامة سيتم توزيعه بين الاقسام حسب المناطق التي تعتبر مسؤولة عنها . فلم يكن بمقدور اي انسان في ذلك الوقت ان يحتوي هذا الحجم من العمل . لذلك فقد اعلنت تأييدي لتقسيم العمل عمودياً ، آملاً ان احافظ على نشاطات الاستخبارات البريطانية ضد الاتحاد السوفييتي والحركة الشيوعية العالمية ، تحت قيادتي لفترة اخرى .

ولقد ايدني في هذه المسألة شخص قوي هو ديفيد فوتمان . عملياً هو الذي دافع عن وجهة نظرنا هذه خلال المناقشات اما انا فكنت اساعده عند الضرورة . حجتي ـ باختصار ـ هي ان الجاسوسية المضادة موحدة وليست

مقسمة . فالقضية ، التي تظهر في كندا قد تلقي ضوءاً على قضية اخرى في سويسرا ، كما حدث ، فعلاً ، بعد ذلك بقليل ؛ مثلاً ، مخبر يعمل الآن في الصين ، ولكن قد يصبح غداً في بيرو . لذلك فمن الضروري ان تكون المراقبة على مستوى عالمي . لاشك ، انه كان يمكن إيراد كثير من الحجج لصالح وجهة النظر هذه وتلك ، ولكن مؤيدي التقسيم عمودياً كانوا أقلية لذلك تم إقرار التقسيم افقياً . كنت اعرف ان هناك شخصاً يمكن ان يؤلب اللجنة ضدنا ولذلك فقد سعيت الا يكون من اعضائها . وبعد ان تم إقرار هذه القضية المبدئية ، اقترحنا تشكيل خمس إدارات متساوية :

١ ـ الادارة المالية
٢ ـ العمليات
٣ ـ إدارة وضع المهمات وصياغتها
٤ ـ إدارة الإعداد والبحث (في مسائل تطوير الوسائط اتكنيكية ، المستعملة في قضايا التجسس)
٥ ـ إدارة التخطيط الحربي

لقد تم وضع ترتيب الفئات في الخدمة مع راتب محدد ومعاش تقاعدي ثابت . وقد القيت على عاتق الادارة المالية مسؤولية البحث عن كوادر ذات كفاءة خاصة بين خريجي الجامعات ، والتنافس في ذلك مع المؤسسات المدنية الاخرى والصناعية . وبعد ان اصبح تقريرنا جاهزاً لتقديمه للشيف احسسنا اننا قد اعددنا تقريراً يشبه تقارير اجهزة الخدمة السرية (التجسسية) .

ولكن الشيف لم يقبل بكل اقتراحاتنا . لقد كان هناك كثير من الامور غير الضرورية ولكننا لم نأت على ذكرها في تقريرنا لأننا نعلم مسبقاً ان الشيف لايستطيع ان يستغني عنها . ولكن شكل التنظيم الذي عرضناه سابقاً قد تم إقراره كأساس عام للبناء الجديد . ومع كل سلبياته فإن هذا الشكل الجديد يعتبر خطوة الى الامام بالمقارنة مع الاشكال والاساليب

السابقة . اما انا فقد كنت راضياً عما جرى . ذلك ان احد قرارات اللجنة والذي يأتي في المرتبة الثانية ، كان الغاء الفرع رقم خمسة . وانيطت مهماته بالفرع رقم تسعة الذي اصبح سيحمل اسم (ب ـ ٥) . وهكذا ، بعد هذا الترتيب الجديد اصبحت احد نواب رئيس المخابرات البريطانية مع كل مايترتب على ذلك من امتيازات ، واصبحت اقود كل نشاط الجاسوسية المضادة لدى الاستخبارات الانكليزية .

الفصل الثامن

قضية فولكوف

والآن انتقل الى قضية فولكوف ، التي أود ان اكتب عنها بالتفصيل ، لأنها تعتبر ، الى حد كبير ، من القضايا الممتعة والتي كادت تؤدي الى هلاكي . بدأت في آب وانتهت في ايلول من العام ١٩٤٥ . بالنسبة لي هذه القضية لاتنسى ابداً . فلأول مرة أرى فيها روما ، واثينا واستطنبول . ولكن انطباعاتي الرائعة عن استطنبول كانت تفسدها فكرة انه قد يكون هذا الصيف الاخير الذي يتأتى لي ان اكون فيه سعيداً . لأن قضية فولكوف ، التي جاءت بي الى شواطىء البوسفور ، قد وضعتني قاب قوسين او ادنى من الموت .

في صباح احد ايام شهر آب لم اكد آخذ مكاني الى طاولة مكتبي ، حتى دعاني الشيف اليه . ودفع الي بمجموعة من الوثائق طالباً ان اطلع عليها . في اعلى هذه المجموعة ، رسالة قصيرة الى وزارة الخارجية ارسلها نوكس هيلم ، الذي كان عندها يشغل منصب مستشار السفارة البريطانية في تركيا . تشير الرسالة الى عدة ملاحظات وتطلب تعليمات . كانت تلك الملاحظات عبارة عن عدة رسائل عمل تم تبادلها بين السفارة الانكليزية والقنصلية البريطانية العامة في تركيا . محتوى هذه الرسائل يرسم الصورة التالية . شخص ما ، يدعى قسطنطين فولكوف ، مستشار القنصل السوفييتي العام في استطنبول ، توجه الى مستشار القنصل الانكليزي العام في استطنبول يطلب منحه وزوجته حق اللجوء السياسي في انكلترا .

بالمقابل ، يعد فولكوف ، بان يعطي معلومات عن احدى إدارات

الامن العام السوفييتي التي ادعى انه عمل فيها سابقاً . واعلن ايضاً ان لـديه معلومـات عن جـواسيس سـوفييت يعملون في الخـارج ، ثـلاثـة منهم في بريطانيـا . اثنان يعمـلان في وزارة الخارجيـة ، والثالث هـو الآن في رئاسـة الجاسوسيـة الانكليزيـة المضادة في لنـدن . ويطلب فـولكوف بـالحاح عـدم إرسال طلبه هـذا الى لندن بـرقياً ، لأن الـروس استطاعـوا فك بعض رمـوز الشيفرة الانكليزية . اما الوثائق الاخرى فلم تكن ذات اهمية ، لانها عبـارة عن ملاحظات سطحية وضعها بعض موظفي السفارة الانكليزيـة هناك ومن الرائع حقاً ان السفارة اخـذت بعين الاعتبـار حذر فـولكوف وارسلت طلبـه بالبريد الدبلومـاسي البطيء جـداً ولكنه مـأمون . والنتيجـة انه مـر اكثر من اسبوع قبل ان ينتهي احد الاشخاص المهمين من دراسة هذه الوثائق وتحديد اهميتهـا . هذا الشخص المهم هـو انا . وارجـو من القـارىء ان يعـذرني إن كنت اصف نفسي بـالرجـل المهم . ولكنها الحقيقة ، فقـد كنت مهـماً جـداً لكي احدد اهمية تلك الوثائق . جاسوسان سوفييتيـان في وزارة الخارجيـة ، والثالث ـ في رئاسة الجاسوسية الانكليزية المضادة في لندن ! حدقت طويلاً في هذه الوثائق ، حتى استطعت ان اجمـع افكاري . نبـذت فكرة اعتبـار طلب فولكوف مجرد تحرش يجب الحذر منه . فذلك لن يخـدمني الا لوقت قصـير . كان يجب ان اعمل بحـزم . ولذلـك اخبرت الشيف بـان القضية قـد تكون ذات اهميـة استثنائيـة ، وانني بحاجـة الى بعض الوقت لإجـراء التحـريـات الضروريـة ، وإذا حصلت عـلى بعض المعلومـات الاضـافيـة فسيكـون باستطاعتي تقديم الاقتراحـات المناسبـة للتحرك . وافق الشيف عـلى كلامي وطلب مني صياغة رأيي وتقديمه في الصباح التالي . اما الوثائق فطلب مني ان ابقيها عندي .

بعـد ان عدت الى مكتبي طلبت من السكـرتير الا يقلقني ابـداً الا اذا طلبني الشيف . لقـد كنت بحاجـة لأن اكـون منفـرداً . كـان طلبي للوقت الاضـافي «لإجراء التحـريات» فخـاً . لأنني كنت متأكـداً ان الاستخبارات

البريطانية لم تسمع سابقاً باسم فولكوف ، ومن المرجح انه يطلب لنفسه قيمة ما عندما يعرض «سلعة» بهذا الحذر غير المفهوم ، ولذلك لم يعط طلبه الاهمية اللازمة . ومنذ البداية فهمت ان عامل الزمن ذو أهمية مصيرية . وبفضل طلب فولكوف بعدم ارسال طلبه برقياً مرت عشرة ايام قبل ان تصل الوثائق لي وانا شخصياً اعتبرت ان حذره مبالغ فيه . فالشيفرة الانكليزية كانت تعتمد على لوائح تستخدم لمرة واحدة فقط وتعتبر آمنة فيما إذا استخدمت بشكل صحيح .ولكن إذا أراد فولكوف عدم إجراء المراسلات برقياً فأنا لست ضد ذلك .

سرعان ماذهبت افكاري في قناة اخرى . كانت القضية من الأهمية بمكان لدرجة ان الشيف اصر ان اهتم بها شخصياً . ولكن القرارات ، التي تتخذ في لندن ، كان يجب ان ينفذها رجالنا في استطنبول . وليس باستطاعتي ان اقود عملهم اليومي من لندن بطريق البريد الدبلوماسي . فالقضية ستصبح خارج سلطتي وقد تكون لها نتائج يصعب التنبؤ بها . بدأت اقتنع اكثر واكثر انه علي ان اكون في استطنبول لأشرف بنفسي على تنفيذ الاجراءات التي سوف اقترحها على الشيف . وخطة تنفيذ هذه الاجراءات لاتتطلب كثيراً من التفكير . أقابل فولكوف ، اضعه في مكان امين داخل الاراضي التركية ، ثم انقله الى مصر بموافقة سرية من الحكومة التركية او حتى دون تلك الموافقة .

وبعد ان خبأت الوثائق في درجي الخاص ، غادرت برودفيي مصمماً على ان اقترح على الشيف ارسالي الى استطنبول لأتابع بحث القضية على الطبيعة . فالوضع يتطلب اتخاذ اجراءات استثنائية ، وهذه الاجراءات اتخذت فعلاً : إلى موسكو ارسلت برقية ذات اهمية استثنائية . وفي الصباح التالي اخبرت الشيف بأنه لدينا معلومات عن اكثر من فولكوف ، ولكن أحداً منهم لايشبه فولكوف استطنبول هذا . وبعد ان اشرت الى ان الاعتماد على البريد الدبلوماسي ، في حل هذه القضية المهمة ، ليس عملياً ، واقترحت

عليه ارسال احد موظفينا الى استطنبول ليتابع بحث القضية في مكانها بعد تزويده بالتعليمات الضرورية . «بالمناسبة ، لقد فكرت في ذلك» ـ قال الشيف . ولكنه ، بعد ان احيا في نفسي أملاً ، عاد فأطفاه عندما قال ، انه مساء امس التقى بالبريغادير دوغلاس روبيرتس ، الذي كان رئيس دائرة الشرق الاوسط في فرع امن الدولة ، ومقره القاهرة . وقد انهى اجازته هنا في لندن وسيعود قريباً الى الشرق الاوسط . ويبدو ان دوغلاس هذا قد ترك انطباعاً جيداً في نفس الشيف فقرر هذا الاخير ان يطلب من السير ديفيد بيتري ، رئيس فرع امن الدولة ، ارسال دوغلاس الى استطنبول ليتابع قضية فولكوف .

لم استطع ان اقدم اية اعتراضات ضد هذا الاقتراح . ومع انني كنت اعتقد انٰ دوغلاس لايملك اية مواهب فذة ، الا انه كان يمتلك كافة المؤهلات الضرورية لمتابعة مثل هذه القضية . فقد كان هذا من كبار الضباط ، ووضعه كبريغادير كان يمكن ان يترك تأثيراً في نفس فولكوف . بالاضافة الى ان دوغلاس يعرف المنطقة جيداً وكانت له صلات مع المخابرات التركية ، حيث كان التعاون معها في مثل هذا الوقت مهماً جداً . وعدا عن ذلك فهو يتكلم الروسية بطلاقة ، وهذه حجة قوية لصالحه لأن فولكوف لايتكلم اية لغة اجنبية . وهكذا بحثت مع الشيف بقية اطراف القضية بمزاج سيء جداً ، وخاصة مسألة التنسيق مع وزارة الخارجية البريطانية . وعندما غادرت قال الشيف انه سيستدعيني بعد الظهر : فقد أمِل ان يلتقي في الصباح مع بيتري ودوغلاس .

خلال استراحة الغداء كنت العن القدر ، الذي جمع الشيف بدوغلاس . فقد بدا انني لااستطيع ان اتخذ اية اجراءات . وهذا الغموض كان يعذبني . ولكنني كنت مجبراً على ترك الامور تتخذ مجراها العادي ، آملاً ان نتائج الاجراء الذي اتخذته مساء امس سوف تسبق دوغلاس . خلال عودتي الى برودفيي كان الشيف قد استدعاني اليه . كان مستاء جداً وبدأ فوراً

يقص علي ماحدث . لقد فهمت فوراً : ان القدر ، الذي لعنته قد عاودني مبهجاً . القضية هي ان دوغلاس ، المعروف بشجاعته غير العادية ، كان يمقت ركوب الطائرة . وقد قرر ان يبحر من ليفربول في بداية الاسبوع القادم . ولم تستطع حجج الشيف او بيتري زحزحته عن رأيه . وهكذا عدنا الى ما بدأنا منه في الصباح .

في البداية وضعت خطة مقابلتي مع الشيف بحيث يعرض علي هو ان اقوم بالمهمة بدلاً من دوغلاس ولكن ماحدث اعطاني امكانية التصرف بحزم اكثر . فقلت ، بما ان البريغادير قد رفض فإن كل مااستطيع عمله هو ان ارشح نفسي للقيام بهذه المهمة . ويلزمني وقت قليل كي اعطي مساعدي التعليمات الخاصة ببعض المسائل ، وبعدها سأكون جاهزاً للسفر فور الانتهاء من بعض الشكليات . فوافق الشيف فوراً . وذهبنا معاً الى وزارة الخارجية للحصول على رسالة الى نوكس هيلم ليقدم لي كل ماهو ضروري لانجاز مهمتي .

مررت في طريقي على الجنرال هيل ، رئيس قسم الشيفرة عندنا . فزودني بكود مؤقت ثم طلب من احدى الفتيات مساعدتي في ان اتذكر اصول استعماله . وهذا ماتطلب مني وقتاً إضافياً ولكنني خلال هذا الوقت اعدت في ذهني خطة تحركاتي في استطنبول . بعد ثلاثة ايام من وصول تلك الوثائق الى برودفيي اخذت مكاني في الطائرة ، المتوجهة الى استطنبول عبر القاهرة . كان جاري رجلاً صموتاً . لكن بعض المسافرين الآخرين جذبوا انتباهي بثرثرتهم الفارغة . والطيران دائماً يشدك الى التفكير ، وقد كان عندي ماافكر فيه . فهناك مسألة استحوذت على كل تفكيري ، ولم استطع حتى الآن ان افهمها ، ألا وهي : لماذا اتخذت السفارة البريطانية في تركيا ، ووزارة الخارجية ، والسير بيتري هذا الموقف الغريب من الحذر الذي ابداه فولكوف من مسألة المراسلات برقياً ؟ لماذا امتنعوا عن ارسال البرقيات في قضية فولكوف فقط ، في الوقت الذي استمر فيه تبادل البرقيات في قضايا سرية

جداً ؟ فلو صدقوا تحذير فولكـوف ، لكان عليهم ان يصلوا الى استنتـاج ، وهو ان المراسلات البرقية كافـة اصبحت خطرة . أمـا إذا لم يصدقـوه ، فقد كان عليهم ان يرسلوا برقية بالشيفرة فوراً ، بالاجراءات الضرورية الواجب اتخاذها في قضية فولكوف . لكن ماحدث هو ان تحذير فولكوف قد اخّر البت في قضيته لاسبوعين او ثلاثة .

لقد تم الاتفاق مع وزارة الخارجية على ان يتم الاتصـال مع فـولكوف عبر بيج ، مسـاعد القنصـل البريـطاني العام في اسـتطنبول . وكـان علي ان اذهب الى هذا اللقاء مع جون ريد ، السكرتير الاول للسفارة الـبريطانيـة في تركيا الذي عمل سابقاً في موسكو ، وهو يتكلم الروسيـة . هذه الخـطة كان يجب ان يقرها السفير السير موريس بيترسون ، وقد عرفته في اسبـانيا . لكن وزارة الخارجية اصرت على ان اتوجـه اولاً الى المستشار هيلم . لم اتـوقع ايـة صعوبات مع هيلم ، ولكنني ، كنت مخطئـاً . فالصعـوبة الـوحيدة في هـذه القضية ، كما تصورتها ، هي ان المقابلة مع فولكوف كانت ستجري بحضور ريد . وإذا جرت هذه المقابلة فإن ريد سوف يعاني من اضـطرابات عنيفـة ، عندما يبدأ فولكوف في تسمية الجواسيس السوفييت في المؤسسـات الحكومـية الانكليزية ، وانقاذه من سماع هذه المفاجآت ، قضية انسـانية . ولكن كيف استطيع ان افعل هذا ؟

من الـواضح ، انـه من الصعب ان اثق بنجاح خـطتي هـذه . ولكن هناك أمل ضعيف ، قـد يتحقق ، فيما إذا استـطعت ان العب لعبتي بمهارة . كان علي قبل كل شيء ان اقنع ريد ، بـان مهمتي ذات اهداف محـددة جداً ؛ وانه لم تعطَ لي صلاحيات بحث تفاصيل معلومات فولكوف ؛ وانـه ، إذا ما أعلن عن فضـائحـه قبـل الاوان ، اي قبل ان يصبـح داخـل الحـدود البريطانية ، فلا شك ، ان ذلك سوف يكون خطراً بالنسبة له ؛ لـذلك فـإن حديثي مع فولكوف يجب الا يتعدى هذه الحـدود ، كما ان مهمتي الاسـاسية هي ان انقـل فـولكـوف الى مكـان اكـثر امـان ، حيث يتـولى التحقيق معـه

اشخاص ذوو صلاحية . لقد كان لي امل كبير في ان اخدع ريد ، عن طريق الإيحاء له ، بأن فولكوف قد يكون كاذباً ولذلك فمن غير المعقول اعلان معلوماته ، قبل التأكد من صحتها . واعتقد انني لااستطيع ان اخلق اية خطة افضل .

لو كان ريد اختصاصياً لاستطاع ان يهدم كل هذا البناء . ولكنه لم يكن كذلك ، ولذلك فمن المحتمل ان يعلق في الصنارة . ولقد ارتحت كثيراً عندما أعلن ان الطقس فوق مالطا عاصف ولذلك فإن الطائرة سوف تحط في تونس وإذا تحسن الطقس سنطير غداً الى القاهرة عبر مالطا . وهاقد كسبت اربعاً وعشرين ساعة اخرى ! النجاح يرافقني . وصلنا القاهرة في اليوم التالي ، ولكننا تأخرنا عن رحلة استطنبول . وهكذا وصلت الى المكان المحدد متأخراً يوماً آخر ، كان يوم جمعة . وكان في استقبالي في المطار رئيس مكتب المخابرات البريطانية في استطنبول سيريل ماكري ، وقد شرحت له مهمتي باختصار . كانت العلاقات بين مكتب المخابرات من جهة والسفارة والقنصلية العامة من جهة اخرى قد وصلت لدرجة انه لم يخطر ببال أحد أن يخبر ماكري عن فولكوف ، ونحن ايضاً لم نتجرأ ان نبرق له بخصوص هذه القضية . وفي اليوم نفسه قمت بزيارة نوكس هيلم ، وسلمته رسالة وزارة الخارجية . لقد كنت انتظر استقبالاً حاراً لخططنا ولكنني اكتشفت انني كنت واهماً . بعد عدة سنوات اصبح هيلم سفيراً لانكلترا في بودابست ، فقال لي احد اصدقائي بان هيلم أذكى سفرائنا على الاطلاق . ولكن عندما قابلته في استطنبول كان لايزال مستشاراً . بدأ هيلم يعبر عن شكوكه المتعددة . فقد قال ان تصرفاتنا يمكن ان تضع السفارة في موقف حرج ، ولذلك لابد من التشاور مع السفير . وطلب مني ان آتي في اليوم التالي (ضاع يوم آخر !) ودعاني الى بيته بمنتهى اللطف .

عندما اتيت الى هيلم في الصباح التالي ، سألني ، بنظرة حادة : «لماذا لم تقل لي ، ان هناك معرفة سابقة بينك وبين السفير ؟» بعد ذلك لم يلتئم لي

حديث مع هيلم . وقياساً على سلوك هيلم ، قررت ، بأن هناك شكوكاً لدى بيترسون ايضاً ؛ فيما يتعلق بعملنا . فقد ابلغني هيلم ، بغير اهتمام ، ان السفير يدعوني لرحلة على اليخت «ماكاوك» يوم الاحد القادم في الحادية عشرة ظهراً وكان علي ان اذهب الى كاباتاش وقبل ذلك كان علي الا اقوم باية اجراءات . وهكذا ضاعت نهاية الاسبوع .

كثيرون هم الذين يعرفون يخت السفير «ماكاوك» ، الذي شيّد بالاصل لاحد المصريين ، ويدعى عباس حلمي . اليخت عبارة عن سفينة كبيرة ذات قاع مصقول ناعم صنعت خصيصاً للسير فوق مياه النيل الهادئة . ولكنها كانت تعوم بشكل رائع فوق مياه بحر مرمرة . كان على متن اليخت عدد آخر من الضيوف وعندما انشغل هؤلاء بمشاهدة لعبة الدلفين ، استطعت ان اتكلم مع بيترسون على انفراد . لكنه لم يتناول الموضوع الذي يهمني ، فتناولته انا ، مشيراً الى انني سمعت انه يعارض الخطة التي جئت بها من لندن . «اية خطة ؟» سألني هو . لقد وضع هيلم المسألة امامي بصورة اخرى . لقد استمع السفير الي بانتباه ووجه الي سؤالاً واحداً فقط : هل تشاورنا نحن مع وزارة الخارجية ؟ «طبعاً ، ـ أجبته ـ لقد اقرت وزارة الخارجية خطتنا ، ولقد حملت رسالة الى هيلم ، يطلب فيها اليه ان يقدم لنا كافة التسهيلات» . «إذاً لاحاجة لأي كلام بعد ـ أجاب السفير ـ تحرك» . هاهي آخر حجة لعرقلة مهمتي قد سقطت .

في المساء وضعت مع ماكري خطة تحركاتنا بكل تفاصيلها . لقد بحثنا كافة احتمالات خطف فولكوف بمساعدة السلطات التركية او دون مساعدتها ، ولكن يجب الا نقوم باية خطوات قبل ان نتحدث الى فولكوف . فقد كان الكثير يتعلق بوضعه الخاص مثل ، دوامه ، حرية الحركة . . . الخ . واول مايجب عمله هو الاتصال بفولكوف ، واسلم طريقة لذلك هي ان يتم ذلك عن طريق بيج ، حيث ان فولكوف اتصل به بالذات . في صباح اليوم التالي دعى ماكري بيج اليه ، وشرحت له ماهو

مطلوب منه ، وبالتحديد : عقد لقاء بيني وبين فولكوف بسرية مطلقة . واستعرضنا الاماكن المناسبة كافة لعقد مثل هذا اللقاء واستقر رأينا على أبسطها . لقد قال بيج انه غالباً مايلتقي مع فولكوف بخصوص اعمال قنصلية ، وسيبدو طبيعياً لو دعاه الى لقاء عمل . واخيراً رفع بيج سماعة الهاتف وطلب فولكوف . من السماعة كان ينساب صوت ضعيف ، ولكن ، بما ان المحادثة دارت باللغة الروسية فلم افهم منها شيئاً . الا ان وجه بيج كان يعبر عن خيبة امل ، وقد فهمت ، بان عثرة جديد قد ظهرت . وضع بيج السماعة واحنى رأسه . «لايستطيع ان يأتي ؟» ـ سألت انا . «غريب ، ـ اجاب بيج . ـ القضية اغرب مما تتصور . لقد طلبت فولكوف وقد اجابني صوت رجل ، انا فولكوف . ولكنه ليس فولكوف . فأنا اعرف صوت فولكوف جيداً ، لقد تكلمت معه عشرات المرات» . اتصل بيج مرة اخرى ، ولكنه هذه المرة لم يستطع ان يصل ابعد من عاملة المقسم . «لقد قالت له ، فولكوف غير موجود ، ـ احتد بيج ـ منذ دقيقة وصلتني معه !» لقد نظرنا الى بعضنا دون ان نفهم شيئاً . واخيراً عقبت انه من المحتمل ان يكون قد حدث التباس ما في القنصلية العامة السوفييتية وانه من المفيد اعادة الكرة غداً .

لقد بدأت احس ان هناك شيئاً جدياً قد حدث . بعد الغداء وضعت رسالة بالشيفرة للشيف . وفي الصباح التالي اجتمعت وبيج وماكري ، واتصل بيج ثانية بالقنصلية العامة السوفييتية . هذه المرة سمعت صوتاً نسائياً ضعيفاً وبعد صرخة حادة كان بيج يبدو تائهاً تماماً وهو ينظر الى السماعة التي صمتت «مارأيكم ؟ لقد طلبت فولكوف ، فأجابتني ، بانه في موسكو ، بعد ذلك سمعت ضجة ثم فراغ وبعد ذلك اقفلت الهاتف» لقد فهمت تماماً ماذا حدث . القضية ماتت . ولكنني اردت ان تصل القضية الى ابعد مدى لها ، لكي يكون تقريري للشيف جدياً اكثر . ولذلك فقد طلبت من بيج ان يلعب آخر ورقة لدينا وهي ان يذهب بنفسه الى القنصلية العامة السوفييتية

ويطلب فولكوف شخصياً . كان بيج متحمساً جداً لأن يعرف حقيقة هذه القضية ولذلك فقد وافق ان يتوجه بنفسه الى الروس . وعاد الينا بعد ساعة وهو يستشيط غضباً . «لاشيء ، لاشيطان ـ قال هو ـ انا لم اعد افهم شيئاً . قالوا بانهم لم يسمعوا بهذا الاسم ابداً ، ولااحد يعرف شخصاً اسمه فولكوف !» بعد ذلك افترقنا وذهبت كي ارسل برقية بالشيفرة الى الشيف . وبعد ان اعترفت بفشل المهمة ، طلبت السماح لي بالعودة الى لندن .

في طريق العودة ، وضعت تقريراً مفصلاً عن فشل المهمة ضمنته تصوري عن اسباب اختفاء فولكوف . فقد كتبت بان فولكوف نفسه يتحمل مسؤولية فشل هذه القضية عندما اصر على ان تكون الصلات مع لندن بالبريد الدبلوماسي . واضفت ، بانه كان قد مضي ثلاثة اسابيع منذ ان توجه فولكوف بطلبه الى بيج ، عندما حاولنا الاتصال به لأول مرة . ويبدو ان الروس قد استطاعوا كشفه خلال هذا الوقت . ثم اضفت ، بانه من الممكن ان يكون القلق قد فضحه هو وزوجته . وقد يكون قد فضح نفسه بسلوكه او انه شرب كثيراً واوقعته ثرثرة زائدة . ولااستبعد ان يكون قد تراجع ، بإرادته ، عن خطته واعترف بكل شيء . ولم أنس ان اشير الى ان كل هذا مجرد توقعات وانه قد يكون من المستحيل ان نعرف الحقيقة يوماً ما . أما تصوري عن انه قد يكون الروس قد عملوا بطلب فولكوف للانكليز ، لم تكن له اسس واضحة ، ولذلك لم يكن مفيداً ان اسجله في التقرير .

الفصل التاسع

ممثل الاستخبارات البريطانية في تركيا

لم يكن وضعي الاستراتيجي الممتاز كرئيس للفرع «ب ـ ٥» ان يستمر طويلاً . فقد قدمت لجنة اعادة تنظيم جهاز الاستخبارات اقتراحاتها بخصوص استكمال ملاك هذا الجهاز ، على اساس إعداد الكوادر إعداداً عاماً غير محصور باختصاص معيّن . فقد اشارت الى انه يجب اعداد الكوادر ، حسب الامكانيات المتوفرة ، للعمل في الجهاز المركزي ، كما في الممثليات الخارجية وايضاً في نشاط الجاسوسية والجاسوسية المضادة . ومثل هذا العمل يؤدي الى ان الكوادر سوف تفقد بعضاً من خبرتها الاختصاصية ، لأن الضباط كانوا ينتقلون بصورة دورية من عمل لآخر . ولكن هذا النقص كان يمكن تعويضه ـ حسب توقع اللجنة ـ بالمرونة التي سيصير اليها عمل الجهاز عامة نتيجة لاتساع خبرة العاملين فيه . ولا ضرورة للقول ، انه ، عند اقرار هذه الصيغة لعمل الكوادر لم تكن لدى الشيف ونائبه ومعاونه اية خبرة في مجال الجاسوسية المضادة ، ولا اي تصوّر عملي عن عمل الممثليات الخارجية . لم يكن آنذاك أعلى من ان تطاله متطلبات الوضع الجديد . وبما ان كل ماضيّ في جهاز الاستخبارات كان مرتبطاً بعمل الجاسوسية المضادة ، فقد كان عليّ ان اتوقع تعيناً جديداً .

لم افاجأ عندما دعاني الجنرال سينكلير في نهاي ١٩٤٦ ليبلغني ، بانه قد جاء دوري للعمل في ممثلية خارجية . لقد كنت اعرف مسبقاً ان اي اعتراض ، من قبلي ، على تعييني في ممثلية خارجية قد تكون له نتائج سلبية

على وضعي بشكل عام ، مما يؤدي حتماً الى اضرار ليست قليلة في امكانية حصولي على المعلومات التي احتاج اليها . وعندما ابلغني سينكلير بانني سأقود عمل ممثلية المخابرات البريطانية في تركيا ، ومركزها في استطنبول ، فهمت ان هذا ليس اسوأ احتمال ممكن . ففي ذلك الوقت كانت استطنبول هي القاعدة الاساسية في الجنوب ، للتجسس على الاتحاد السوفييتي والدول الاشتراكية في البلقان واوروبا الغربية . ومع انني فقدت امكانية الحصول على المعلومات بطريقة مباشرة الاّ ان علاقاتي مع الجهاز المركزي بقيت وطيدة الى حد مقبول .

اعلن سينكلير ان البريغادير دوغلاس روبيرتس سوف يخلفني في رئاسة الفرع «ب ـ ٥» . فقد انهى كافةاعماله المتعلقة بقسم فرع امن الدولة في الشرق الاوسط وهو الآن يستعد لاستلام منصبه في الجهاز المركزي . وقبل ان انتهي من تسليمه العمل بدأ يسألني عن نوادي لندن قبل ان يوجه لي اي سؤال عن العمل في الفرع . والعمل المفيد الوحيد ، الذي قام به هذا البريغادير طيلة وجوده في رئاسة الفرع «ب ـ ٥» هو انه استطاع اقناع موريس أولدفيلد ، الرجل الموهوب فعلاً ، ان يترك العمل في فرع امن الدولة ويعمل في جهاز المخابرات البريطانية العامة .

التحقت بدورة اعداد خاصة بالضباط العاملين في الخارج . وكانت هذه هي الدورة الثانية أو الثالثة التي تنظمها المدرسة في عهد صديقنا القديم ، جون ماني . ومنذ ذلك الحين ، تغيّر محتوى الدورات كثيراً . فالجهاز التدريسي تم اختياره من الذين عملوا في إدارة العمليات الخاصة ، وانحصر البرنامج ضمن تجربتهم العملية خلال الحرب . كانت الدورة مفيدة ، الى حد كبير ، ولكنني شخصياً لم استفد منها شيئاً . فقد اصبحت ظروف التجسس في استطنبول الآن مختلفة تماما عما كانت عليه ظروف اوروبا المحتلة من قبل هتلر . لقد كنت مضطراً لأن أقوم شخصياً بكتابة محاضرات عن الجاسوسية السوفييتية ، وقد سبب لي ذلك حرجاً كبيراً عندما

كنت اضطر لوشوشة المحاضر وانا في القاعة . للاسف ، لم استطع ان استعمل تجربتي الشخصية كاملة عند كتابة تلك المحاضرات . فقد اعاقني العمل في الفرع «ب ـ ٥» عن حضور بعض الامتحانات . وبالطبع كان هذا افضل لي . لأنه من المعيب ان يكون مسؤولاً ، بدرجتي انا ، في عداد المتأخرين دائماً . في كانون الثاني للعام ١٩٤٧ كنت قد انتهيت من تسليم العمل الى دوغلاس ومن الدورة التعليمية . وفي نهاية الشهر صباحاً كنت في المطار اشرب قهوتي . لقد كُتب لي ان ابقى هناك لعشرة ايام كاملة . فقد كان الطقس سيئاً جداً مما ادى الى تأجيل الرحلات واحدة بعد اخرى . ومع ذلك يمكنني ان اعتبر نفسي محظوظاً جداً . فخلال هذه الايام العشرة وقعت عدة كوارث جوية . وقل ما صدرت جريدة صباحية ، خلال هذه الفترة ، دون خبر عن كارثة جوية ما ، لقد انتظرت عدة ايام مع مجموعة من الراهبات ، اللواتي كن يقصدن بولوفايو . واخيرا اعلن عن اقلاع طائرتهن في احد الايام المكفهرة . لقد كان يوماً مكفهراً حقاً . فقد سقطت الطائرة ولم تنج منهن واحدة . واخيراً احسست بالارتياح عندما بدأت تفوح رائحة طقس دافيء في سماء مطار القاهرة .

منذ ان بدأت العمل في الاستخبارات البريطانية ، اي منذ ست سنوات ، لم اقض اكثر من عشرة ايام في اجازة . وبما انّ حدة العمل قد انخفضت نسبيّاً ، فقد قررت ان اقضي عدة ايام مع والدي الموجود في العربية السعودية . لقد استقبلني في جدة وذهبنا في رحلة إلى الرياض والخارج . هذه هي المرّة الأولى التي تعرّفت فيها على البلد الذي اعطاه ابي القسم الأكبر من حياته . ولم تكن لديّ اية رغبة لأن احذو حذوه . بساطة متناهية ، ليل صاف وغيرها من الاشياء الجميلة ، جميلة فعلاً ، ولكن ليس بشكل دائم . واسمح لنفسي بوقفة قصيرة لأجيب بعض المؤلفين ، الذي يعتبرون ان الطريق غير العادية ، التي سلكتها في حياتي انما تعود الى تأثير والدي . لا استبعد ان تكون آراءه العصرية قد ساعدتني ، منذ الشباب

المبكر ، على تخطي بعض الاوهام السلفية التي كانت سائدة في اسلوب التربية الانكليزية منذ اربعين عاماً . وحتى المراجعة البسيطة للحقائق المتعلقة بالمواقف الحاسمة في حياتي ، تظهر انه ابي كان بعيداً عني آلاف الاميال عندما كنت اقرر الانعطافات المصيرية في مستقبلي . ولو عاش ابي اكثر قليلاً لفوجيء بي فعلاً . ولكنه ما كان ليتخذ موقفاً معادياً لسلوكي . لقد كنت الوحيد تقريباً ، من كل المحيطين به ، الذي لم يكن فظاً معه قط . لقد كان دائماً يستمع الى رأيي حتى لو كانت القضية تتعلق بالعالم العربي العزيز جداً الى قلبه مع انني لم اتوان عن الوقوف منه موقفاً انتقادياً . ولا استطيع ان اؤكد صحة او كذب ما ترامى الى مسامعي يوماً ، من ان تشرشل كان يأخذ بعين الاعتبار رأي ولده راندولف . لقد تركت الصحراء ، غير آسف ، لأتابع طريقي الى المدينة الصاخبة الملآى بالعجائب ، استطنبول . كان زميلاي في الممثلية يعيشان مبعثرين في شقق تاعسة في حي بيرا ، ولكنني لم اشأ ان احذو حذوهم . فبعد عدة ايام وجدت فيلا رائعة ، على الشاطيء الآسيوي للبوسفور . لقد كانت الفيلا جميلة لدرجة انني لم اتردد في ان ادفع مبلغاً باهظاً كإيجار شهري لصاحبها . كانت الفيلا تقع بالقرب من المرسى ، حيث كنت اقوم ، وخلال سنوات ، برحلة يومية على طول الخط الفاصل بين آسيا واوروبا .

كانت وظيفتي الرسمية في ممثلية الاستخبارات البريطانية سكرتيراً أولاً للسفير ، وهنا اسمح لنفسي بالعودة قليلاً الى الوراء . فقد اشرت الى ان وظيفة رئيس قسم مراقبة جوازات السفر كغطاء رسمي لرجال الاستخبارات البريطانية اصبحت مكشوفة ، لذلك فقد اقترحتْ لجنة إعادة تنظيم جهاز المخابرات التخلي عن هذه الطريقة فاصبح موظفو جهاز الاستخبارات العاملين في الممثليات الخارجية يحملون لقب سكرتيراً أولاً او ثانياً او ثالثاً حسب مركزه في جهاز الاستخبارات البريطانية .

تبعاً لتغيير شكل التخفي تغيرت ايضاً الرموز المستعملة لتمييز

المثليات الخارجية . فقبل هـذا التغير كـان يرمـز لكل بلد بعـدد مؤلف من رقمين . فمثلا ، المانيا ـ العدد «١٢» ، اسبانيـا ـ «٢٣» . وقد اعـطي ممثلو الاستخبارات البريطانية في هذه البلدان الاعداد الخماسية المـوافقة : فـرئيس المثليـة في المانيـا كان يحمـل الرقم ١٢٠٠٠ ، في اسبـانيا ٢٣٠٠٠ ، أمّـا العـاملون تحت قيادة هـذه المثليات فقـد كانـوا يحملون رمـوزاً ضمن هـذه الارقام . ولقد ساد الاعتقاد بان هذه الطريقة فقـدت سرّيتها حتى يقـال انها قد اصبحت موضوع حكاية مؤادها ان ضبـاط الاستخبارات الالمـانية كـانوا يـرددون في حفلاتهم اغنيـة مـطلعهـا «البلد الثـاني عشر ، البلد الثـاني عشر اعظم من الكل» .

بهذا الشكل او ذاك تم الاستغناء كليا عن هذه الطريقة . واصبح رمز كـل بلد مؤلفاً من ثـلاثة احـرف من الاحرف الابجـدية ، الاول منهـا كـان الحـرف «ب» . فكـان يـرمـز للولايـات المتحـدة ، مثـلا ، بـالاحـرف «ب ي ي» ، تركيا ـ «ب ف إكس» . اما رئيس المثلية فقد كان يـرمز اليـه بهذه الاحرف + الرقم «٥١» ، والعاملون لديه برمز ثنائي ، مثلا ، «٠١» ، «٠٧» . وهكـذا اصبح يـرمز لي بـ ـ «ب ف إكس ـ ٥١». وقـد كنت اكـره هذا الرمز لغلاظته .

وهكذا اصبحتُ سكرتيـراً أولاً للسفارة الـبريطانيـة في تركيـا دون اية واجبات دبلوماسية ، وبكلمة اخرى اصبحتُ الرمز «ب ف إكس ـ ٥١» . كـان مجموعنـا خمسة اشخـاص ، فقط ، بالاضـافة الى الجهـاز المساعـد من سكريتاريـة وفنيين . وبـالاضافـة الى نائبي المـوهوب ، ومـوظف آخر كـان متحمساً دائماً ، وكان هناك ايضا روسيّ صاخب ، واحد من البيض سابقاً ، كـان هذا الشخص ذا طـاقة عجيبـة . وأخيرا كـان هناك رئيس قسم مـراقبة جوازات السفر الخاضع للنـدن كونـه يشغل هـذه الوظيفـة ، أمّا فيـما يتعلق بقضـايا التجسس فقـد كان خـاضعـاً لي . كـان هـذا ضـابط الارتبـاط مـع الاستخبارات التركية فقد كان يعتبر من الاختصاصين المجـربين في القضـايا

التركية ، كما أنه كان يتكلم التركية قليلا . وكـان ينتسب الى عائلة انكليـزية عريقة ، هي عـائلة ويتول . ولابـد من قول بعض الكلمات عن السكـرتيرة ويتول ، التي كانت مولعة بـالقطط وكـانت لها طـريقة خـاصة جداً لحفظ الاضـابير . فعنـدما كنت اطلب منهـا هذه الاضبـارة او تلك ، كانت تجيب «اعتقد ، انها تلك التي تجلس عليها قطة بيضاء» .

كـانت الاستخبارات الـتركيـة تحمـل اسم جهـاز الأمن ، ونشـاطنـا التجسسي كان يعتمد الى حد بعيد عـلى علاقتنـا مع هـذا الجهاز . فقـد كان الاتـراك يعرفـوننا ويتحملون نشـاطنا شرط ان يكـون موجهـاً ضـد الاتحـاد السـوفييتي والدول الاشـتراكيـة في البلقـان واوروبـا الشرقيـة ، وليس ضـد تـركيا . وسـوف نـرى انـه كثيـراً مـا تم تجـاوز هـذا الشرط . ولكي نضمن استمـرار علاقـات طيبة مـع جهاز الامن الـتركي ، كنـا نـرفـع لفـرعهم في استـطنبول شهـرياً مبلغـاً من النقود ثمنـاً لهذه الاشيـاء او تلك . وكان هـذا الدفع يتم على حساب زيادة رواتب كبار العاملين لدينا لأنه لم تكن تـأتينا ايـة مخصصـات لهـذا الغـرض . ولكن هـذه اللعبـة اجـبرت الاتــراك عـلى ان يصمتوا .

كـان مقر قيـادة جهاز الامن الـتركي في أنقرة ، وكـان يقـوده في ذلـك الوقت ، بيروقراطي ، كبير الحجم ، ذو كرش بارز كـالجيفة . وكنـا ندعـوه «العم نيذ» . ولسوء الحظ . كان علي ان أزوره مرة كل شهر لاعمال خاصة . ولكن لقاءاتنا سرعان ما اصبحت عـديمة النفـع لكلا الجـانبين . كنت ابـدأ عادة بأن اطلب اليه المساعدة للقيام بهذه العملية او تلك ، مثلا ارسال احـد الجـواسيس الى الجيش السوفييتي عـبر الحدود الشرقيـة لتركيـا . كان يفتعـل السعال ، يوشوش المترجم ، يهتز في كرسيـه ويطلب قهـوة . بعد ذلـك كان يقترح ، ان ارسل له العميل المعـين للقيام بـالمهمة مـع النقود ، ويتعهـد ان يقوم هو بتنفيـذ المهمة واعـلامنا عن النتيجـة . مع الـوقت تعلمت ـ الى حد مـا ـ التركيـة واصبحت افهم ما يجـري . كانت هـذه اللقاءات تنتهي عـادة

بخلاف مع مترجمي ، لذي لم يكن باستطاعتي الزامه بأن يكون فظاً . فهو لا يتمتع بحصانة دبلوماسية ، وكان من حقه ان يتحاشى الصدام مع «العم نيد» .

رئيس قسم الامن في استطنبول ، الذي كنا ندعوه «العمة جين» ، كان رجلا ذا فائدة معينة بالنسبة لي . فالقسم الاكبر من عملياتي السرية كانت تنفذ في المنطقة التي كان مسؤولا عنها . ولم يكن ابداً مصدر إزعاجٍ لي .

لقد كان هذا الرجل طيّب القلب ، مرحاً ، أكثر ما يهمه هو حشو كرشه ، وطبعاً ، النقود . بعد عدة اسابيع اعطيت ويتول صلاحيات بإقامة علاقات مع «العمة جين» ، ولم اتدخل ابداً الاّ في حالات الضرورة . كنت استضيفه مرّة او مرتين في العام . والواقع انه ضيف مثالي . فقد كان يأتي في سيارة الشرطة قبل الموعد المحدد بنصف ساعة ، يشرب كأسين او ثلاثة من الويسكي وعندما يبدأ الضيوف الآخرون بالتوافد ، كان يستأذن ويمضي .
لقد اكدت لي علاقاتي مع «العم نيد» و «العمة جين» وزملائنا الفكرة التي كونتها سابقاً ، وهي ان اجهزة الاستخبارات في الدول غير الكبرى تفتقد الى الوسائل والخبرة كي تستطيع ان تقوم بعمليات ناجحة . حتى توفيق ـ بيه ، الذي يعتبر من افضل ضباط المخابرات التركية ، فشل في العملية الوحيدة التي اسندتها اليه . ومع ذلك فقد اعتبرت الاستخبارات التركية واحدة من انجح اجهزة الخدمة السرّية .

لقد كان فرع «العمة جين» يقوم بمراقبة نشاط فرع اريانوبال ، الذي كان يقدم معلومات ضحلة ذات فائدة بسيطة جداً عن بلغاريا ، فالمعلومات كان مصدرها الاساسي المهربين ، ونادراً ، المهاجرين . ولكن اهمية هذا الفرع كانت تكمن في ان استطنبول كانت مركزاً نشطاً للترانزيت . والقسم الاكبر من الهاربين من الثورة التي اجتاحت البلقان واوروبا الشرقية كان يأتي الى استطنبول ، حيث كان قسم «العمة جين» يقوم بالتحقيق معهم

للحصول على ما لديهم من معلومات . وكان الاتراك يزودوننا ببعض هذه المعلومات ، ولكن نوعيتها بقيت سيئة . والسبب هو ان المهاجرين انفسهم لم يكونوا من ذوي الاطلاع كما ان المحققين لم تكن لديهم الخبرة الكافية لطرح الاسئلة الضرورية . ولم يسمح لنا الاتراك ، ابداً ، بالاتصال المباشر مع هؤلاء المهاجرين . وكنا نحن مجبرين ان نبحث عنهم بانفسنا مما تطلب منا هدر كثير من الوقت . كنا نحصل على القسم الاكبر من معلوماتنا عن دول البلقان من مواطني هذه الدول المقيمين في استطنبول . وكثير من هؤلاء المهاجرين ـ بلغار ، يوغسلاف ورومان ـ اكدوا انهم عند خروجهم من بلدانهم ، تركوا هناك شبكات تجسس ، وابدوا رغبة في وضعها تحت تصرفنا شرط تقديم الوسائل اللازمة لزجها في العمل . فقد اظهرت الحرب لكل اوروبا ، ان التجسس مصدر للحصول على النقود ، وفي تلك السنوات القاسية إذا لم يكن الشاري حذراً فإنه يمكن ان ينفق في استطنبول الملايين ثمناً لمعلومات صيغت في اقبية المدينة نفسها . وكان الامريكان هم السبب في ارتفاع سعر المعلومات . فقد اضعنا كثيراً من الوقت كي نستطيع ان نحدد قيمة العمل الذي اداه هذا او ذاك من عملائنا . ومع ذلك ، فإننا نادراً ما استطعنا ان نصل الى نتيجة صحيحة ، وانا متأكد ، انه بالرغم من كل حذرنا ، فإن بعض المهاجرين استطاعوا دائماً ان يخدعوننا . لقد جاءتني التعليمات من لندن تقول بانه علي الا أولي البلقان اهتماماً زائداً ، لأن مهمتي الاساسية يجب ان يكون هدفها الاتحاد السوفييتي . ويجب ان يتجلى هذا عملياً بارسال عملاء لفترة قصيرة الى الموانيء الروسية على البحر الاسود مستعملا لذلك السفن التجارية ، المتوجهة الى اوديسا ، نيكولايف ، نوفوراسيسك وغيرها . ولكنني ركزت اهتمامي بشكل اساسي على المنطقة الشرقية ، حيث ، حسب رأي الاستخبارات البريطانية ، تتوفر امكانية تغلغل الجواسيس داخل الحدود السوفييتية على جبهة واسعة . ولذلك فقد صرفت الجزء الاكبر من صيف ١٩٤٧ في عمليات الاستطلاع الشخصي

للمناطق الحدودية التي يمكن ان يدخل منها العملاء ، وتحديد الصعوبات التي يمكن ان تواجهنا ، والمساعدة التي يمكن ان يقدمها لنا الاتراك امّا الهدف الآخر من هذا الاستطلاع فكان إجراء عملية مسح طوبوغرافي للمنطقة الحدودية التركية التي كان الجيش الانكليزي بحاجة لها . كان ذلك قبل ان يتغلغل النفوذ الامريكي في تركيا وتجري لها عملية تصوير من الجو . اما في ذلك الوقت فقد كنا نجهل حالة طرق المواصلات على كل المساحة الواقعة الى الشرق من نهر الفرات .

كان المسح الطبوغرافي ذا اهمية خاصة للاستخبارات البريطانية لعدة اسباب . فإدارة التخطيط الحربي ، التي كانت تخطط لحرب شاملة ضد الاتحاد السوفييتي ، كانت مهتمة بوضع مخططات لمراكز المقاومة ، التي كان الجيش الاحمر ، حسب توقع الحكومة الانكليزية ، سيحتلها في المرحلة الاولى من الحرب . وكانت تركيا تلعب دوراً اساسياً في تلك الخطة . فجبال اناتولي كانت تخترقها مجموعة من الاحواض التي تتجه من الشرق الى الغرب . هذه الاحواض كانت مكانا مثاليا للانزالات الجوية السوفييتية . ولم يكن تنظيم نقاط دفاعية الى الشرق من انقرة مهمّاً ، من وجهة النظر الاستراتيجية . ولذلك فإن افضل ما كانت تطمح اليه الاستخبارات البريطانية هو إقامة نقاط استناد يمكن استخدامها لضرب خطوط المواصلات السوفييتية في هذه الاحواض . وقد كانت الجهات المسؤولة عن هذا التخطيط في الاستخبارات البريطانية بحاجة ماسة الى معلومات مفصلة عن الحدود التركية الشرقية ، فالمعلومات المتوفرة لديها غير كافية اطلاقاً لوضع مثل تلك الخطة . وكان من الضروري معرفة المساحة المزروعة ، والمساحة التي تغطيها الغابات ومصادر المياه والتموين وهلمجرا .

هذا الاستقصاء خلق مشاكل جدية ، بل مصيرية بالنسبة للاتراك . فقد كان يعني ، انه فور اندلاع الحرب فإن الامريكان والانكليز سوف

يتركون تركيا تواجه مصيرها منفردة . واعتقد انه لم يكن بالامكان اقناع الاتراك بالموافقة على هذه الخطة باي منطق كان . ففي انكلترا كانوا يعلمون جيداً ، انه فيما إذا وصلت اية معلومات للاتراك عن تلك الخطط ، فإن موجة من الاحتجاج سوف تجتاح البلاد بمختلف فئاتها ، وسوف تجبر القيادة السياسية هناك على التخلي عن اوهامها حيال نوايا الغرب وتبدأ بالبحث عن اسلوب ما للتقارب مع السوفييت . ولذلك فإن عملية التصوير الطوبوغرافي كان يجب ان تم بمنتهى السرية . ولحسن الحظ بقي الاتراك بعيدين عن هذا الجانب من اعمالي . وفيما لو اظهروا اي اهتمام به ، فإنه كان من الصعب ان يقتنعوا بحجتي الوحيدة ، وهي انني اهتم فقط بخطوط مواصلات جيوش الحلفاء في هجومهم على جورجيا السوفييتية .

لقد قررت انه في اي حال من الاحوال ، يترتب علي ان ابدأ من الصفر . كانت رحلتي الاستكشافية الاولى في صيف العام ١٩٤٧ ، تحضيراً مهماً لانجاز برنامج اوسع تقرر تنفيذه في العام ١٩٤٨ . وقد استطعت تخطي العثرة الاولى ، عندما استطعت ان احصل على موافقة «العم نيد» بزيارة ارضروم ، حيث توفيق ـ بيه يقود عمل جهاز الامن في المنطقة الشرقية كلها . لقد كان تنفيذ المهمة يتطلب استعمال سيارة للتنقل في تلك المناطق الجبلية الوعرة . ولحسن الحظ كان يوجد لدي شاحنة من طراز «دودج» وبعد ان قمت بزيارة مجاملة ودعت فيها «العم نيد» توجهت من انقرة باتجاه الشرق متجنباً الطريق الرئيسية المارة عبر القيصرية الى سيفاس . لقد مررت عبر بوغازكو ـ عاصمة الامبراطورية القديمة ، مما اعطى رحلتي طابعاً ثقافياً . بالاضافة الى ذلك ، استطعت ان ازور المنطقة الواقعة بين إزغات وسيفاس والتي قلما وطئتها قدما زائر .

إن الملاحظات التي سجلتها يمكن ان تصبح مادة رائعة لاحد «الكتب التركية» لروز ماكلي . فتركيا الواقعة الى الشرق من الفرات لا تزال في الطور

الاخير لخروجها من القرن التاسع عشر . والحقيقة ، ان قسما كبيراً من الارمن والاتراك قد تم القضاء عليه تماماً . ولكن لو القيت نظرة من هضاب بالانديكين عبر ارضروم باتجاه الحنجرة الجورجية ورقبة الجمل ، لاعتقدت انه بالامكان سماع صوت مدافع باسكيفيتش وهو يدحر عدوه الشرقي . ولكن كل هذا كان يجب ان يختفي . فالامريكان مع قواعدهم الصاروخية ومهابط طائرات «و ـ ٢» كانوا جاهزين لدخول البلاد .

اول عمل قمت به بعد وصولي الى ارضروم هو زيارة توفيق ـ بيه . وكان هذا رجلاً لطيفاً يبدو انه يهتم بعمله اكثر من «العم نيد» . لكن احاديثنا لم تشجعني على ان اتوقع النجاح في عملياتنا الهادفة الى ارسال جواسيس عبر الحدود السوفييتية الى جورجيا او ارمينيا . توفيق كان يعتمد على الجواسيس المؤقتين او المهربين المحترفين . وكان يبدو حزيناً جداً عندما يروي كيف يحرس الروس حدودهم بدقة متناهية ، وكيف ان محارسهم مزروعة بكثافة على طول الحدود وانه من المستحيل ان تستطيع النملة عبور حدودهم دون موافقتهم . لقد كشفت بطاقات توظيف فقره المدقع بالموارد . فلم يستطع ان يعرف سوى ارقام بعض الوحدات العسكرية السوفييتية الواقعة قرب الحدود مباشرة . فهو لم يقم باية محاولة للوصول الى العمق .

استطعت ان استنتج من حديثي مع توفيق : انه «للتغلغل في العمق» ، اي إرسال عملاء مقيمين الى يريفان وتبيليسي وموانيء البحر الاسود ، علي ان ابحث عن رجال من خارج المنطقة . فالسكان في هذه المنطقة كانوا على درجة من التأخر بحيث يستحيل استخدام احدهم للقيام باية مهمة من هذا النوع . لقد كان توفيق يعرف المنطقة بشكل ممتاز ، وكان من الغباء ان اعتقد انني استطيع ايجاد الرجال المناسبين حيث لم يستطع هو . وللحصول على عملاء لتنفيذ هذه المهمات كان عليّ ان ابحث بين المهاجرين الارمن والجورجيين . ولذلك فقد طلبت من لندن اعطاء تعليمات الى ممثليات الاستخبارات البريطانية في باريس وبيروت وواشنطن ، حيث توجد

تجمعات كبيرة لهؤلاء المهاجرين ، بالبحث عن الرجال المناسبين . ولكن ملاحظات توفيق لفتت انتباهي لفكرة من نوع آخر . فعندما وصف لي المنظر الخلاب ليريفان من الحدود التركية . قفزت الى ذهني فكرة ، ماذا لو كانت لندن تهتم ليس فقط بتصوير الحدود التركية السوفييتية وانما تهتم بتصوير المناطق الحدودية السوفييتية ايضا . وقد بدأت بوضع الافكار الاولى لتقرير حول هذه العملية ، قبل رحيلي من ارضروم . وقد اطلقت عليها اسم «سباي غلاس» . لم يكن لدي ادنى شك ، في ان خطتي ستلقى التأييد في اقل تعديل لكي يتسنى لخبراء الاستخبارات البريطانية تجربة اجهزة التصوير الحديثة التي يمتلكونها .

وعندما عدت الى استطنبول كنت راضياً عن نتائج رحلتي . ففيما يتعلق بقضية التغلغل داخل الحدود السوفييتية تحقق القليل القليل ، ولكن ظهرت لدي بعض الافكار التي من الممكن ان تشغل لندن لبعض الوقت . لقد كان عندي شك كبير في انها ، ستحقق نفعاً للقوات المسلحة البريطانية ، ولكنها اعطتني حجة جيدة لدراسة الحدود التركية بشكل وافٍ ودقيق .

كان لاقتراحاتي صدى حسنٌ في لندن . فقبل هذا بوقت بعيد ، عندما كنت اعمل في «التايمز» اكتسبت بعض الاساليب واشكال صياغة الافكار التي تساعد على وضعها في قالب تصبح فيه مقبولة حتى من قبل اعضاء «اتينيوم» .[1] الى باريس من لندن ارسل احد المفوضين لبحث القضية مع المنشيفيكي جوردانيا الذي كان في وقت ما رئيساً للجمهورية في اعقاب ثورة اكتوبر العظمى . كان جوردانيا زعيماً ، معترفاً به ، للمهاجرين الجورجيين ، وكان من الصعب على الاستخبارات البريطانية ان تجد متطوعاً جورجياً يتعامل معها دون موافقة جوردانيا . ولا شك في ان طلب الانكليز

(١) نادي ادبي في لندن .

وضعه في موقف حرج ، لأنه لم يكن لديه شك في كيفية استقبال مبعوثيه من قبل المواطنين في جورجيا السوفييتية .

لم تكن مهمتنا ان نعيد تشكيل قناعاته ، وقد قبلنا وعده لنا بالبحث عن الاشخاص المطلوبين مع الشكر . ولكن يبدو ان مفوضنا كانت لديه بعض المخاوف . ففي برقيته لي عن نتائج مهمته ، وصف المفوض لي هذا السياسي الهرم «بالتيس العجوز الغبي» وبالفعل ، كانت لنا صعوبات كثيرة معه .

حتى ذلك الوقت كنت قد كونت فكرة واضحة عن التحركات المقبلة . نبدأ بارسال الجواسيس لفترة قصيرة ، لعدة ايام ، او لاسبوع ، بهدف دراسة امكانيات العيش السري في جورجيا . هل تتوفر البيوت الآمنة لعملنا ؟ هل يمكننا شراء هوية شخصية او الحصول عليها باية طريقة اخرى ؟ كيف يمكن ايجاد وسيلة اتصال فعّالة ؟ وإذا امكن ان تسير هذه القضايا بشكل حسن يصبح من المفيد البدء في تشكيل شبكة دائمة ، وتحديد تنظيمها واساليب عملها على ضوء النتائج الاولية للعمليات المزمع تنفيذها .

كان من الصعب معرفة ما يجول في ذهن جوردانيا . ومن المعتقد انه لم يكن يرغب في تحميل رجاله اعباء نقل منشورات ، وهذا ، حتما ، لا يعجب وزارة الخارجية . وغدت علاقات جهاز الاستخبارات معه تقترب من مستوى الحديث الصيني حول كأس شاي . كان علينا ان نكون لبقين في علاقاتنا معه ، لاننا دون مساعدته لا نستطيع ان نحصل على العملاء المطلوبين ، كما انه دون مساعدتنا لا يستطيع ان يرسل رجاله الى جورجيا . وسرعان ما حفظ مفوض الاستخبارات البريطانية برنامج رحلات الطائرات من لندن الى باريس ، واصبح منظر باريس يثير في نفسه الغثيان . وهكذا يبدو ان تحقيق هذا البرنامج قد بدأ في وضع يسيطر فيه الشك المتبادل .

لقد اعترف الجميع بان خطتي «سباي غلاس» ذات «اهمية استثنائية» . وكان هذا مرضياً تماما بالنسبة لي : هذا يعني ، انني سوف اقضي

الجـزء الاكبر من الصيف القـادم في الطرف الثـاني من تركيـا ، عندمـا تنتقل البعثة الدبلوماسية من إنقرة الى استطنبول .

إن إقـرار خطتي كـان يعني ايضا ، انني استـطيـع الحصـول عـلى كـل الاجهزة التي احتاجها . واهم ما فيها ، طبعاً ، جهاز التصوير . وبما انني لا افهم كثيـراً في هذه الاجهـزة لذلـك لم استطع ان احـدد نـوع الجهـاز الـذي اريده . وقد اكتفيت بشرح المطلوب من هذا الجهـاز للقيام بـه تاركـاً الباقي للنـدن . وبالاضـافة الى ذلـك فقد طلبت سيـارتي جيب ، وبوصلة وبعض الاشياء الاخرى . التكنيكيون الذين يميلون دائـما الى الاعتقاد بـان مواهبهم لا تستغل بشكل كاف كانوا متحمسين جدا للعمل حتى انهم ارسلوا لي اشياء لم اطلبها ـ «للتجربة» ـ كما قـالوا . وطـوال الشتاء تكـدس في مستودعنـا عدد كبيرمن الصناديق . كان جهاز التصوير ملفتا للنظر . لقد اعتقدت انهم سوف يرسلون لي جهازا لا يمكن للروس ان يروه على مسافة مئة مـتر . ولكن عندما رأيته تخيلت انه بحجم الترامواي . انا شخصيا لم اكن مستعـداً للتنقل به في جبال أرارات والأدآغا . كان يرافقني مساعدي الشاب القـوي البنية ، وقد كان ملائماً تماماً للقيام بهذه المهمة .

خلال الشتاء كنت مجبراً ان اتعامل مع المعلومـات الشحيحة المـوجودة في استطنبول . وتبعاً لاوليات عملي كرجل مخابرات ، بدأت العمـل لتجنيد المواطنين الانكليز الموجـودين في الخارج . لا شـك انه كـان عملاً وضيعـاً . فقـد كان يـوجد بـين الانكليـز ، المـوجـودين في الخـارج ـ رجـال اعـمال ، صحفيـون وغـيرهم ـ من يـوافق عـلى ان يضـع رأسـه تحت المـطرقـة : ذوو الامكـانيات المحـدودة . اما ذوو الامكـانيـات الكبـيرة فلم يكن لـديهم اي استعـداد للتعامـل مع الاستخبـارات البريـطانية : لأنـه يـوجـد لـديهم مـا يفقـدون ، فلديهم التزامـات تجاه انفسهم ، تجـاه عائـلاتهم ، وايضـا تجـاه شركـائهم . لقد كـانوا دائـما يوافقـون عـلى اخبـارنـا بكـل «مـا يسمعـونـه مصـادفة» ، ولكن كـانت تنقصهم الوطنيـة كي يتفرغـوا للحصول لنـا عـلى

المعلومات اللازمة . وانا لم استطع ان اعرض عليهم اية منفعة مشابهة لتلك التي يحصلون عليها من شركات النفط او البناء . واكثر ما كان يثير اعصابي هو الحاح لندن في طلب معلومات عن الموانيء التركية ، مع العلم ان الشركات البريطانية هي التي شيّدتها .

إن عدم قدرتنا على تحقيق اية نجاحات في استطنبول زادت من اهمية خططنا فيما يتعلق بجورجيا السوفييتية . وقد لوحظ بعض التقدم بهذا الخصوص . والذي اثار عجبي . هو ان جوردانيا قد وفى بوعده ، وسرعان ما اخبروني ، بان اثنين من المرشحين يتم اعدادهما الآن في لندن . وكان علي ان اسوي المسألة مع الاتراك . وبعد عدة لقاءات مع «العم نيد» استطعنا ان نتفق على استقبال العملاء في استطنبول وإرسالهم الى ارضروم . وقد اصر «العم نيد» على ان يتولى توفيق تنفيذ العملية كاملة بعد وصول العميلين الى ارضروم . ولم استطع ان ازحزحه عن هذا الموقف . كانت حجته في الحفاظ على سلامتي . وهكذا كان علي الّا ارافق العميلين . ولكن بما انه كان مسموحاً لي بالتجول في كل المنطقة [illegible] ية بموجب عملية «سباي غلاس» ، فقد باتت حجته وهمية .

كان هدف الاتراك واضحاً كله فقد ارادوا الحصول على هذين العميلين في الثماني والاربعين ساعة الاخيرة وتزويدهم بمهمة خاصة بالاتراك . وهكذا كان على هذين المسكينين ان يعبرا الحدود مزودين بمهمات من جوردانيا ، والانكليز والاتراك . وكنت مجبراً على التراجع امام «العم نيد» عندما اصبحت متيقناً من انه سوف يفسد لي خطتي كلها إذا لم اتراجع في هذه القضية .

واخيرا اجتمعنا في ارضروم : توفيق ـ بيه ، وانا والجورجيان . وهذان الاخيران كان واعيين نشيطين ، ولكن ماضيهما لم يكن مشجعاً كثيراً على توقع نجاح العملية . لقد ولد الاثنان في باريس ولم يتخطيا سن العشرين بعد . وكانا يعرفان جورجيا من قصص المهاجرين . احدهما كانت

معنوياته في الحضيض . لقد اوضح توفيق ـ بيه على الخريطة ، انه ينوي ارسالهما الى منطقة بالقرب من القرية التركية بازوف ، الواقعة في مواجهة البلدة السوفييتية آخالتسيخي . وحددنا موعد التنفيذ آخذين بعين الاعتبار وضع القمر ، فحصنا الاجهزة والعتاد الذي زودتهما به لندن . وبدأت افكر ، بيد من سيقع الذهب ، الذي يحمله هذان المسكينان ، بيد الاتراك ام بيد الروس . وعندما اصبحت وتوفيقاً على انفراد عبرت له عن عدم موافقتي على ارسالهما الى تلك البلدة السوفييتية الواقعة على الافق ، ولكنه اصر على انه المكان المثالي للتسلل الى داخل الحدود السوفييتية . «ولكن بما انه مثالي ، ـ فلست مطمئناً ، ـ لأنه من المحتمل انهم يحرسونه جيّداً ؟» غير أنه هز كتفيه علامة على عدم مبالاته . ولم يكن باستطاعتي ان اناقشه : لأنني لا اعرف هذه المنطقة الحدودية . فقد يكون توفيق محقاً . في اية حال ، كل ما يهمني هو نجاح العملية .

وهكذا ، توجه هذان الجورجيان بصحبة ضابط تركي الى ارداغان ثم الى الشمال . بقي لي ان انتظر في ارضروم واقرض اظافري . لقد وجه توفيق احد رجاله لمراقبتي ، فكان يمشي ورائي على مسافة خمسين متراً تقريباً . كنت اشغل نفسي احيانا بمداعبته ، فعندما يصبح الجو حاراً كنت اذهب خارج المدينة واسير مسرعاً ، ثم اراقب ذلك التركي الذي يبدأ بنزع قبعته عن رأسه ، ثم يحمل ربطة عنقه ، واخيرا ينزع عنه الجاكيت .

كنت جالساً عند توفيق عندما وصلت البرقية التي ننتظرها من ارداغان : لقد تسلل العميلان عبر الحدود في الساعة كذا . بعد دقائق معدودة سمعت رشقة بندقية آلية ، واحد من العميلين سقط . والآخر رأيناه لآخر مرّة عندما كان يعدو مسرعاً في غابة اشجارها متباعدة ، مبتعداً عن الحدود التركية . ولم نسمع عنه اي شيء بعدها .

بعد ذلك شرعنا في عملية «سباي غلاس» . لقد بدأت بمساعدة الرائد فيفينري ، احد ضباط توفيق ، بدأنا من اقصى الطريق الشرقية

للخط ، عند ملتقى حدود الاتحاد السوفييتي وتركيا وايران ، وتحركنا بالتدريج نحو الغرب . كانت طريقنا بسيطة ، كل عدة اميال كنا نحدد وضعنا على الخريطة ثم تصوّر منطقة واسعة من الحدود السوفييتية . وفي الايام الاولى كنت انتظر في كل لحظة رشقة رشاش سوفييتي .

حتى توزلوجي كنا نسير بمحاذات حوض اراكس ، حيث تكثر طيور المستنقات . ارارات اصبح على يسارنا ، والاغيوز ، عن يميننا ، ثم صعدنا مع حوض ارباتشي بالقرب من العاصمة الارمينية القديمة آتي حتى وصلنا الى ديغورا الواقعة مقابل لينينكان . وهنا قررت أن الذهاب في إجازة واجب عليَّ وانه لا ضير على القسم الغربي ان ينتظر حتى العام القادم . وعدنا الى ارضروم ، وبتنا ليلة في قارص حيث الح علي فيفنر بالدعوة للذهاب الى بيت الدعارة هناك .

الفصل العاشر

عرين الاسد

لم استطع ان اتابع اتمام الجزء الثاني من عملية «سباي غلاس» . ففي صيف ١٩٤٩ وصلتني برقية من لندن ، حولت كل انتباهي الى قضايا اخرى . فقد اقترحوا عليّ منصب رئيس الاستخبارات البريطانية في الولايات المتحدة الامريكية ، كان عليَّ أن أقيم علاقات وطيدة مع وكالة المخابرات المركزية ومكتب التحقيقات الفيدرالي . ولا شك ان هناك سبباً مهماً وراء هذا التعيين . فالتعاون بين وكالة المخابرات المركزية والاستخبارات البريطانية على مستوى المنظمات المركزية وصل الى درجة من التقارب ، بل الالتحام ، بحيث كان يتوجب على اي موظف في الاستخبارات البريطانية ، ممن يتوقع ترشيحهم الى مناصب قيادية ، ان يطلع ، عن كثب ، على مجريات الامور في اجهزة الامن الامريكية . وقد احتجت الى نصف ساعة فقط كي اعطي موافقتي على هذا العرض .

لقد كنت حزيناً لمغادرتي استطنبول : تلك المدينة الرائعة ، بالاضافة الى ذلك كان عليّ ان اترك عملاً كنت قد انجزت نصفه . ولكن كانت لدي رغبة جامحة في الذهاب الى امريكا لسببين : أولاً ، لقد عدت مجدداً الى حيث تصاغ سياسات اجهزة الاستخبارات ، وثانيا ، هذه فرصة ثمينة للتعرف على اجهزة الاستخبارات الامريكية . فقد اصبح واضحاً لي منذ ذلك الوقت ، ان هذه الاجهزة لها اهمية اكثر بما لا يقاس من مثيلاتها في انكلترا . حتى انني لم انتظر موافقة موسكو لقبول الاقتراح ، والحوادث اللاحقة اثبتت صحة تصرفي . ان امكانياتي غير المحدودة بعد هذا التعيين لم

تكن موضع شك من قبل اي كان . كان علي ان اذهب الى لندن في نهاية شهر ايلول ، حيث اقضي شهراً كاملاً في دورة خاصة ، ثم اتوجه الى امريكا في نهاية تشرين اول . كان جاك ايستون يشغل منصب المراقب العام للعلاقات بين المخابرات البريطانية والامريكية في لندن ، ومنه بالذات اخذت القسم الاكبر من التعليمات المتعلقة بعملي الجديد . وبغض النظر عن بعض الاستثناءات ، فقد كانت معلوماته دقيقة جداً عن العلاقات بين اجهزة الخدمة السرية في كل من بريطانيا والولايات المتحدة . ولكن أفق هذه العلاقات كان واسعاً لدرجة ان مجموعة كبيرة من مسؤولينا كانت لهم مساهمة فيها بهذا الشكل او ذاك ، وكل منهم كانت له مصلحته الخاصة ، المتعلقة الى هذا الحد او ذاك بمسألة تعييني . لقد دعيت الى النوادي ، الى احاديث حول فنجان قهوة ، الى ولائم . . الخ . كانت الاحاديث تتناول مسائل مختلفة ، ولكن ما اجتمع عليه كل «اصدقائي» هو الرغبة في القيام برحلة الى امريكا على نفقة جهاز الاستخبارات . وانا من جهتي لم إخيب آمالهم . فكلما زاد عدد زواري الى واشنطن كلما تعرّفت على جواسيس اكثر ، وهذا في النهاية ، هو هدفي في الحياة .

لقد استطعت ان استنتج من احاديث ايستون ان طريقي الى واشنطن سيكون ممتعاً . ولكن قبل ذلك كان علي ان استلم العمل من بيتر دواير ، الذي قضى عدة سنوات يعمل في الولايات المتحدة . لقد كنت اعرف ان هذا الرجل ذو ذكاء حاد ، ولكني عرفت عنه الكثير فيما بعد . فخلال الحرب استطاع ان يقيم علاقات شخصية جداً ووثيقة مع كثير من مسؤولي مكتب التحقيقات الفيدرالي . وبفضل هذه العلاقات ، التي استمرت حتى بعد الحرب ، اعطت ممثلية الاستخبارات البريطانية في واشنطن افضلية في علاقاتها الى مكتب التحقيقات الفيدرالي على حساب (كما كان يفكر البعض) وكالة الاستخبارات المركزية . وبما ان مكتب التحقيقات الفيدرالي الخاضع لسياسة غوفير ، كان يتخذ مواقف صبيانية من كل القضايا التي تخص وكالة

هوفر

الاستخبارات المركزية ، فقد كان من الصعب على دواير ان يحافظ على علاقات متساوية مع المنظمتين دون ان يتهم من قبل اصدقائه القدامى بانه ذو وجهين .

وضرب هذا التوازن كان يعتبر من مهماتي الاولى . ذلك ان الاستخبارات البريطانية ووكالة الاستخبارات المركزية قد اتفقتا على التعاون في مجموعة من المسائل الكبرى والصلة اليومية التي كانت مع مكتب التحقيقات ويجب ان تكون منذ الآن مع وكالة الاستخبارات المركزية . ولم يكن من المعقول ، طبعاً ، أن نعلن ان الامر هكذا علناً . وهكذا كان علي ان اوطد علاقاتنا مع وكالة الاستخبارات المركزية واجعلها اضعف مع مكتب التحقيقات الفيدرالي ، بحيث ان هذا الاخير لا يلاحظ ذلك . ولم يطل بي الوقت كثيراً حتى ادركت عقم هذه المحاولة . فالفرصة الوحيدة المعقولة كانت في ان نتعاون مع وكالة الاستخبارات المركزية في المسائل ، ذات الاهتمام المشترك ، دون ان نعير رد الفعل ، الذي سيحدث عند موظفي غوفير اي اهتمام . لقد كان علي الّا ابدو ذكيا جدا ، لأن كشف الاوراق لم يكن في صالحي .

لقد اثارت قلقي بشكل جدي التعليمات ، التي أعطانيها موريس اولدفيلد ، والمتعلقة بمسائل الجاسوسية المضادة . حيث اخبرني عن حقيقة ذات اهمية من الدرجة الاولى . فقد توصلت التحريات الامريكية الانكليزية المشتركة ، بخصوص نشاط الجاسوسية السوفييتية المضادة ، الى الاستنتاج التالي : في عامي ١٩٤٤-١٩٤٥ وفي السفارة الانكليزية في واشنطن ، وكذلك في المركز النووي الامريكي في لوس ـ الاموس حدثت عملية تسرب معلومات . لم اكن اعلم اي شيء عن لوس ـ الاموس . ولكن بعد مراجعة سريعة لسجل اسماء العاملين في السفارة البريطانية في الوقت المذكور ، لم يبق اي شك في مصدر التسرب الموجود في السفارة البريطانية في واشنطن .

ولكن اضطرابي كان يسوده شعور بشيء من الارتياح . القضية ، هي ، انه منذ ان كنت في استطنبول طرح عليّ زميلي السوفييتي سؤالاً ، حرمني الهدوء لعدة اشهر . فقد قال ، الا استطيع ان اعرف بطريقة ما ، ما هي اجراءات الانكليز بخصوص قضية ما ، تتعلق بالسفارة البريطانية في واشنطن والتي استلم التحقيق فيها مكتب التحقيقات الفيدرالي . في ذلك الوقت لم استطع ان افعل شيئاً ، ولكن حديثي مع اولدفيلد قرّبني من جوهر القضية . وهذا ما اكده زميلي الروسي في لندن بعد عدة ايام . فالتحريات التي قام بها المركز لم تترك لديه شكاً في ان ، المعلومات من مكتب التحقيقات الفيدرالي ، التي تحدثنا عنها في استطنبول ، ومعلوماتي الجديدة ، كلها ، تخص قضية واحدة بعينها .

والدراسة الدقيقة التي اجريتها لوثائق مرحلة معيّنة قد اعادت لي الشعور بالهدوء . فطالما ان جهاز الاستخبارات البريطانية لا يستطيع شكليا ان يقوم باعمال الجاسوسية المضادة في الولايات المتحدة ، لأن مكتب التحقيقات يقوم بدراسة الوقائع التي يمكن ان توصله الى مصدر التسرّب . ولكن يجب القول ، ان مكتب التحقيقات قد قام بعمل ضخم كانت نتيجته اكواماً هائلة من الورق المليء بالسخافات . فلا الامريكان ولا الانكليزي توقعوا ان يكون احد الدبلوماسيين الكبار هو المعني بهذه القضية . فالتحقيق انحصر خارج الدائرة الدبلوماسية للسفارة ، وتركز حول عاملات التنظيف ، الحراس ، وصغار الموظفين . . . الخ . فالتحقيق مع احدى عاملات التنظيف ، التي كانت جدتها ليتوانية ، استغرق خمس عشر صفحة من الورق ، مليئة باسئلة تافهة تتعلق بعائلتها ، واصدقائها ، وحياتها الخاصة ، وعاداتها . وهذا ان دل على شيء انما يدل على الامكانيات الهائلة التي يمتلكها مكتب التحقيقات الفيدرالي . ولكنها كانت تذهب هدراً . لقد تكوّنت لديّ قناعة ، بانه لا توجد ضرورة تستدعي اتخاذ اجراءات فورية وحاسمة ، ولكن لابد من متابعة القضية . وفي اية حال كان لابد من اتخاذ

اجراءات حاسمة قبل مغادرتي واشنطن . فإلى اين سيقذفون بي بعدها ، العلم عند الله فقط . استدعاني الشيف قبل ان اغادر لندن . كان مزاجه رائعاً ، وبدأ يحدثني عن اعقد احداث علاقاتنا مع الامريكان ايام الحرب . ولكن هذه الاحاديث لم تكن للذكرى طبعاً . فقد اخبرني ان نبأ تعييني في واشنطن قد ازعج غوفير . لقد كنت اعتبر آنذاك رجلاً من الرجال المرموقين في جهاز الخدمة السرية الانكليزية . وكانوا ينظرون الى دواير (ولم يكونوا محقين ابداً) بشكل مغاير . كان غوفير يعتبر ، ان تعييني في واشنطن يعني ان المخابرات البريطانية ستضاعف من نشاطها في الولايات المتحدة . وقد ارسل له الشيف برقية يطمئنه فيها بان سياسة المخابرات البريطانية في الولايات المتحدة لن يطرأ عليها اي تغيير . فواجباتي كانت محصورة في تنسيق العلاقات بيننا وبين الاجهزة الامريكية . «وهذه ـ قال الشيف ـ رسالتي الرسمية الى غوفير . ـ وبعد صمت اضاف :ـ اما غير الرسمية فنتكلم عنها عند وايت» .

في نهاية شهر ايلول ، ابحرت على ظهر السفينة «اردونيا» . كانت الرحلة من النوع الذي لا ينسى . فأوّل ما طالعني على رصيف محطة واترلو ، شارب ضخم ، يبرز من خلفه رأس أوسبرت لانكستر . وهذا يعني انه سيكون لدي رفيق رائع في هذه الرحلة . وقبل ان نقلع ، دعوني الى التكلم بالهاتف . على الطرف الثاني كان جاك ايستون . اخبرني ، ان دواير قد قدم استقالته وابرق عن ذلك . اسباب الاستقالة لم تكن مفهومة بالنسبة لي . واخيراً أدخلوا الى غرفتي صندوق شمبانيا وكمية من البطاطا المحضرة مسبقاً ارسله لي احد اصدقائي الاغبياء . وبدأت اشعر ان اول عبور لي للاطلنطي سيكون ممتعاً .

لقد ارتكبت اوّل خطيئة فور وصولي الى المياه الاقليمية للولايات المتحدة . فقد جاء ممثل مكتب التحقيقات لاستقبالي . فقدمت له كأساً من الشمبانيا شربها بغير تلذذ . وعلمت بعد ذلك ان كل موظفي مكتب

التحقيقـات كانـوا يفتخرون بعـاداتهم واصلهم ، الذي يعـود في جذوره الى منشأ بسيط . فواحـد من كبار مـوظفي غوفـير ، الذي تعـرفت عليه ، كـان يؤكـد ، ان جده كـان صياداً في هـورس ـ كريـك بميسوري . ولـذلـك فهم يشربون الويسكي فقط ، امـا البيرة فهم يحتسـونها كمرطبـات . أمّا مـوظفو وكالة الاستخبارات المركزية فعلى العكس تماما . وهذه واحـدة من الدلائـل التي تشـير الى الاختلاف في وجهـات النظر الاجتـماعيـة لـدى المنـظمتـين ، وهذا ، غالبا ، ما يكون سبباً في الازمات التي تجتاح علاقاتهما احياناً .

لقـد سـاعـدني زميـلي من مكتب التحقيقـات في تجـاوز الشكليـات ووضعني في فنـدق يطل عـلى الحديقـة العامـة . وفي اليـوم الـذي استقليت القطار من محطة بنسلفانيا الى واشنطن . كانت قطرات الندى لا تزال عالقـة على الاعشاب والورود تذكرني بالربيع الرائع ، واحدة من الروائع القليلة في امريكا ، والذي لا يستطيع الامريكان ان يبالغوا فيها ، لأن المبالغة هنـا غير ممكنة .

قـابلني بيتر دوايـر ومع أول كـأس ويسكي شرح لي ، ان استقالتـه لا تتعلق بتعييني وانما لاسباب خاصة متعلقة به فقد اراد ان يستقر في كندا حيث تنتظره وظيفة محترمة في احدى المؤسسات الحكومية هناك . وخبر وصـولي الى واشنطن هو الـذي حدد مـوعد سفـره الى أتاوا . وهكـذا قامت بيننـا علاقـة ودية . وبكل سهولة ، وبأسلوب رجل يعرف عمله بدقة متناهيـة ، استطاع ان يضعني بالصورة فيما يتعلق بالسياسة الامريكية .

الكـلام عن عملي في الـولايات المتحـدة ، بـترتيب محـدد ، صعب ، كذلك الامـر بالنسبـة للقضايـا التي مارستهـا . لقد كـانت متشعبة ومعقـدة لـدرجـة انـه من الصعب جـدا الكـلام عنهـا او شرحهـا بكلمات بسيـطة . فعـلاقاتي مـع مكتب التحقيقات كـانت كفيلة بان تشغـل كل وقتي ، فيـما لو اعـطيتها الاهتـمام الـواجب . كـان ذلـك في زمن مـا يسمّى ، بـأوج تـطور المكـارثية . ففي ذلـك الوقت ظهـرت قضايـا هيس ، كوبلون ، فـوكس ،

كولد ، غرينكلاس والزوجين البطلين ، روزينبيرغ ، وغيرهم ممن بقوا غير معروفين حتى الآن . أمّا العلاقات مع وكالة المخابرات المركزية فكانت اوسع واشمل بدءاً من محاولة قلب نظام الحكم في احدى دول اوروبا الشرقية وانتهاء بمسائل مثل استخدام الوثائق الالمانية عن الجنرال فلا سوف . وفي اية قضية ، من القضايا التي ظهرت ، كان الاهتمام الاول يتركز حول منفعة طرف دون إزعاج الطرف الآخر . بالاضافة الى كل هذا كان عليّ ان اقيم علاقات مع جهاز الامن الكندي ومع بعض الشخصيات في وزارة الخارجية الكندية ، الذين يؤيدون فكرة منظمة الخدمة السرية الكندية المستقلة .

من أين ابدأ ؟

بما ان القصة تخص مكتب التحقيقات الفيدرالي بشكل اساسي ، لذلك ستكون البداية عن وكالة المخابرات المركزية . فعندما وصلت الى الولايات المتحدة كان الادميرال هيللينكوتير[1] على رأس هذه المنظمة ، بحاراً طيّباً ، سرعان ما حل مكانه الجنرال بيدل ـ سميث ، دون ان يترك اي اثر في تاريخ الاستخبارات الامريكية .

كانت علاقاتي مع إدارة العمليات الاستراتيجية وإدارة التنسيق السياسي ، أقوى منها مع المنظمات والفروع الاخرى . وبكلمات بسيطة ، فإن إدارة العمليات الاستراتيجية كانت تهتم بجمع المعلومات ، امّا إدارة التخطيط المرتبطة باسم ديك غيلمز[2] الذي خلف من فترة غير بعيدة الاميرال ريبورن في رئاسة وكالة الاستخبارات المركزية وسرعان ما دب الخلاف بينه وبين السينات (مجلس الشيوخ) .

---

(١) تأسست وكالة الاستخبارات المركزية في العام ١٩٤٧ على انقاض إدارة الخدمات الاستراتيجية ومجموعة الاستخبارات المركزية . هيللينوكوتير بقي على رأس وكالة الاستخبارات المركزية من العام ١٩٤٧ حتى العام ١٩٥٠ .

(٢) مدير سابق لوكالة الاستخبارات المركزية .

في ذلك الوقت كان جيم انكلتون القوة المحركة الاساسية في إدارة العمليات الاستراتيجية . وكان يخدم سابقاً في لندن وحاز على احترامي بموقفه الـرافض لمحاولات تشويـه وجه إدارة العمليـات الاستراتيجيـة الشابـة . كنت اتناول الفطور وإيّاه مرة كل اسبوع في فندق «هارفي» حيث كان يـبرهن ان التفاني في العمل لم يكن عيبه الوحيد . لقد كان هـذا الانسان أكـثر من رأيتُ نحولاً في حياتي ، وفي الوقت نفسه كان يحب الأكل لدرجـة مخيفة . مـا اسعد جيم ! وبعـد عام من (الـترويقات) مـع إينكلتون كنت مجبـراً على العمـل بنصيحـة احدى معارفي وبدأت عملية ريجيم ، تخلصت عـلى اثرهـا من اثني عشر كيلو غراماً بعد ثلاثة اشهر من بدئها .

لقـد كنت واثقاً من ان عـلاقاتنـا كانت قـائمة عـلى اسـاس صـداقـة متبادلة . ولكن لكل منا كانت دوافعه السرية الخاصة . كان اينكلتون يسعى لتحـويل مـركز ثقـل العلاقـات بين وكـالة الاستخبـارات المركـزيـة وجهـاز الاستخبارات البريطانية الى ممثلية وكالـة الاستخبارات المـركزيـة في لندن ، والتي تعتبر اكبر من ممثليتي بعشر مرات . ولو استطاع تحقيق ذلك ، لتسنى له امكـانية التـأثير ، الى الحـد الاقصى ، على الجهـاز المركـزي للاستخبـارات الـبريـطانيـة ، ولاستـطاع ان يحـد كثيـراً من تـدخـل جهـاز الاستخبـارات البريطانية في شؤونه الخاصة . من وجهة نظر المصلحـة الوطنيـة كان تصرفـه صحيحاً . فقد استطاع بعلاقته الوثيقة معي ، ان يضعني ، الى حد كبـير ، تحت مراقبته . وانا من جهتي تصرفت وكأنني وقعت في الفخ . وكلما ازدادت علاقتنا صراحة ، كلما ضعف تصوّره عن وجود نشاطـات سرّية . وكـان من الصعب ان نحـدد الرابـح في هذه اللعبـة المعقدة ، ولكن كـان لـدي امتيـاز كبير : فأنا كنت اعرف ماذا يقدّم لوكالة الاستخبارات المركزية ، اما هو فلم يكن يعرف ماذا اقدم لجهاز المخابرات الـبريطانيـة ، ولكن الطابـع الحقيقي لاهتماماتي بقي خافياً عليه .

مع ان نقاشنا كان يجتاح العالم كله ، لكنـه غالبـاً ما كـان يتوقف عـلى

فرنسا والمانيا (هذا إذا لم يبدأ منهما) لقد كان الامريكان في هلع حقيقي من الشيوعية في فرنسا ، وكانت تذهلني كمية الجرائد الفرنسية التي كان انكلتون يبتلعها يومياً . وفيما بعد ، عندما رفض بيدل ـ سميث الاقتراح الانكليزي باقتسام جزء بسيط من المعلومات عن الروس ، مع الفرنسيين ، اصبح واضحاً لي ، أن اهتمام انكلتون بفرنسا لم يكن هواية شخصية . لقد قال لي بيدل ـ سميث دون مواربة ، انه لا يستطيع ان يأتمن ايّ موظف فرنسي على اية معلومات سرّية . امّا خوف انكلتون من المانيا فكان اقل . فهذا البلد كان مهماً بالنسبة اليه كقاعدة للعمل ضد الاتحاد السوفييتي والدول الاشتراكية في اوروبا الشرقية . فقد استطاعت وكالة الاستخبارات المركزية ، دون عناء ، ان تضع تحت تصرفها القسم الذي يقوده الجنرال غيلين في المخابرات الالمانية ، والعامل ضد الاتحاد السوفييتي . انكلتون كان لا يألو جهداً في الدفاع عن منظمة غيلين هذه .

لقد دارت بيننا عدة مجادلات اخرى ، بشأن المانيا ، لأنه كانت لدى جهاز الاستخبارات البريطانية ووكالة الاستخبارات المركزية امكانية لتوسيع نشاطهما في الاراضي الالمانية المحتلة ، وانواع العمليات كافة ، بما فيها تلك ، التي تنظم ضد الحكام الالمان ، كان يقوم بتمويلها الالمان انفسهم على شكل تغطية نفقات الاحتلال . لقد وقعت بيننا عدة صدامات بشأن مختلف منظمات المهاجرين الروس ، مما سيأتي الكلام عنه لاحقاً.مثلا ، دار بيننا حديث عن منظمة اتحاد العمل الشعبي ، التي اكتسبت مؤخراً شهرة مخزية بعد قضية جير الدبروك ،[1] وعن القوميين الاوكرانيين التابعين لستيبان ناديرا ، محبوب الانكليز . فقد بذلت وكالة الاستخبارات المركزية الامريكية وجهاز الاستخبارات البريطانية جهوداً مكثفة على امل ان يستطيعا استخدام اكثر هذه التجمعات جدية لتحقيق اهداف ، كتلك التي

(١) مواطن انكليزي ، حكم في موسكو وفي العام ١٩٦٥ بسبب نشاطه التجسسي في الاتحاد السوفييتي .

استخدمت المخابرات البريطانية جوردانيا لتحقيقها . وبذل الانكليز جهوداً جبارة للحفاظ على نفوذهم داخل هذه التجمعات التي كانت تتعاون معهم ، إلا ان الامريكان استطاعوا سحب البساط تدريجياً من تحت اقدام الانكليز . ولكن جبروت الدولار كان هائلاً . فمثلا ، لاسباب مالية بحتة كانت المخابرات البريطانية مجبرة على التخلي للمخابرات المركزية عن قيادة العمل في منظمة اتحاد العمل الشعبي . مع العلم انه كانت للانكليز مصالح كبيرة في هذه المنظمة . شكلياً ، كان هذا اتفاقاً رسمياً بين الاجهزة المعنية في بريطانيا وامريكا ، ولكن قضية الانكليزي بروك اوضحت ، ان المخابرات البريطانية لم تتخل عن العمل داخل منظمة اتحاد العمل الشعبي من وراء ظهر الامريكان . هذه هي اخلاق منظمات الخدمات السرّية !

بالاضافة الى انكلتون ، كان لي زميل اخر في إدارة العمليات الاستراتيجية هو بيلي هارفي رئيس قسم الجاسوسية المضادة . وكان هذا يعمل سابقاً في مكتب التحقيقات الفيدرالي ، ولكن غوفر طرده بسبب السكر اثناء العمل . وعندما دعوته الى تناول الغذاء معي في البيت ، اكتشفت انه لم يتخل عن عادته تلك . فقد نام اثناء تناول القهوة وبقي جالساً هكذا ، يشخر بهدوء حتى الثانية عشر ليلاً . بعد ذلك اخذته زوجته وهي تقول له «هيا لنذهب» ، ايها الاب ، فقد آن ان تذهب الى فراشك» . قد اتهم بانني اخترت لهجة غير محترمة .

وانا موافق ، وكما سنرى لاحقاً ، فقد لعب هارفي معي نكتة خسيسة وانا لا احب ان اترك مثل هذه الاعمال دون عقاب . اعترف مسبقاً بأن لي موقف سلبي من هارفي ، ولكن للحقيقة فقط اود ان اضيف ، بأنه تعاون مع المخابرات البريطانية في بناء نفق برلين المشهور .[١]

وكما قلت سابقا ، بان إدارة التنسيق السياسي كانت تمارس الاعمال

---

(١) نفق ، تم تشييده في العام ١٩٥٥ في برلين من قبل الانكليز والامريكان للتنصت على خطوط الاتصال السوفييتي .

التخريبيّة على المستوى العالمي . ورئيس هذه الادارة كان فرانك ويزنير ، رجل صغير السن نسبياً لمثل هذا العمل ، ولكن الصلع بدأ يدب في رأسه كما انه بدأ يكوّن كرشاً محترماً .

كان رجلاً متعاليا ، متعجرفاً مما ترك انطباعاً سيّئاً في نفوس محدثيه . لقد رافقت البعثة التي ترأسها ويزنير الى لندن لبحث المسائل ذات الاهتمام المشترك بالنسبة للاستخبارات البريطانية والامريكية . وعندما وصلنا الى بحث مسائل السياسة العالمية قامت وزارة الخارجية بارسال ممثليها لمراقبة سير المحادثات . وفي احد اللقاءات ، التي كان فيها توني رومبالد مثلاً عن وزارة الخارجية ، اخذ وينزير يتوسع في مناقشة واحد من اكثر الموضوعات المحببة اليه : وجوب تغطية مصادر الاعتمادات السرّية ، المخصصة للمنظمات السرية الخارجية ، التي لنا مصلحة فيها . «من المهم جداً ـ قال باسلوبه المتعالي ـ تأمين الدعم الصريح للاشخاص ذوي الصلاحيات المعروفة للجميع بالتصرّف بالثروة الموجودة تحت تصرفهم» . بدأ رومبالد يكتب شيئاً ما . وعندما نظرت عبر كتفه رأيت : «الاشخاص ذوي الصلاحيات المعروفة للجميع والتي تحت تصرفها الثروة ، اناس اغنياء» .

كانت علاقاتي مع إدارة التنسيق السياسي نشطة اكثر من علاقاتي مع إدارة العمليات الاستراتيجية ؛ المهم لي في الاخيرة هو خططها . فور عودتي الى واشنطن بدأت الحكومتان الامريكية والبريطانية بتمويل عملية تهدف الى اسقاط النظام في احد الدول الاوروبية الشرقية وفصلها عن المعسكر الاشتراكي . وقد وقع الاختيار على البانيا لعدة اسباب . فهذه اضعف دولة اشتراكية و أصغرها تحدها من الجنوب اليونان ، التي تعتبر حتى ذلك الوقت في حالة حرب مع البانيا ولو شكليّاً ، وفي الوقت نفسه تربط اليونان علاقة تحالف مع كل من امريكا وبريطانيا . بدت البانيا وكأنها منعزلة ، وبالاضافة الى ذلك ، كان الوصول اليها من مالطا سهلاً من البحر والجو . وبسبب امكانية ظهور تعقيدات سياسية كبيرة قد تترتب على هذا المشروع فقد اصرّت

وزارة الخارجية البريطانية وزميلتها الامـريكية عـلى تحقيق مراقبـة قويـة لسير هذه العملية تشرفان عليها مباشرة . وقد القيت مسؤوليـة تنفيذ المهمـة على المخابرات البريطانية وإدارة التنسيق السياسي . كان للانكليـز والامريكـان علاقات مع مجموعات من المهاجرين الالبان ، لذلك فقد وجه الـطرفان كـل جهـودهما لتحقيق انقـلاب الثورة المضـادة . ارسـل الانكليـز الى مـالـطا ، باعتبارها قاعدة متقدمة للعملية ، بعض السفن الصغيرة ، الضرورية لنقـل العمـلاء . والامريكـان تعهّدوا بتقـديم الـدعم المـالي والمـادي ، وكـذلـك خصصوا مطار ويلز ـ فيلد في ليبيـا كقاعـدة في العمق للتموين . كـان الامر خافياً على الملك إدريس ، وكان لا يزال اميراً . وكانت مالطا تشكل المحـور الرئيسي في المجادلات الانكليزية الامريكية الطويلة اللاحقة . «من المفيد لنا ان نفكـر بعملية تخـريبيّة في مكـان ما ـ اعـترف لي وينزيـر يـومـا مـا ـ حيث نكتشف ، انه توجد جزيرة قريبة تابعة للانكليـز» . كانت المنـاقشات تـتركز على اختيار القيادة السياسيـة للثورة المضـادة . ولم يكن عصر دالاس قد حـل بعـد ، والولايـات المتحدة كـانت تخشى التحرك المكشـوف لدعم الانـظمـة الرجعيّة المتـطرفة . ولـذلك فـإن الحكومـة الامريكيـة كانت تسعى لاعـطاء الثورة المضادة صفة «ديمقراطية» . وقد سبقتنا الحكومـة الامريكيـة في تحقيق هذا الهدف ، حيث الزمت مجموعة من المهاجـرين الالبان في نيـويورك عـلى تشكيل لجنة سميت اللجنة الوطنية وعلى انتخاب المدعـو حسن دوستي رئيساً لها . كان دوستي هذا محامياً شابـاً ، وكان ، حسب معـطيات إدارة التنسيق السيـاسي ، يتمتع بسمعـة واسعة كـرجل ديمقـراطي ، ومـع كـل هـذا فلم استـطع ان اجد اي اثـر لهذه التـأكيدات . وبـالرغم من كـل محـاولاتي ، لم استطع ان احصل عـلى إذن بمقابلة دوستي . لقـد قيل لي ، ان إدارة التنسيق السيـاسي ، كانت تتعـامل معـه بكل لـطف ، حيث انه يخـاف كثيـراً . انـه مرشح ممتاز لدور القائد ! .

اذا كـانت اللجنة الـوطنية في نيـويورك مـدعاة شـك ، فـإن مـرشـح

الانكليز للزعامة افقدني رشدي . فقد كان هذا زعيماً لاحدى القبائل الصغيرة ويدعى عباس كوبي ، الصديق القديم لجوليان اميري . لم يكن لدي شك ، بانه قادر ، كأجداده ، على شن هجمات على قوافل غير مسلحة او ان يطلق الناس على جنود اتراك انهكهم الحر فجلسوا يتفيّؤون في احد الاكواخ . ولكنني لم اشارك الجنتلمان البريطاني دهشته لدى رؤية هذا الذي يمثل تلك القبيلة المتوحشة .

بكلمة اخرى ، إذا كان دوستي شخصاً ضعيفاً وشاباً غير ناضج ، فإن عباس كوبي عجوز خبيث . ويمكن فهم الجدل السفسطائي بين الانكليز والامريكان عن مواهب الرجلين ، فيما لو طرحنا الجوانب الاخرى للقضية واخذناها من جانب واحد ، هو المباراة التي ستقرر ، من ـ الانكليز ام الامريكان ـ سوف يقرر سياسة حكومة الثورة المضادة ، فيما إذا قامت في وقت ما . وعندما تعب الامريكان والانكليز من هذه السفسطائيات وبدؤوا يبحثون عن مساومة ، وجدوا ان الخلافات بين دوستي وكوبي قد وصلت الى نقطة اللارجوع . وانه من المستحيل ان يقبل احدهما ان يعمل تحت قيادة الآخر . كانت لجنة السياسة الخاصة التي تقود العمل اليومي للعملية ، قد اجتمعت في واشنطن . وكانت تتألف من اربعة اشخاص ، ممثلين عن وزارة الخارجية الامريكية ووزارة الخارجية البريطانية ولجنة التنسيق السياسي وعن الاستخبارات البريطانية . كان بوب جويس عن وزارة الخارجية الامريكية ، وإرل جوليكو عن الخارجية البريطانية ، وفرانك ليندسي عن لجنة التنسيق السياسي وانا عن المخابرات البريطانية . ولا شك ان لجنة بهذه التركيبة لا يمكن ان يسود اجتماعاتها جوّ رسمي . ففي اول اجتماع لنا ، قال ليندسي جملة معبّرة ، بان الالباني الوحيد الذي رآه في حياته كان معلقاً على الواح خشبية متوازية . وحتى في اكثر الاوقات جدّية فاننا ، نحن الانكلو ـ ساكسونيون ، لم ننس ابداً ، ان عملاءنا قد نزلوا عن الشجر[1] منذ زمن

(١) اشارة الى تخلفهم ـ المعرب

ليس بعيداً . ومع انني اشرت ، الى ان لجنة السياسة الخاصة كانت تقود العمل اليومي للعملية ، الا اننا لم نستطع ان نكون احراراً في اي تصرف من تصرفاتنا . فزعمائي في لندن لم يسمحوا لي ان انسى التزامات المخابرات البريطانية بخصوص عباس كوبي ، علماً بانه خلف ظهورهم كانت دائما معلقة عبارة بيفين «انا لا اتحمل هذا» ، التي كان يستعملها دائما عندما كان يريد ان يرفض ، قطعيّاً ، امراً ما . ولا شك ، ان فرانك ليندسي ، كان مقيّداً بارتباطات مماثلة .

ومن المدهش فعلا ، ان العملية بدأت في مثل هذه الظروف . اخيراً تمكنت المخابرات البريطانية من انزال مجموعة من العملاء على الشاطيء الالباني بهدف التسلل الى عمق البلاد ، لجمع المعطيات الضرورية ، والتحرك نحو الجنوب ، ثم الوصول الى اليونان . لقد اعتقد الانكليز ، ان المعلومات التي سيحصل عليها هؤلاء العملاء في طريقهم سوف تساعدهم على تحقيق خطط اشمل . العملية ، كان مكتوباً لها الفشل . فقد استطاع عملاء الاستخبارات البريطانية ان يجمعوا بعض المعطيات ، من المدن فقط . ولكن المدن كانت في قبضة الحكام الالبان . ولذلك ، فقد ترتب على هؤلاء العملاء ان يعيشوا متخفّين في المدن ، حيث كان بامكانهم ان يقدموا مساعدة ما ، فيما إذا اجتاحت البلاد انتفاضة شاملة . وقد يكون ، الامل في قيام مثل هذه الانتفاضة هو الاساس الكامن في قيام مغامرتنا تلك . تماما ، كما اعتقد البعض فيما بعد (مع انه كان عليهم ان يكونوا اكثر ذكاء) ، بان انزال المرتزقة في خليج كوتشينوس سوف يشعل الحريق في كوبا .

ومع كل هذا فقد استطاع بعض اولئك العملاء ان يدخلوا الاراضي اليونانية ، وقد نجوا باعجوبة من رصاص قوى الامن . كانت المعلومات ، التي جاؤوا بها ، سلبية كلّها في اقل تقدير وكان من الثابت انهم لم يلقوا استقبالاً مرضياً في اي مكان على الارض الالبانية .

مع الزمن اهملت العملية تماما وأصبحت في عالم النسيان ، دون ان

تترك اي اثر على الوضع في البانيا . ومن المحتمل ، ان فشل العملية كان مفيداً بالنسبة للانكليز والامريكان . فنجاح العملية كان سيخلق لهم صعوبات جمة مع الحكام الجدد ، هذا اذا لم نأخذ بعين الاعتبار الصعوبات الجدّية التي كانت ستقوم مع اليونان ويوغسلافيا ، ومن المحتمل ايضا ، مع ايطاليا .

لكن اصطدام المصالح السياسية اخل بالخطط الانكليزية ـ الامريكية الاكثر اهمية ، من المغامرة الالبانية ، مثلا ، خطط التغلغل داخل الاتحاد السوفييتي وممارسة النشاط التخريبي هناك . فقد كانت لكل من وكالة المخابرات المركزية والمخابرات البريطانية صنائعهما من العملاء المتصارعين في دول بحر البلطيق . وكنت اراقب سقوط هذه الجماعات واحدة بعد اخرى ، بارتياح زائد . وفي بعض الحالات وصلت الامور الى حد الفضيحة ، مما اضطر مدير شؤون اوروبا الشمالية في المخابرات البريطانية غاري كارّ الى التوجه الى واشنطن في محاولة لتفادي وقوع الفضيحة . ولكن مهمته فشلت : كارّ وزملائه المجتمعين معه بدؤوا يتهمون بعضهم ـ وبحق ـ بالخيانة .

كانت الخلافات بشأن اوكرانيا اكثر حدة وغير قابلة للحل . فبريطانيا كانت لها علاقات مع ستيبان بانديرا قبل الحرب ، وقد تطوّرت هذه العلاقات بعد الحرب ايضاً ، علماً بأن بانديرا كان ذو ميول فاشية . ولكن الطامة الكبرى كانت في ، انه لم يتم التأكد بشكل جدي من تأكيدات بانديرا في وجود مجموعة كبيرة من مؤيديه داخل الاتحاد السوفييتي ، بل كانت المعطيات كلها سلبية . مع العلم ان بانديرا كان لعبة مهذبة جداً طيلة وجوده في الهجرة . توجهت اوّل مجموعة من العملاء وقد زودها الانكليز باجهزة ارسال وغيرها من وسائل الاتصال السرية ، توجهت الى اوكرانيا في العام ١٩٤٩ ثم اختفت . وفي العام التالي تم ارسال مجموعتين اخريين ، ولم يكن مصيرهما احسن من السابقة . في الوقت نفسه بدأ الامريكيون يشكون في

المنفعة التي يمكن ان يقدمها باندیرا للغرب .

في العام ١٩٥٠ اصبح هجوم الامريكيين على التعاون القائم بين الانكليز وباندیرا حاداً جداً ، وقد اضعت كثيراً من الوقت على مراسلات واشنطن ولندن بخصوص اهمية مختلف مجموعات المهاجرين . فقد وضعت وكالة الاستخبارات المركزية ثلاث اعتراضات جدية على باندیرا كحليف . فتطرفه القومي ذو الصبغة الفاشية يعتبر عقبة امام الغرب في استخدام اشخاص من قوميات اخرى ، كالروس مثلا ، للقيام باعمال تخريبية داخل الاتحاد السوفييتي . يعتبر باندیرا من المهاجرين القدماء وليست له علاقات مع المهاجرين الجدد ، «الاكثر واقعية» والذين تمكن الامريكيون من كسبهم الى جانبهم . واخيرا ، اتهموه بكل صراحة بمعاداة امريكا . وقد رفض الامريكيون رفضا قاطعاً حجة الانكليز في انهم يستخدمون باندیرا لجمع المعلومات فقط وان هذا الاستخدام ليس له اية اهمية سياسية . رد الامريكيون على ذلك ، انهم ، كيف ما كان طابع العلاقات بين المخابرات البريطانية وباندیرا ، فان وجود مثل هذه العلاقات بحد ذاته كفيل بان يرفع من اسهم باندیرا في اوكرانيا . وعبر الامريكيون عن تخوفهم ، من ان اية تقوية لمؤيدي باندیرا من شأنها ان تخلق انقساماً خطراً في «حركة المقاومة» في اوكرانيا ، التي يتعامل الامريكيون معها .

لقد كان ضعف الموقف الامريكي يكمن في انهم اقتصروا على الكلام فقط . ولكن نتائج اعمال القسم «الاكثر واقعية» من المهاجرين «وحركة المقاومة» في اوكرانيا لم تكن مبكية اقل من نتائج تعاون الانكليز مع باندیرا . الحقيقة ، ان وكالة الاستخبارات المركزية اعلنت انها استقبلت في الاعوام ١٩٤٩-١٩٥٠ بعض الاشخاص الآتين من اوكرانيا ، ولكن النوعية السيئة «لمعلوماتهم» كانت تدل على انهم ليسوا اكثر من مشردين ، مرّوا في بلد غريب .

في العام ١٩٥١ ، وبعد عدة سنوات من العمل المضني ، كانت وكالة

الاستخبارات المركزية لا تزال تأمل في ان تستطيع ارسال ممثلها «السياسي» الى اوكرانيا مع ثلاثة معاونين لاقامة علاقات مع «حركة المقاومة» . حتى انها اختارت مجموعة ثانية مؤلفة من اربعة اشخاص ، لترسلها فيما اذا اختفت المجموعة الاولى دون اثر .

اقترح الامريكيون عقد مؤتمر موسع مع المخابرات البريطانية ، لبحث الخلافات القائمة بشأن اوكرانيا . وقد عقد هذا المؤتمر في لندن في العام ١٩٥١ . ومما اثار دهشتي ، ان الانكليز اتخذوا موقفاً صلباً ورفضوا قذف بانديرا من فوق سطح السفينة . وكل ما امكن تحقيقه في هذا المؤتمر هو الاتفاق على تأجيل بحث القضية حتى الفصل القادم عندما تكون الظروف ملائمة للانزال المظلي . آملين ، انه حتى ذلك الوقت تكون قد تجمعت لدى الطرفين وقائع جديدة . خلال شهر واحد قذف الانكليز بثلاث مجموعات وكل مجموعة مؤلفة من ستة اشخاص . كانت الطائرات تنطلق من مطار في قبرص . وتم قذف مجموعة في منتصف الطريق بين لفوف وتير ـ نوبول ، الثانية ، ليس بعيدا عن مرتفعات بروث ، بالقرب من كولوما والثالثة ، على الحدود البولونية ، بالقرب من منابع نهر سانا . ولتفادي الاشكالات في المكان والزمان ، كان الانكليز والامريكيون يتبادلون المعلومات الدقيقة عن زمن العملية التي ينوي الطرف المعني تنفيذها ومكانها . ولا اعرف مصير هذه المجموعات ، ولكن ليس صعباً ان نتوقع ذلك .

بعد ثمان سنوات قرأت عن مقتل بانديرا في ميونيخ في منطقة الاحتلال الامريكية في المانيا . فبالرغم من الدفاع الشجاع للانكليز عنه ، كانت الكلمة الاخيرة في هذه القضية لوكالة المخابرات المركزية .

الفصل الحادي عشر

الصاعقة

عندما وصلت واشنطن ، كان مكتب التحقيقات الفيدرالي يتخبط في وضع لا يحسد عليه . وسبب هذا الارتباك امرأة تدعى جوديت كابلون ، امرأةشابة وموهوبة ، تعمل في وزارة العدل ، تجمع ضدها ما يكفي من المعلومات ، التي تم الحصول عليها بشكل غير قانوني ، وذلك بمراقبة مكالماتها الهاتفية ، فاتخذ غوفير كل الاجراءات الضرورية ، وتم اعتقال كوبلون . فقد داهموها في نفس اللحظة التي كانت تسلم فيها الوثائق الى الشخص الذي تتعامل معه ، وبدا ان المسألة منتهية . ولكن يبدو ان السرعة قد انست مكتب التحقيقات الحصول على امر اعتقال كابلون وهكذا اصبح الاعتقال غير قانوني . فقد كان من حق مكتب التحقيقات ان يعتقل دون امر اعتقال فقط في حال ، وجود معطيات اكيدة على ان الشخص المشكوك فيه يحاول الاختفاء فوراً . وبما انه تم توقيف كابلون في شارع نيويورك ، عندما كانت تسير من محطة قطار مكشوفة ، فإنه كان من الصعب اتهامها بمحاولة الهرب .

وخلال المحاكمة ثبتت عدم شرعية الاعتقال . ولكن الاسوأ بالنسبة لمكتب التحقيقات كان فيما بعد . فبالرغم من انه تم اعتقال كابلون بالجرم المشهود ، الّا انها قررت المقاومة حتى النهاية . استغنت كابلون عن خدمات محاميها الاول بحجة ان موقفه كان مساوماً جداً فيما يتعلق بالاتهام الموجة اليها . ويبدو انه لم يحاول اثبات براءة المتهمة وانما تخفيف الجرم . وكابلون لم توافق على ذلك . وبعد ان وكلت المحامي الثاني ، تحولت الى الهجوم

وبدأت تثير حفيظة الشهود من مكتب التحقيقات . حيث وضعتهم في وضع كانوا مجبرين فيه على الاعتراف ليس فقط بالتنصت على مكالماتها الهاتفية وانما بمراقبة المكالمات الهاتفية لمقر الامم المتحدة ايضا . وقد اخذت المحاكمة تتحوّل الى فضيحة سياسية كبرى ، قد تؤلب الرأي العام الامريكي ضد مكتب التحقيقات ، مما اضطر غوفير الى سحب اتهاماته ضد كابلون . وكان غوفير فليتشر ، الشاهد الرئيسي لمكتب التحقيقات وضحية تلك المحاكمة . فقد طرد من مكتب التحقيقات واطلق سراح كابلون . كان ذلك انتصاراً كبيراً لتلك المرأة الشجاعة . ومنذ ذلك الوقت ، لم يذكر اسمها مرّة في وزارة العدل الاّ وكان مقروناً بعبارات مهينة .

لم يكن فشل مكتب التحقيقات الفيدرالي في قضية كابلون استثناء . حتى انه لا يمكن وصفه بانه غير عادي . فانا لا استطيع ان اقول اي شيء عن محاربة مكتب التحقيقات للجريمة في الولايات المتحدة . فلم تكن لدي اية فكرة عن هذا الجانب من اعماله . ولكنني كنت قريبا جدا من عمله التجسسي المضاد ، وفي هذا المجال كان فشله ذريعاً . فلم يستطع غوفير ان يلقي القبض على ماكلين وبيرجيس ، ولم يستطع ان يلقي القبض على فوكس ايضاً ، ولو لم يختطفه الانكليز ويستطيعوا ان يلعبوا بعواطفه بذكاء ، لما استطاع غوفير ان يلقي القبض على الآخرين ؛ وهو لم يستطع ان يكشف ابيل ، وهو لم يستطع ان يكشفني انا . فإذا كان هناك من هو ذو سمعة منحطة ، فهو غوفير . ولكنه كان سياسياً كبيراً . فاساليبه الفظة ورغبته الجارفة للانفراد بالسلطة لم تكن سلاحاً نافعاً في اجهزة الاستخبارات اللعينة . ولكن هذه الاساليب فعلت فعلها في مجال آخر . فقد اعطته امكانية جمع كمية هائلة من المعلومات عن الملايين من ابناء وطنه . وهذا ما درّ عليه مردوداً ضخماً من جيوب الامريكيين دافعي الضرائب . فقلائل هم الذين لايملكون اسراراً خاصة لا يودون إذاعتها . فالدوسيهات تثبت ان هناك كثيراً من اعضاء الكونغرس له ماضياً ، من الافضل طيه تماماً . ومن

هنا تنبع اهمية تلك الوثائق ، التي يمتلكها غوفير . فواقع وجود ارشيف هائل لدى مكتب التحقيقات الفيدرالي ، يكفي وحده لعدم التعرض لامبراطورية غوفير تلك .

انا اتكلم هنا عن عصر مكارثي . ومن الطبيعي ان نعتقد ، ان غوفير استاء من ان السيناتور قد خرق احتكاره هـذا ، فقد اكـد السيناتـور انه هـو بمفـرده كشف تغلغلاً عميقـاً للشيوعيـين في كل اجهـزة السلطة في الولايـات المتحدة . ولكن شيئاً من هذا لم يحدث ، فغـوفير كـان يعلم حق العلم ، انه بمجرد ان يفتح فمـه ستسقط كبريـاء مكارثي في الـوحل وتختفي الى الابـد . ولكن لماذا عليه ان يفعـل هذا ؟ فـالضجة التي خلقهـا مكارثي عـلى مستوى البلاد كلها ، لم تدع مجالاً لاي عضو من اعضاء الكـونغرس ان يـرفع صـوته ضد زيادة مخصصات مكتب التحقيقات الفيدرالي . ولكن ماهو رأي غوفـير بمكارثي ، هذا ما اصبح واضحاً في اول لقاء لي معه ، عندمـا سألتـه مباشرة عن ذلك . بلع غوفير ريقه وقال : «غالبا ما أقابل جو في حقل سباق الخيل ، ولكنه حتى الآن لم يحزر اي من الجياد سينتصر» .

اول بيت سكنته في واشنطن كان يقع مقابل بـين ميكي ليد ، معـاون مـدير مكتب التحقيقـات الفيدرالي لشؤون الأمن . ولقـد اعتقـدت انـه من المفيد ان اعيش لفترة ما بالقرب من عرين الاسد ، ولكن لفترة محددة فقط . لم يكن البيت واسعاً ، ولذلك بدأت ابحث عن شقة اوسع في مكان بعيد عن هذا الجار الخطير . واخيرا وجدت شقة على مسافة نصف ميل من هذا المكان في نيبراسكا ـ افينيو .

كانت علاقاتي مع ليد وثيقة وطيّبة ، كنا نتقابل عدة مرّات في الاسبوع في مكتبـه او في بيتـه . وفي المـاضي كـان ليـد واحـدا من جـلادي غـوفـير في شيكاغو ، «الشاب ، الذي دائما في المقدمـة» عندمـا تدعـو الحاجـة لاطلاق النار . وهو حتى الآن يشبه الجلادين . قصـير القامـة ، ممتلىء ، لقـد كان ، كما يبدو ، قوياً كالمهر ، قبل ان يصبح ذا كرش مهول ، وجهـه ناصـح ، ولم

تكن لـديـه ايـة اهتـامـات ثقـافيـة . كـانت هـوايتـه المفضلة هي اهـداء الاسطوانات للنساء ، اللواتي يزرنه في بيته لاول مـرّة . وكان يتصف ببعض الصفـات «الصبيانيـة» الاخرى ، بمـا في ذلك قسـوته الـلاواعية . وبكلمـة موضوعية جداً ، كان هذا الرجل مخيفاً ، ومع ذلك فقد بدأت أعجب به .

لم يضع ليد كثيـراً من الوقت ، حتى اعلن لي صراحـة ، انه لا يـوافق على علاقاتي الوثيقة مع وكالة الاستخبارات المركزية . فالروح اللاوطنية لهذه المؤسسة خلقت عنده ، على ما يبدو ، شعوراً بالقرف منها . «ماذا يتعلمـون هناك ، في وكالـة الاستخبارات المـركزيـة ؟ـ سألني في احـدى الامسيات ثم اجاب بنفسه : كيف تستعمـل السكين والشـوكة وكيف تـتزوج من الفتيات الـثريـات» . وكـان لـه ايضـا مـوقف معـاد من العـادات الارستقـراطيـة في الاسطول الامريكي . ولكن ، كما توقعت منذ ان كنت في لندن ، استطعت ان اسوّي علاقاتي معه ، بحيث لم اظهـر نفسي ذكياً اكـثر من اللازم وتحملت سخرياته الفظة بحق «اصـدقائي» في وكـالة الاستخبـارات المركـزية . لقـد اكتشفت الى اي حد يمكن لهذا الانسان ان يكون فـظاً ، ولحسن الحظ ، على ابواب سفر بيتر دواير الى اتاوا حدث انني وممثل فرع امن الـدولة في واشنـطن جوفري باترسون استلمنا تعليـمات من لندن في وقت واحـد لبحث مسألـة ما مع مكتب التحقيقات الفيدرالي ، وكان باترسون قد حاول ان ينهي الموضوع ولكنه فشل في تحقيق ذلك . فقد قالوا لـه ، إنه لا شـأن للندن بهـذا الامر . وعندما وصلت مع دواير وطرحنا السؤال نفسه ، قابلنا ليد بوجه غضـوب . «هكذا إذاً ، انظروا الى هذه اللعبة ، قـال هو ،بعد ان وضع سيكاره وصب عليه سائـلا ما : يـأتي جوفـري وادله عـلى المنعطف الـواقع خـارج الباب . ولكن ، مـاذا يحـدث بعـد ذلـك ؟ تـأتيـاني انتـما الاثنـان وتحـاولان مـرّة اخـرى . . . » بعـد ذلـك حلت عشر دقـائق من الشتـائم التي جـعلت احتجاجاتنا فاقدة كل قوة . كان غضبـه عنيفاً ، لـدرجة ان اهميـة القضية لا تتساوى معه . كان غضبه هذا ناتجاً عن اعتقاده باننا جئنا نناور . لقـد كانت

احدى مهماته هي الوقيعة بين فرع امن الدولة وجهاز المخابرات الانكليـزيين واستعـمال تلك الخلافـات لمصلحته ، ولكن الـذي حصـل انهما اتحـدا الآن ضده . وبالمناسبة ، فقد اتصل بي في ذلك المساء ودعاني الى كأس ويسكي . وجلسنـا حتى وقت متأخـر من الليل . ولكننـا لم نأتِ عـلى ذكر ذلـك اللقـاء الصباحي المقيت .

كـانت المعلومـات لا تـزال تصلنـا عن مصـدر غـير معـروف لتسرب المعلومات من السفارة البريطانية في واشنطن . بالاضافـة الى دواير ، الـذي سرعـان ماسـافر ، كـان هنـاك ثـلاثـة اشخاص فقط يحق لهم الاطلاع على تلك المواد : باترسون ، انا وبوبي ماكينزي ، ضابط امن السفارة ، وهو زميل قديم من ايام الفرع رقم خمسة . وفي مكتب التحقيقات الفيـدرالي كان يتعامل مع تلك المواد ليد وليشمان ، الذي كان عنـدها يشغـل منصب رئيس فرع معاداة الشيوعية ، وبوب ليمفير ، شاب غبي ظريف من اوهايو ، كـان مسؤولاً عن تحليل المواد على الطريقة الامريكية . والاستخبارات البريطانيـة كانت لاتزال بعيدة عن تحديد مصدر تسرب المعلومـات الموجـودة في السفارة الانكليـزية ، ولكن خـلال شتاء ١٩٤٩ـ١٩٥٠ بـدأت الحلقة تضيق حـول المصـدر في لوس ـ الامـوس . بقي ان يقع الاختيـار على احـد ابرز عـالمين للذرة ـ الدكتور بيرلوس والـدكتور فـوكس . وهنا قـدم دواير آخـر خدمـاته للاستخبارات الـبريطانيـة : فقد اعـطى تحليلا رائعـاً لكلٍ مـا يتعلق بماضي هذين العالمين ، وتوصل الى نتيجة يرفض فيها رفضاً قاطعاً ان يكون بيرلوس من المشكوك فيهم . إذن ، كل التهم تركزت الآن حول فوكس ، الذي كان مواطناً انكليزياً ذا اصل الماني .

وهنا برزت الصعوبات العـادية المتعلقـة بالـبراهين ، التي لم تكن لهـا صفـة قانـونية ، ولكن فـوكس ، بخلاف جـوديت كابلون ، اعـطى بنفسه الدلائل المطلوبة لإدانته مباشرة . فبعد ان اثبت دواير ان فـوكس هو مصـدر تسرب المعلومات في لوس ـ الاموس ، تم اعتقاله مباشرة حيث كان يعمل في

بريطانيا ، واحيل للتحقيق في فرع امن الدولة حيث بدأ جون سكاردون التحقيق معه . وقد استطاع سكاردون ان يحوز على ثقة فوكس لدرجة ان هذا الاخير اعترف صراحة بمشاركته بهذا العمل .

ووقع رجل آخر ضحية لقضية فوكس . مع ان غوفير لم يفعل اي شيء في كشف فوكس الّا انه حاول ان يحصل لنفسه على الحد الاقصى من الرأسمال السياسي لهذه القضية . ومن اجل هذا كان عليه ان يثبت ، انه توجد لديه المواد نفسها ، وتلك المواد يمكن الحصول عليها فقط ، من التحقيق مع المتهم الموجود رهن الاعتقال . وقد اعلن غوفير عن عزمه على ارسال ليشمان ليحقق مع فوكس في زنزانته . بعد ذلك وصلتني وباترسون تعليمات من لندن لإعلام غوفير ، بان ذلك لا يمكن ان يكون . ففوكس ينتظر المحاكمة ، وحسب القانون لا يسمح لاية جهة ان تحقق معه ، فكيف بممثلي دولة اجنبية . غضب غوفير كثيراً ولم يشأ ان يحترم القوانين البريطانية . ولا ان يتخلى عن عزمه على التحقيق مع فوكس ، وتم ارسال ليشمان الى لندن بتعليمات قطعية : او مقابلة فوكس ، او . . النتيجة كانت «او . . » وعندما سمعت عن عودة ليشمان جئت الى مكتبه الفخم ، المغطى بالسجاد ولكن في كرسيه كان يجلس رجل آخر . اما ليشمان نفسه فقد وجدته بعد عدة ابواب في غرفة صغيرة ، يتقاسمها مع اربعة من العملاء الجدد . لقد اصبح المسكين الرجل الاخير . نظر الي ، وكأنني المذنب فيما حدث له . هكذا كان الوضع في ظل غوفير .

في صيف العام ١٩٥٠ استلمت رسالة من غاي بيرجيس . «لدي مفاجأة لك ، فقد تم للتو تعييني في واشنطن» . وقد طلب ان يقيم عندي عدة ايام الى ان يتسنى له ايجاد شقة . وهذه كانت مشكلة . ففي الظروف العادية كان من غير المعقول اطلاقاً ، ان يعيش رجلا استخبارات في بيت واحد . ولكن الظروف الآن غير عادية . لقد بدا منذ الايام الاولى ان مصيرنا واحد . فقد اقترحته عليّ الاستخبارات السوفييتية كمساعد محتمل .

وقد ساعدني فيما بعد على الدخول في جهاز الخدمة السرّية الانكليزية وفي اسبانيا كان صلة الوصل بالنسبة لي . في العام ١٩٤٠ عملنا سوية في المخابرات البريطانية وفي العام ١٩٤٨ زارني زيارة عمل في تركيا . ولذلك فإن علاقاتنا الوثيقة كانت معروفة للجميع ، واي تحقيق جدي في نشاط ايّ منا ، كان سيكشف ، حتما ، علاقاتنا في الماضي ايضا . ويبدو للوهلة الاولى ، انه لا يمكن ان يكون هناك اي كلام ، عن امكانية اقامته عندي . ولكن كانت هناك وجهة نظر اخرى ، دعتني الى التفكير في قبول عرض بيرجيس . لقد علمت من مواد الارشيف ، ان صفحته بيضاء تماما ، فمن وجهة النظر السياسية لا توجد اية مواد تسيء الى سمعته . ولكنه كان دائما صاحب مشاكل ذات طابع شخصي ، فقد قذف به احد موظفي وزارة الخارجية ـ وهو الآن سفير ـ مرّة من فوق السلّم في نادي «غارغويل» ، وكانت النتيجة انه كسر رأسه . كما كانت له مشاكل في دبلن وطنجة ايضا . لقد تصورت انه ستكون لديه امكانيات اوفر لكي يبقى خارج الضوء في واشنطن ، فيما إذا اقام عندي ، وليس وحيداً في شقة عارية . ولكن ، لم اكد اجيب بيرجيس حتى جاءني ماكينزي برسالة ، ارسلها اليه رئيس قسم الامن في وزارة الخارجية كاري ـ فورستر ، ويحذره فيها من وصول بيرجيس . لقد عدد كاري ـ فورستر في رسالته هذه كل الاخطاء التي اقترفها بيرجيش في الماضي وختم رسالته بقوله ، ان الاسوأ من كل ذلك ، قد يظهر مستقبلاً . «ماذا يقصد بكلمة الاسوأ ؟» ـ خمّن ماكينزي . فقلت ، بانني اعرف غاي جدّاً ، وانه سيتوقف عندي لدى وصوله وانني سوف اراقبه . وهذا ما اعجب ماكينزي كثيراً ، لأنه وجد شخصاً آخر ، على استعداد لأن يشاركه مسؤولية مراقبة بيرجيس .

لقد اثبتت الاحداث فيما بعد ان قراري بالموافقة على استضافة بيرجيس كان خطأً جدّياً . ومن العبث ان نبرر ذلك ، بانه من الصعب التنبؤ بالمنحى الذي ستتخذه الاحداث بعد عدة اشهر ؛ فالاحتياطات الامنية

يجب ان تأخذ بعين الاعتبار امكـانية وقـوع الاحداث غـير المحتملة . ولكن كلما فكرت في ذلك اكـثر ، كلما ازددت اقتناعـاً ، بان قـراري بالمـوافقة عـلى استضافة بـيرجيس لم يعجل بوقوع الاحـداث ، التي اصبحت بعدهـا محط انظار الجمهور ، لاكثر من عدة اسابيع . لقـد نبهت تلك الاحداث بيـدل ـ سميث الى ان يـرسل رسـالـة الى رئيسي يـطلب فيهـا ابعـادي عن واشنـطن فـوراً . قـد يكـون ، لحسن حـظي ، ان وقـوعي ضمن دائـرة الشـك جـاء مبكراً ، قبل ان تتجمع الادلة الكافية لتقديمي للمحاكمة .

لقد خلق وصول بيرجيس مشكلة لم استطع ان اجدلها حـلاً بمفردي . حيث انني لا اعلم فيها إذا كان على ان اعلمه عن مصدر تسرّب المعلومات في السفـارة الانكليزيـة ،[1] حيث لا زال البحث عن هذا المصـدر مستمـراً . والقرار بوضعه في الصورة ، لم يتخذ الاّ بعد ان قمت بعدة رحلات بـالسيارة خارج واشنطن . حيث قال لي زملائي في المخابرات السوفييتية ، انه حسب المعطيات المتوفرة ، يبدو ان وضع بـيرجيس في الصورة سيكـون مفيداً وبنـاء على ذلك قمت بوضعه بـالصورة بشكـل تام ، ولم انس التفـاصيل . كـانت الصعـوبة بـالنسبـة لي تكمن في انني طيلة الاربعـة عشر عـامـا الاخـيرة لم أر ماكلين سوى مرّتين فقط ، ولوقت قصير جداً . ولم يكن لدي اي تصـوّر عن المكان الذي يعيش فيه وباختصار لم اكن اعرف عنه اي شيء .

والآن نعود الى القضية لنطلع على الـوضع الـذي وصلت اليه . لقـد خلق لـدي سير القضيـة شعوراً جـدّيـاً بـالاضـطراب . فقـد كـانت مليئـة بمجموعة هائلة من الوقائع غير المفهومة ، والتي كان يمكن ان يستنـد تقويمهـا الى التـوقـع فقط . لقـد كـانت الاستخبـارات الـبريـطانيـة تتسلم عشرات الاخباريات ، المتعلقة بمصدر التسرّب ، حيث كان يشار اليـه باسم حـركي

(١) المقصود هنا ماكلين ، الذي كان آنئذ رئيس قسم الولايات المتحدة في وزارة الخارجية البريطانية وكان ينفذ مهمات الاستخبارات السوفييتية .

هو «هوميروس» . ولكن تحديد تلك الشخصية تطلب وقتاً طويلاً . لقد تابع مكتب التحقيقات ارسال تقاريره عن عـاملات التنـظيف في سفارتنـا ، وفي الـوقت نفسه بـدأنا نحن في درس جهـاز الخدمـة لدينـا . وهذه هي النقـطة الوحيدة التي لم استطع ان افهمها في تلك القضية . فقد توفرت لـدينا مسبقـاً معلومـات بان عميـلا ما قـد دخل سفـارتنا . بـالطبـع ، لم تكن هنـاك ايـة دلائــل ، تشـير الى ان تلك المعلومــات تتعلق بشخص بعينـه . وحتى الآن ليست لـدينا اسس لمثـل هذا الـظن . ولكن في اية حـال لو تـوقعـوا ذلـك ، خاصة فيما لو قارنوا المعطيات السابقة مع معطيـات واشنطن ، لبـاشروا فوراً بالبحث في الوسط الدبلوماسي ، حتى قبل وصولي الى واشنطن .

ولكن جانباً آخر للقضية كان اكثر اثار للدهشة . لا شك انه كان لدي امتياز كبير ، فقد كنت اعلم مسبقاً من هـو المتهم بهذه القضيـة . ولكن حتى لو وضعنا هذا الامتياز جانباً ، فـإن محتوى التقـارير كـان يظهـر بوضـوح ان المقصود ليس موظفاً عاديا بحل دبلوماسيا كبيرا . ولكن عدم الـرغبة في بـدء البحث بهـذا الاتجاه لا يمكن تفسـيره الاّ بوجـود حاجـز نفسي يمنع هؤلاء من الاعتقـاد بان عضـواً محترمـاً من اعضاء مجتمعهم يمكن ان يمـارس مثـل هـذه الاعمال .

ومما يؤيد هذا التفسير ، هو الملاحـظات والتعليقات التي تلت اختفـاء ماكلين وبيرجيس . وحتى بعد هروبي ، انا . فبدلاً من الاعتراف بالحقيقة ، اعطيت تفسيرات غبية الى حد غير معقول .

لقـد كنت افهم ، ان مثـل هـذه الحـالـة الغـريبـة لا يمكن ان تستمـر طويلاً . فلا بد ان شخصا ما في يـوم ما سـوف ينظر الى نفسـه في المرآة ويجـد حلاً لهذا اللغز . وسوف تبدأ دراسة الدبلوماسيين ، وعاجلاً ام آجلاً سـوف يصبـح كـل شيء واضحـاً . والسؤال الاسـاسي الآن هـو ، متى يحـل هــذا «العاجلا ام آجلا» .

من احـاديثي مـع اصـدقـائي في ضـواحي واشنـطن استـطعت ان استخلص امرين .

اولا ، يجب تحذير ماكلين فوراً قبل ان يقع في الشبكة .

ثانيا ، من الافضل ان يبقى ماكلين في منصبه اطول مدة ممكنة .

بعد فرار ماكلين صدر بيان لتهدئـة الرأي العـام قيل فيـه ان ماكلين لم يكن سوى رئيس قسم امريكا في وزارة الخارجية ولم تكن لديه اية صلاحيات تمكنه من ان يكون قـريباً من قضـايا ذات اهميـة استثنائيـة . ولكن من الغباء الاعتقاد ، ان رجلاً مجرباً كهـذا ، يشغل منصبـاً هامـاً في وزارة الخارجيـة ، يكتفي بـالتعامـل مع تلك الاوراق التي يضعـونها عـلى مكتبـه ، والتي تتعلق بعمله اليومي . لقد قلت كيف توصلت الى معرفة عملاء بريطانيـا في الاتحاد السوفييتي ، عندما كانوا يعتقدون ، انني اطارد العملاء الالمـان في اسبانيـا . باختصار ، اصبحت مهمتنا الآن ، نقل ماكلين الى مكان امين ، ولكن ليس قبل ان يصبح ذلك ضرورياً .

كانت هناك صعوبتان اخريان . فقد تم ارسالي الى الولايات المتحدة لمدة سنتين فقط ، ولذلك فانا انتظر بديلي في خريف ١٩٥١ . ولم يكن لـدي اي تصوّر عن المكان الجديد الـذي سوف اعـيَن فيه . قـد يكون القـاهرة او سنغافورة ، اي في مكان ، سأكون فيه بعيـداً عن قضية مـاكلين . بعد اخـذ كل هذه الامور بعين الاعتبار ، توصلنا الى نتيجة ، انـه لضرورة الامن لابد من تنظيم عملية بانقاذ ماكلين في اقصى حد حتى منتصف ١٩٥١ .

الصعـوبة الثـانية تتعلق بقضيـة بيرجيس . لقـد احس انه غـريب في وزارة الخـارجية . فلم تكن لـديـه المـواهب ولا الهمـة للعمـل في مثـل تلك المؤسسـة . حتى انه في وقت مـا فكر بـالاستقالـة ووجد لنفسـه عمـلاً مـا في فليت ـ ستريت . وقد انعكس هـذا على عمله في وزارة الخـارجية حيث انـه كان من الممكن ان تتحوّل استقـالته الى إقـالة . وفي ايـة حال ، كـان يسعى للعودة الى انكلترا . وهكذا برزت فكرة توحيد القضيتين في مهمة واحـدة :

عودة بيرجيس الى لندن وعملية انقاذ ماكلين . كان على بيرجيس فور عودته الى لندن من السفارة البريطانية في واشنطن ، ان يزور ماكلين كونه رئيس قسم امريكا في وزارة الخارجية البريطانية ، وهذا امر طبيعي . وهكذا سوف تكون لديه امكانية التحدث الى ماكلين بخصوص عملية انقاذه . لقد كان بامكانه ان يقدم استقالته في واشنطن ويعود الى لندن دون اية ضجة . ولكن اختفاء ماكلين وعودة بيرجيس الى لندن بناء على طلبه سيبدو امراً مريباً . إذن يجب ترتيب الامر بحيث يبدو ان بيرجيس اجبر على العودة الى لندن .

لقد اعجب بيرجيس بهذه الفكرة كثيراً ، وقام بتنفيذها بطريقة بسيطة جداً . فخلال يوم واحد اوقف ثلاث مرّات لتجاوزه السرعة المحددة في ولاية فيرجينيا ، وكان رد فعل حاكم الولاية كما توقعنا . فقد ارسل الى وزارة الخارجية احتجاجاً شديد اللهجة لسوء استعمال الامتيازات الدبلوماسية من قبل بيرجيس . وقد تم عرض الاحتجاج على السفير . وبعد عدة ايام اخبروا بيرجيس انه بكل اسف ، عليه ان يغادر الولايات المتحدة الامريكية .

مباشرة بعد ان ثبتت امكانية استخدام بيرجيس لانقاذ ماكلين ، اصبح الاهتمام الرئيسي موجهاً لوضعي انا فقط . فبغض النظر عن كل الاحتياطات كان من المحتمل ان تكشف العلاقة بين بيرجيس وماكلين ، والتحقيق في نشاطه كان يمكن ان يسلّط الضوء عليّ . وقد يبدو ، من المشكوك فيه ان نستطيع عمل اي شيء هنا . وقد فكرت انه باستطاعتي ان اضع نفسي خارج الشكوك ، فيما إذا قدمت اية خدمة ايجابية في قضية البحث عن مصدر تسرب المعلومات من السفارة الانكليزية . حتى الآن كنت بعيداً عن هذه القضية ، تاركاً المجال فسيحاً امام مكتب التحقيقات الفيدرالي وفرع امن الدولة . امّا الآن وبعد ان أعدت خطة الانقاذ ، فلا مانع ابداً من دفع التحقيق بالاتجاه الصحيح .

ولهذا الهدف اعددت تقريراً الى لندن ، اشرت فيه الى اننا قد نكون

عبثاً نضيع الوقت في دراسة جهاز الخدمة في سفارتنا. فأنا لا ازال اذكر بعض المواد القديمة ، التي تشير الى ان رئيس قسم اوروبا الغربية في المخابرات السوفييتية استطاع في منتصف الثلاثينات ان يجند احد الشباب ، الذي بدأ العمل لتوّه في وزارة الخارجية . الشاب من عائلة محترمة وحصل على تعليمه في ايتون واوكسفورد . وهو يقدم المساعدات للاستخبارات السوفييتية لاسباب عقيدية ، لا من اجل النقود . وانا اقترح مقابلة هذه المعلومات مع المعلومات المتوفرة عن دبلوماسيينا العاملين في واشنطن بين الاعوام ١٩٤٤ـ١٩٤٥ ، اي في الوقت اذي بدأت تتوفر لدينا فيه معلومات عن مصدر التسرب في سفارتنا بواشنطن . وقد اجابني فيفين ، بانهم قد اخذوا هذا الجانب بعبن الاعتبار ولم يحصلوا على اية نتيجة. ولكن سرعة الاحداث اللاحقة اثبتت ان هذه الفكرة كانت جديدة نسبياً .

فقد مكّنت مقارنة المواد القديمة مع المعطيات المتوفرة عن مصدر تسرّب المعلومات في السفارة من وضع قائمة مؤلفة من ستة اسماء ، ارسلت نسخة عنها لنا مع التأكيد ، بان تحقيقاً مكثفاً يجري بهذا الامر . القائمة كانت تضم الاسماء التالية : روجر ميكينس ،[1] بول غوربوت ،[2] رايت ودونالد ماكلين (كان يمكن الاعتراض ، بان ماكلين لم يتعلم في ايتون ولا في اوكسفورد ، ولكن فرع امن الدولة لم يعط اهمية خاصة لهذه التفصيلات ، لأنه حسب رأي الاجانب ، بان كل شباب العائلات المحترمة يجب ان يتعلموا في ايتون واوكسفورد) . وهذه القائمة وفرت لماكينزي اسعد لحظة في حياته . فقد لفت انتباهه غوربوت . لماذا ؟ لأنه تعلم في ايتون واوكسفورد ؛ بدأ العمل في وزارة الخارجية في منتصف الثلاثينات كان علّامة في الادب الكلاسيكي ، ولذلك فإن الاسم الحركي لمصدر التسرّب «هوميروس» كان ينطبق عليه تماماً ، وبالاضافة الى ذلك ، اسم هوميروس

(١) رئيس لجنة الطاقة النووية .

(٢) ترأس لجنة الاعلام الانكليزية في امريكا . فيما بعد مساعدا دائما لوزير الخارجية .

باللغة الروسية قريباً في لفظه من اسم غور . وفيما يتعلق بالمعتقدات فقد كان غوربوت مسيحياً متعصباً . ما الذي يلزم بعد ؟ لقد كانت فكرة جيّدة ، وقد أملت ـ بانها ستشغل لندن لعدة ايام .

جمع بيرجيس اشياءه وسافر . لقد تناولت واياه طعام الغذاء في مطعم صيني حيث كان صخب الموسيقى يخفي صوتينا . بحثنا الخطة خطوة خطوة . فقد كان على بيرجيس فور عودته الى لندن ان يلتقى بزميلنا السوفييتي ويخبره بكل شيء . بعد ذلك عليهم وضع تقرير مفصل بالمكان والزمان . واخيراً كان على بيرجيس ان يقوم بزيارته العادية الى ماكلين ويسلّمه التقرير . واعتباراً من تلك اللحظة انقطعت تماماً عن العملية . كان بيرجيس يبدو حزيناً ، وقد فهمت تماماً ، مما يعاني . وآخر كلماتي له في المحطة كانت «اياك ان تهرب انت ايضاً» ـ قلتها مازحاً .

لم تترك فكرة ماكينزي عن غوربوت اي اثر يذكر لدى فرع امن الدولة . فقد كانوا يبحثون عن شخص مالا يشبه الدبلوماسيين في شيء . لقد كانت تلك طريقة ذكية جداً كان من نتائجها ان وضع اسم ماكلين في رأس القائمة . فهو لا يهتم ابداً بقضايا اللهو التي يتصف بها الدبلوماسيون عادة وانما كان دائماً يفضل مجتمعات العقول الحرة . وبخلافه هو كان الآخرون يتشابهون في سلوكهم الدبلوماسي الى حد عجيب . لقد اخبرنا فرع امن الدولة بهذه الاستنتاجات التي توصلوا اليها . ثم اخبرونا ، بانهم سوف يلتفتون الى ماكلين فور توفر المعطيات المطلوبة لادانته . وفي الوقت نفسه سوف يمنع من الوصول الى بعض وثائق وزارة الخارجية ، وسوف يوضع تحت المراقبة . لقد كان اتخاذ القرارين الاخيرين ، اللذين تم اتخاذهما ، على الارجح ، لإرضاء الامريكان ، خطأ فادحاً . ولكنني لم أر سبباً لانتقادهما . لقد فكرت انه مع الزمن يمكن ان استخدمهما لصالحي عند الحاجة ، وكنت على حق .

ولكن سرعة تطوّر الاحداث ، اقلقتني كثيراً وفي اللقاء التالي مع

الزميل السوفييتي طلبت اليه ان يستعجل الامور . وقد ظهرت لدي حجة لاكتب مباشرة الى بيرجيس . فمدير مواصلات السفارة سألني مرتين ، ما العمل مع «لينكولين» بيرجيس ، الموجودة في الكاراج . وبحجة السيارة كتبت الى بيرجيس ، انه ، إذا لم يتخذ اجراءات حاسمة وفورية ، فسيتأخر كثيراً ، وسارسل سيارته الى الكوم . ليس في استطاعتي ان افعل اي شيء بعد .

في صباح احد الايام اتصل بي باترسون واخبرني ، انه لتوه تسلّم من لندن برقية طويلة جداً مع ملاحظة «بالسرعة الكلية» . وبما انه اعطى اجازة اسبوع لسكرتيرته فقد يلزمه يوم كامل لفك رموزها . وطلب سكرتيرتي لمساعدته . اعطيت التعليمات الضرورية وجلست لارتاح . على الارجح كانت هي نفسها . هل وقع ماكلين ام انه استطاع ان ينجو ؟ لقد كانت لدي رغبة شديدة في الذهاب الى السفارة لاساعد بنفسي على قراءة تلك البرقية . ولكن ، لا شك انه كان من الافضل ان اجلس واهتم باعمالي العادية وكأن شيئاً لم يحدث . ولدى وصولي الى السفارة دخلت الى مكتب باترسون . كان شاحباً . «كيم ـ همس لي ـ لقد طار العصفور» . لقد رسمت على وجهي سمات الرعب (وآمل ان أكون قد نجحت في ذلك) . «اي عصفور ؟ هل هو ماكلين ؟» «نعم ـ اجابني هو ـ ولكن الاسوأ من ذلك : ان غاي بيرجيس هرب معه» . والآن اصبح رعبي حقيقياً .

الفصل الثاني عشر

معاناة

لقد وضعني هروب بيرجيس مع ماكلين امام قرار صعب جداً . منذ البداية ، عندما كنا لا نزال نبحث خطة هرب ماكلين ، افترض زملائي السوفييت ، ان اية ظروف غير متوقعة قد تضعني في وضع خطر . وتحسباً من وقوع هذا قمنا بإعداد خطة لهربي ، وكان على ان اقرر بنفسي العمل بها في حال الضرورة القصوى . وكان واضحاً ، ان هرب بيرجيس قد فرض تلك الضرورة ولكن هل كانت ضرورة قصوى ؟ كان لابد من تأجيل القرار لعدة ساعات ، كي اتمكن من انجاز امرين . الاول التخلص من كل ما يمكن ان يدينني ؛ والثاني استشفاف مزاج مكتب التحقيقات الفيدرالي ، لان تفاصيل خطة هربي كانت تتعلق بذلك . كان لابد من ان اتخلص من بعض الاشياء ، المتعلقة بعملي ، ولكنني قررت ان ذلك يمكن ان يؤجل ، لأن مغادرتي السفارة فور سماعي نبأ هروب ماكلين وبيرجيس ، قد يثير الشكوك الا ان برقية باترسون اعطتني حجة واضحة كي استشف الوضع في مكتب التحقيقات فوراً . كانت البرقية مذيلة بتعليمات يطلب فيها اخبار ليد بمحتوى البرقية .

يبدو ان باترسون قد توقع ان وجهه سيحمر خجلاً ، ولذلك دعاني لمرافقته ، على اساس ان احمرار وجهين افضل من احمرار وجه واحد .

استمع ليد الى النبأ بهدوء عجيب . حتى ان بريق عينيه كان يدل على انه راض تماماً لوقوع الانكليز في هذا المستنقع . ولكنني فهمت ، ان هدوءه هذا يخفي قلقه الشخصي فكثيراً ما اجتمع ليد مع بيرجيس عندي في البيت

حتى انه كان يدعوه الى بيته . وبغض النظر عن اي شيء ، فإن علاقـاتهما لم تكن سيّئـة . فالاثنـان يتميّزان بـطابع حـاد وكثيرا مـا تبادلا الشتـائم . ففي اللقـاء الاول شن بيرجيس هجـوما عنيفـاً على الـرشـوة والفسـادة ، اللذين افقدا ، كما اكد بيرجيس ، سباق السيارات في اينديانـا بوليس كـل محتوى . وحتى نمط الحيـاة الامريكيـة بشكلٍ عـام لم ينج من مهـاجمة بـيرجيس . كـان واضحـاً ان ذلك اعجب ليـد كثيراً . فهـو ، على الارجـح ، لم ير انكليـزيا تاعساً يتكلم بهذه الطريقة . وفي مثل هذه الحالة الحرجة كان عليـه الا يكون ليـد حتى لا يقلق من علاقـاته مـع بـيرجيس . لقـد كنت متـاكـداً ، من ان مصلحة ليد الشخصية سوف تكـون لصالحي . بعـد ان انتهت زيارتنـا لليد ذهبنا الى ليمفير الذي كان رد فعله على الخبر طبيعياً تماماً . لقد بحثنا موضوع فرار الدبلوماسيين ، اما هو فبطريقته الجدّية المحترمة ، طـرح عدة نـظريات دلت على انه لا يزال بعيداً جداً عن الحقيقة . ولقـد احسست بالارتيـاح بعد مغادرتي لمبنى مكتب التحقيقات الفيدرالي .

لقـد وضعت في حسـابي ، ان يكـون ليـد وليمفـر ممثلين بـارعـين يخدعانني ، ولكنني لم ار فائدة في مصارعة الطاحون وهي تدور . كان علي ان اتحرك على اساس ان مكتب التحقيقات لا يعلم شيئاً بعد .

لم انفِ امكانية انـه في اية لحـظة يمكن ان يطلب فـرع امن الدولـة من مكتب التحقيقات الفيدرالي وضعي تحت المراقبة . وكان باستطاعة فرع امن الدولة ان يفعـل ذلك عن طـريق ممثل مكتب التحقيقـات في لندن . ولكنني احسست مع كل هذا ، انه لا يزال لدي عدة ايام استـطيع ان ارتـاح فيها . كـان من الصعب الاعتقاد ، ان فـرع امن الدولـة سيسلّط عـلي اجهـزة امن اجنبية دون ان يتشاور في ذلك مع الفـرع رقم ستة ، وهـذا الاخير ، حسب اعتقـادي ، لابد ان يفكـر كثيراً قبـل ان يعرض سمعـة احد كبـار ضبـاطـه للتشويه . هذه كانت تصوّراتي الشخصية عن الموضوع . وما زالت حتى الآن

تصوّرات . ولكنها يمكن ان تكون صحيحة ، لأنه خلال عدة ايام لم يتعرض احد لي .

عندما عدنا الى السفارة ، كان الوقت ظهراً ، وكان من حقي ان اقول لباترسون انني ذاهب الى البيت لآخذ كأساً من الويسكي . توجهت الى كراجي الذي كنت استعمله مستودعاً ايضا ، واخذت منه رفشاً صغيراً ، وضعته في حقيبتي ونزلت الى القبو . لففت آلة التصوير ، وبعض الاشياء الاخرى في مادة عازلة ووضعت كل هذه الاشياء في السيارة . فغالباً ما كنت اتدرب على هذه الخطوات ذهنياً حتى اصبح لدي نظام معين . لقد اصبحت عندي عادة الذهب الى غريت ـ فولس ، كي اقضي نصف ساعة من الوقت ارتاح فيها بين زيارتي إلى كل من مكتب التحقيقات ووكالة الاستخبارات المركزية . وفي الطريق الى هناك حددت مكاناً مناسباً لمثل هذا الحدث ، الذي اصبح ضروريا الآن . لقد وضعت السيارة على جانب الطريق . وعن يمين الطريق كانت هناك غابة كثيفة لدرجة تسمح بالاختفاء فيها . دخلت في هذه الغابة وتوغلت فيها الى عمق مئتي متر تقريبا ، ثم بدأت العمل . بعد عدة دقائق خرجت من الغابة وانا اسوّي بنطالي . وبعد ان عدت الى البيت صرفت بعض الوقت في الحديقة برفقة الرفش . وهكذا تخلصت من كافة الاشياء المادية التي يمكن ان تكون شاهداً حيّاً على إدانتي .

والآن استطيع ان اهتم بمسألة هروبي .

بما انني خلال الاسابيع الماضية كنت دائم التفكير في هذه القضية ، فقد قررت ان ابقى في مكاني . طالما اعتقدت بأن هناك أملاً فواجبي يقضي ان اقاتل حتى النهاية . لا شك انه يترتب علي ان اتوقف عن اي نشاط لفترة ما ، وهذه الفترة قد تطول ، وسوف تكون صعبة جدا . لكن بالمقابل ، عندما يزول الخطر ، ستكون لدي امكانيات جديدة لمتابعة العمل . ولقد اثبتت الاحداث انني كنت على حق .

القضية اصبحت تتعلق فيما إذا كان الحظ سيحالفني في التسديد على

الهدف ، فيما إذا بقيت . لقد اعتقدت ان الكفة تميل الى جانبي . وعلي ان اشير الى انه كانت لدي امتيازات هائلة بالمقارنة مع فوكس وامثاله ، الذين لم تكن توجد لديهم اية فكرة عن عمل اجهزة المخابرات . اما انا فقد عملت في اجهزة الخدمة السرية احد عشر عاماً ، سبعة اعوام منها في مناصب عالية ، وخلال ثماني سنوات كنت على صلة وثيقة بعمل فرع امن الدولة . وعلى امتداد ثمان سنوات كانت لي علاقات ، مع اجهزة الاستخبارات الامريكية لكنها غير منتظمة ، وخلال سنتين تقريبا كنت على صلة وثيقة جدا بها . فأنا إذن ، اعرف عدوّي جيدا ، وإلى حد يسمح لي ان اتوقع ، بشكل عام ، الاجراءات التي يمكن ان يتخذها ضدي . لقد كنت اعرف السلاح الرئيسي الذي يمتلكه عدوي ، وهو ارشيفه ، بالاضافة الى ذلك ، فأنا مطلع على تلك القيود والقوانين والشكليات التي تقيّد عمله . واخيرا كان هناك كثيرون في لندن من ذوي المناصب العالية ، الذين يريدون اثبات براءتي . فقد كانوا على استعداد لأن يفسّروا اية شكوك لصالحي ، وانا من جهتي كان علي ان اخلق التربة الملائمة لتحرك هؤلاء .»

ما هي البراهين المعروفة لديّ والتي كان من الممكن ان تستخدم ضدي ؟

يمكن ان ننسب اليها علاقاتي مع الحركات اليسارية في كمبردج . وهذا ما كان معروفاً للجميع ، ولذلك كان من الافضل عدم اخفاء ذلك . ولكنني لم اكن قط عضواً في الحزب الشيوعي في انكلترا ، وطبعا ، سيكون من الصعب جدا اثبات ، انني منذ ثمانية عشر عاماً كنت امارس نشاطاً سرّياً في النمسا ، خاصة وان اكثر اصدقائي هناك ، وللأسف ، ليسوا في عداد الاحياء . كانت توجد عبارة في المواد القديمة يمكن ان تستخدم ضدي ، حيث تقول ، ان الاستخبارات السوفييتية استطاعت ان تجند احد الصحفيين الشباب وارسلته الى اسبانيا . ولم تكن هناك اية تفصيلات اخرى ، يمكن ان تساعد على تحديد شخصية هذا الصحفي ، وفي ذلك

الوقت سافر عدد كبير من الصحفيين الشباب من فليت - ستريت الى اسبانيا . لم يكن في صالحي ايضا ، ان بيرجيس هو الذي جاء بي للعمل في المخابرات البريطانية . ولكنني كنت متحضراً لتجاوز هذا الأمر ، بتسمية المرأة التي تعتبر مسؤولة عن المجيء بي للعمل في المخابرات البريطانية . فإذا اعترفت بذلك كان خيراً . امّا إذا انكرت ذلك ، فسوف أؤكد انه لم يكن باستطاعتي ان اعرف اسمها لو لم تكن فعلا هي التي دعتني للعمل في المخابرات البريطانية .

من المحتمل ، طبعاً ، ان تضعني الاستخبارات البريطانية في موقف صعب ، فيما إذا اكتشفت انني اطلعت في الارشيف على وثائق يخرج مضمونها خارج اطار واجباتي القانونية . والحجة الوحيدة التي كان باستطاعتي ان اضعها مقابل هذا الاتهام هي ، شغفي الشديد بعمل المخابرات بحد ذاته ، ولكنها حجة سخيفة . كنت اعلم ان السجلات كانت تتلف بشكل دوريّ ، ومن غير المحتمل ان يكون قد احتفظ بتلك السجلات حتى الآن . وكان هناك ايضا بعض المهمات التي أوكلت اليّ ولكنني فشلت في تحقيقها ، لاسباب لا تزال مجهولة حتى الآن . ولكنه كان باستطاعتي ان اشرح لهم اسباب فشل كل مهمة دون كشف دوري الحقيقي في فشلها ، بالاضافة الى ذلك كان هناك قضيتان ، لم تنتهيا كما يجب ، مع كل الجهد الذي بذلته لانجاحهما . ومع ان العمليات الناجحة ليست دليلا على براءتي ، ولكنها الى حد ما يمكن ان ترفع عني مسؤولية فشل العمليات الاخرى . حقا ، كان من الصعب علي ان اشرح علاقتي مع بيرجيس . فاهتماماتنا المشتركة كانت نادرة ، وكذلك نادراً ما كان لنا صديق مشترك ، وذوقي يختلف كلّياً عن ذوقه . ان الامر الوحيد الذي يجمعني بيرجيس هو العقيدة السياسية ، وهذا ما كان يجب إخفاؤه قدر الامكان . وفي هذا المجال ساعدتني الجغرافيا الى حد ما . فعندما كنت في النمسا ، كان بيرجيس لا يزال في كمبريدج وعندما كنت في اسبانيا كان هو في لندن ؛ لقد قضى هو

القسم الاكبر من الحرب في لندن ، اما انا فقد كنت عندها متنقلا بين فرنسا ، هيمبشير وهارتفوردشير ، بعد ذلك سافرت الى تركيا ، ثم تقابلنا بعد سنة في واشنطن . لذلك كان باستطاعتي ان اثبت ، انه لم تكن بيني وبين بيرجيس في اي وقت علاقات وثيقة بكل ما في الكلمة من معنى ، وانه اي ـ بيرجيس ـ مجرد شخص لطيف ، وصديق مصادفة . حتى موضوع استضافتي له في واشنطن ، كان يمكن استخدامه كنقطة قوة لصالحي : فلو كان هناك اية علاقة سرّية بيني وبين بيرجيس ، فهل انا غبي لدرجة ان افضحها !

الصعوبة الثانية تكمن في ما هي الصورة التي يمكن رسمها لصعودي في الحياة . وكلما فكرت فيها اكثر ، كلما اعجبت بها اكثر . تبدأ الصورة بعلاقتي المشهورة مع المنظمات اليسارية في كيمبريدج ونشاطي الشيوعي في فيينا ، الذي قد يكون معروفاً ايضا ؛ تلا ذلك «قطع» كل علاقة مع اصدقائي الشيوعيين ، بدأتْ بعدها وبسرعة «صداقتي» مع النازيين في لندن وبرلين ؛ ثم من بين الامكنة المتوفرة اخترت اسبانيا فرانكو ، لكي احقق مستقبلا صحفيا مرموقا ؛ تلا ذلك العمل في الاستخبارات البريطانية والتخصص بالعمل المناهض للسوفييت وللشيوعية ؛ واخيراً ، معرفتي بكل الخطوات التي كان مقرراً اتخاذها ضد ماكلين ، وهروبه . الصورة بدت مزعجة . ولقد توصلت الى نتيجة مفادها ، انه لا يمكنني ان اثبت براءتي .

ومع ان الصورة كانت مزعجة الاّ انها لم تخفني . فهذه الاسس كانت كافية لإدانتي من قبل رجال الاستخبارات فقط ، لكنها لم تكن كذلك بالنسبة لرجال القانون . فرجل القانون يحتاج الى اثباتات مادية قاطعة . وسلسلة الاتهامات النظرية كانت طويلة جداً ، ولكن بحث كل حلقة من هذه السلسلة منفردة ، كان يمكن ان يؤدي الى تحطيم السلسلة كاملة ؛ وإذا فككْنا الحلقات واحدة بعد اخرى ، ماذا يبقى من السلسلة كلها ؟ لذلك ، بغض النظر عن المؤشرات الخارجية المزعجة ، اعتبرت انه توجد لدي فرصة

لا بأس بها للنجاة . والمهمة الملحة بالنسبة لي الآن هي زرع الشك في كل مكان ، والتحرك بشكل مكشوف وواضح .

لقد وفرت لي الايام التالية امكانيات واسعة لذلك . وكثيرا ما دار بيني وبين باترسون حديث عن ماكلين . واحيانا كان ينضم الينا ماكينزي . ولا اعتقد انه كانت لدى باترسون اية تصوّرات في ذلك الوقت ، ولكن ثقتي بماكينزي كانت اقل . لقد كان هذا رجلاً كسولاً ، ولكنه الى حد بعيد لم يكن غبياً ، ولقد كنت اتصوّر احيانا ، انني اقرأ في نظرته شكاً كبيراً . لقد حاولت خلال هذه المحادثات ان اصيغ نظرية ، تشمل كافة الحقائق المتوفرة ، ان اثبتها في رؤوس محدثيَّ . وقد ساعدني في ذلك قرار فرع امن الدولة ، الذي سبق وتحدثت عنه : منع ماكلين من الاطلاع على بعض الوثائق ووضعه تحت المراقبة . لقد اتخذت هذا البند نقطة انطلاق لوضع نظرية ، في اقل تقدير ، لا يمكن ضحدها . وتتلخص في التالي :

الوثائق القديمة تؤكد ان ماكلين قد امضى ستة عشر عاما في العمل . إذن ، فهو مخبر قديم ومجرب . ومثل هذا الرجل يكون دائماً حذراً ، ومن الطبيعي انه لاحظ فوراً ، ان بعض الوثائق قد منعت عنه . وهذا ما اقلقه . ولا شك ، انه بدأ يتحرّى ، ما إذا كان احد ما يراقبه ، وقد اكتشف ذلك فوراً . هذه الاكتشافات وضعت ماكلين امام الخيار : هدف المراقبة هو ، ضبطه بالجرم المشهود في لحظة لقائه مع المقيم السوفييتي ، فدون مساعدة ذلك الصديق السوفييتي كانت امكانية هروبه ضعيفة . ولكن الله نفسه تدخل في تلك اللحظة الحرجة بالنسبة لماكلين : لقد ظهر صديقه القديم بيرجيس . (لم اشأ ان اثبت انه كانت هناك علاقة بين ماكلين وبيرجيس ، ولكن حقيقة هرب الاثنين معاً ، رجحت اقتراحي) بظهور بيرجيس ، وجد ماكلين الحل لمعضلته ، حيث اصبح بالامكان انجاز كافة الاجراءات بمساعدة بيرجيس وصديقه السوفييتي . ومما دعم كلامي هذا ، حقيقة ان بيرجيس هو الذي قام باجراءات ، كاستئجار سيارة مثلاً . ولكن لماذا هرب

بيرجيس نفسه ؟ لقد كان واضحاً لباترسون وماكينزي ، ان وزارة الخارجية لم تعد بحاجة الى بيرجيس وان نجمه بدأ بالأفول . وقد انهى الاصدقاء السوفييت المشكلة عندما قرروا انه من الافضل ان ينسحب بيرجيس من على المسرح ، حيث اصبح وجوده يشكل خطراً على الآخرين .

تلك كانت وجهة نظري ، وقد تمسكت بها بقوة . كانت تتميّز بانها تعتمد على حقائق معروفة لا يمكن ضحدها . ثلاثة اشخاص فقط . كان باستطاعتهم ضحدها ، الاثنان المختفيان وانا نفسي . ولقد لاحظت بارتياح كبير ، ان مكتب التحقيقات الفيدرالي قد وافق على وجهة نظري هذه . لقد اعجب بها ليد ، وليمفير . حتى غوفر نفسه تمسك بها عندما تحدثت معه بهذا الخصوص . فالمهم بالنسبة اليه في كل هذه الوجهة النظر ، انه بموجبها يتحمل فرع امن الدولة كامل المسؤولية في هرب ماكلين وبيرجيس . ولا أشك ابداً في ان غوفير قد حقق رأسمالا سياسياً كبيراً في الكابتول من وراء هذه القضية . لقد استطاع غوفير بمفرده ان يحقق انتصارات معدودة قليلة ، ولكنه لم يكن من اولئك الذين يفحصون اسنان الحصان المهدى اليه .

اما بالنسبة لوكالة الاستخبارات المركزية فقد كان الوضع اقل تحديداً . بما ان هذه القضية كانت واقعة ضمن دائرة صلاحيات مكتب التحقيقات الفيدرالي ، لم يكن باستطاعتي ان ابحث التفصيلات مع وكالة الاستخبارات المركزية ، دون ان اخاطر باثارة غضب غوفير وليد ، اللذين كنت احاول قدر الامكان عدم اثارة غضبهما . انطلاقاً من هذا ، كنت اقتصر في احاديثي مع وكالة الاستخبارات على التفصيلات المعروفة للجميع . لم اخف من دالاس ، الرجل الشكلي ؛ وبعد عدة سنوات ادهشتني الخطيئة الفظيعة التي ارتكبها الرئيس كندي ، عندما اخذ على محمل الجد خطة دالاس بخصوص مغامرة خليج كوتشينوس . اما بيدل - سميث فقد كان شخصا مغايراً تماما . عيناه باردتان كعيون السمك وكذلك رأسه ، الذي يشبه الآلة الدقيقة . ففي اول لقاء لي معه قدمت له وثيقة تضم

اكثر من عشرين بنداً ، تتعلق بالخطط العسكرية الانكلو ـ امريكية . وبعد ان القى نظرة سريعة على الوثيقة ، طرحها جانبا ، وبدأ يبحثها معي بالتفصيل بنداً بنداً ، حتى دون ان يخطيء تسلسلها العددي .

لقد اخبرني حدسي ، ان بيدل ـ سميث يستطيع ان يفهم ، ان اثنين زائد اثنين = اربعة ، وليس خمسة .

مرّت عدة ايام اخرى مزعجة . وعندما نشر الخبر في الصحافة على نطاق واسع ، اصبحت اشعر بالحرج في المجتمع الذي كنت فيه . وفي احدى حفلات الاستقبال التي اقامها السفير رمقتني زوجة احد الموظفين بنظرة احتقار باردة جدا . لندن صامتة . وصلت برقية واحدة فقط ، تقول : «يوجد اساس للاعتقاد» ، بانني كنت اعرف بيرجيس شخصيا ، افلا استطيع ان القي ضوءاً على تصرفه . ولكنني كنت انتظر برقية من الشيف شخصياً ، يدعوني فيها للعودة الى لندن . الدعوة وصلت ، ولكن بطريقة تدعو الى التفكير . فقد وصل الى واشنطن احد موظفي جهاز الاستخبارات لانجاز بعض الاعمال الخاصة . فقام بزيارتي ، واثناء الزيارة سلمني رسالة من جاك ايستون . الرسالة كانت مكتوبة بخط ايستون . يقول فيها ، انني قريباً ساستلم برقية بالعودة الى لندن نتيجة لقضية بيرجيس ـ ماكلين . ومن المهم جداً ، ان اتقيّد بالاوامر التي تحتوي عليها البرقية فوراً . لقد كان محتوى الرسالة واضحاً تماما ، ولكنني لم استطع ان افهم شكل اخراجها . لماذا يخبرني ايستون عن الدعوة المرتقبة بالعودة الى لندن ولماذا يكتب لي رسالة بنفسه ، إذا كان الامر سيصلني في اية حال بالطريقة المعروفة ؟ بشكل عام غالباً ما تظهر في اجهزة الخدمة السرّية اسباب لتحركات غير عادية ؛ ومن المحتمل ، ان يكون واحد من هذه الاسباب في هذا الحدث . لقد فكرت عندها انني إذا كنت قد الغيت فكرة الهرب ، فإن رسالة ايستون تعتبر اشارة واضحة لي بأن اجمع اشيائي واستعد للرحيل .

وصلت البرقية بعد عدة ايام . حجزت بطاقة لليوم التالي وبدأت

استعد لوداع واشنطن الى الابد . قابلت انكلتون ، لاقضي وإياه ساعة من الزمن في البار . ولكنه على ما يبدو لم يقدّر جدية الوضع الذي انا فيه وطلب مني الاهتمام ، بعد وصولي الى لندن ، ببعض القضايا ذات الاهتمام المشترك . قمت بعد ذلك بزيارة دالاس ، الذي ودعني متمنّياً لي النجاح . ثم توجهت بعدها لزيارة ليد ، الذي امضيت معه قسماً من تلك الامسية . ويبدو انه كان قلقاً للوضع الصعب الذي انا فيه ، واسدى إليَّ عدة نصائح ، عن كيفية تجنب المشاكل التي قد تحدث لي في لندن . مهما كان ليد قاسياً ، فإنه في اية حال كان انساناً .

لقد وصلت لندن حوالي منتصف النهار حيث شهدت حدثاً غريباً . لقد استقليت باص المطار واتخذت لنفسي مكاناً قرب الباب . وعندما امتلأ الباص ، قرب الباب ظهر نموذج مضطرب . واخذ يتفحص الركاب بشكل مسعور . نظر الي من اليسار ثم من اليمين ومن الامام . لقد بدا كالأبله . ثم اختفى . كان هذا بيل بريمنير ، الذي يشغل منصباً محترماً في الجهاز الاداري للاستخبارات البريطانية . لقد عرفت انه كان يبحث عني . كانت هذه هي المرة الاولى التي حاولوا فيها استقبالي بشكل رسمي . بعد رسالة جاك ايستون وتكليف ضابط من مرتبة بريمنير «باستقبالي» لم يكن باستطاعتي ان اقول انهم يحذروني . عندما كان الباص يتجه الى لندن ، كان الضوء الاحمر يضيء لي بشكل يبهر الابصار !

توجهت مباشرة الى شقة والدتي وبعد الغذاء اتصلت بايستون . تناهت الي مسامعي عبر السماعة تنهيدة دهشة . وبعد فاصل قصير سألني ايستون ، اين انا الآن . فاجبته . الست تعباً ، لدرجة لا تسمح لي بالتوجه مباشرة الى برودفيي ؟ طبعاً لا . انا آت . في الطريق كان ينتابني شعور من الرضى عندما تصوّرت الهلع الذي انتابهم ، عندما اخبره بريمنير ، انني لم اصل . كان ايستون يبدو كالضائع ، وعندما دخلت اليه في مكتبه . بادرني قائلا ان مكالمتي ادهشته ، لأنه ارسل بيل بريمنير الى المطار ، لمساعدتي . ولم

يكن تفسيره مقنعاً ، فاحسست ، انني ربحت الشوط الاول . طبعاً ، لم يكن لهذا الانتصار اية قيمة ، ولكن الشعور بالانتصار بحد ذاته شجعني . فيما بعد اخذتني فكرة خيالية ، بانهم ارسلوا بريمنير لاستقبالي في المطار ، حتى لا يسبقهم فرع امن الدولة لاعتقالي فور وصولي . ولكن الاحداث اللاحقة اكدت ان ذلك الاعتقاد لا اساس له وانا اتيت على ذكره هنا من باب النكتة فقط .

لقد اخبرني ايستون ، بان ديك وايت ينتظرنا على احر من الجمر . توجهنا عبر الحديقة الى ليكونفيلد ـ هاوس في كيرزون ـ ستريت ، حيث يقع مقر قيادة فرع امن الدولة . وكان هذا اول تحقيق يجري معي ، مع انه تم اخراجه على شكل حديث عادي لتبادل الآراء . جلس ايستون صامتاً ، بينما كان ديك وايت يلقي عليَّ باسئلته . يبدو انه اسند الى ايستون دور الحكم في اللعبة الجارية . لا شك انه كانت عندي بعض المخاوف ، وهذا على ما اعتقد ، امر مفهوم ، امّا محدثاي فقد كانا في وضع من التشوش لا يحسدان عليه . لم استطع ان اعتبر وايت صديقاً مقرباً ، ولكن علاقاتنا الشخصية وفيما يتعلق بالعمل كانت دائما على احسن حال ، وبلا شك ، انه تقبل تعييني بدلاً من كاوغيل بارتياح كبير . لذلك حاول ان يكون حديثنا حديث اصدقاء . لقد قال ، انه بحاجة لمساعدتي : يجب تفكيك حلقات اللغز الرهيب في قضية بيرجيس ـ ماكلين . لقد اخبرته الكثير عن ماضي بيرجيس وعن تصوّراتي عنه ، مقارناً بين حبه للظهور وبين تصرفاته الشخصية الرّعناء من جهة ، وبين الوضع السّري الذي يجب ان يعيشه العميل الاجنبي فكم بالاحرى إذا كانت الجهة التي يتعامل معها هي المخابرات السوفييتية . لم اكن آمل في ان يقتنع احد برأيي هذا ، ولكنني كنت احاول ان اخلق تصوراً بانني ارد على الرأي الباطن ، بان بيرجيس استطاع ان يخدعني انا ، رجل الاستخبارات المجرّب . اما فيما يتعلق بماكلين فقد قلت ، انني لا اعلم عنه اي شيء . لقد سمعت عنه طبعاً ، ومن المحتمل انني قابلته في مكان ما ،

ولكنني لا استطيع ان اتصوّر حتى شكله . فقد قابلته مرتين فقط ، وكان ذلك في العام ١٩٣٧ ، ولمدة نصف ساعة ؛ وبالمناسبة فقد قابلته بشكل سرّي في المرتين ، ولقد سمحت لنفسي بهذا التزوير الخفيف للحقيقة .

اقترحت ان تسجل اقوالي هذه على ورقة . لأنني لم انفِ امكانية تسجيل حديثنا هذا ، لذلك فضلت ان تكون لدي صورة مكتوبة للحديث ، استطيع بمساعدتها ان اصحح بعض الاخطاء التي كان من الممكن ان يقع فيها الميكروفون . وعندما دعيت بعد عدة ايام للاستجواب الثاني ، القى وايت نظرة سريعة على ورقتي تلك ، ثم انتقل الى الحديث عن الامر الذي يشغله كثيراً . فقال ، ان القضية يمكن ان تتوضح فيما إذا اخبرتهم بالتفصيل عن علاقاتي مع بيرجيس . ومن المفيد ايضا ان اروي بالتفصيل تاريخ حياتي قبل الخدمة وأثناءها وفي هذا الخط كانت توجد بعض الثغرات المريبة ، ولكنني حاولت توضيحها قدر الامكان . وهنا انزلقت امام وايت انزلاقة ندمت عليها كثيراً . ولكنه مع الوقت كان لا بد لهم من ان يكتشفوا تلك الحقيقة ، وقد يكون من الافضل انني قلتها انا منذ البداية .

المسألة كانت تخص سفري الى اسبانيا فرانكو قبل ان ترسلني «التايمز» الى هناك كمراسل لها . واعتقد انه لم تكن لدى فرع امن الدولة اية معلومات عن هذه السفرة وانما اعتقدوا ان «التايمز» ارسلتني الى اسبانيا من مقر رئاسة تحريرها مباشرة . وعندما اخبرت وايت بذلك ، مباشرة سألني ، فيما إذا كنت قد قمت بتلك الرحلة على نفقتي الخاصة ام لا . كان ذلك سؤالاً قذراً ، لأنني قمت بتلك الرحلة بمهمة من المخابرات السوفييتية ، وهي التي غطت نفقات رحلتي تلك . ونظرة سريعة الى حسابي في البنك آنئذ تثبت قطعاً ، انه لم يكن باستطاعتي ان اتنزه في اسبانيا ، في ذلك الوقت على نفقتي الخاصة .

وفي هذه المسألة كان يكمن خطر آخر : القضية هي ان تغطية نفقاتي كانت تتم عبر بيرجيس . قلت ، ان تلك الرحلة كانت مهمة جداً بالنسبة

لي ، وانني كنت اعقد عليا آمالا كبيرة لدخولي عالم الصحافة ، ولذلك لم اتردد في بيع كل اشيائس الشخصية (كتبي واسطواناتي بشكل اساسي) ، لأتمكن من تغطية نفقات الرحلة . وهكذا لم تكشف علاقة بيرجيس برحلتي الى اسبانيا . لا شك انني كنت قد حضرت وجهة نظري مسبقاً ، ولكنه كان علي ان اشرح اشياء كثيرة اضافية كهذه .

عندما طلبت كتابة حديثنا الثاني ، وافق وايت على ذلك ، ولكنه طلب ان اكتب عن بيرجيس قليلا واركز على خط سير مستقبلي شخصياً . والآن اصبح كل شيء جليّاً . لذلك لم استغرب عندما طلبني الشيف اليه . قال لي ، انه استلم رسالة شديدة اللهجة من بيديل ـ سميث ، تنفي قطعياً امكانية عودتي الى واشنطن . فيما بعد علمت ان الرسالة اعدها بيل هارفي . وكان بيرجيس قد اهان زوجة هارفي في احدى حفلات الاستقبال في بيتي . وكنت قد اعتذرت في حينها عن تلك الاهانة ، وبدا ان الاعتذار نُبِل ، لذلك كان من الصعب ان افهم حقيقة الحقد الذي يحمله بيل . ثم طلبني الشيف ثانية ، وافهمني باختصار انه علي ان اقدم استقالتي . وقد اظهر طيبة القلب ، عندما امر باعطائي اربعة الآف جنيه بدلاً عن راتب التقاعد . ولكن اضطرابي ازداد ، عندما قال انهم لن يسلموني المبلغ دفعة واحدة . بل سيصرفون لي الآن الفي جنيه ، والباقي سيدفع لي على دفعات ، خمسمائة جنيه كل ستة اشهر . بحجة انه يمكنني ان اخسر نقودي بالمضاربة بالبورصة . ولكن طالما انني لم اضارب بالبورصة اطلاقاً ، بدت هذه الحجة ساذجة . بالارجح كانت تلك طريقة لتأمين معيشتي فيما إذا تقرر وضعي في السجن خلال السنوات الثلاث القادمة .

وهكذا اصبحت وحيداً مع الالفي جنيه وغيوم سوداء داكنة تتجمع فوق رأسي . لقد امضيت الصيف باحثاً عن مسكن واخيراً استقريت في قرية بالقرب من ريكمانسورت . كان قد حل تشرين الثاني ، عندما اتصل بي الشيف وطلب مني ان آتي اليه في اليوم التالي الساعة العاشرة . توجهت الى

لندن في صباح شتوي رائع . لقد اوضح لي الشيف ، انه قد بدأ التحقيق رسمياً في مسألة هروب بيرجيس وماكلين . ويقود التحقيق المستشار الملكي ميلمو ، الذي عمل خلال الحرب في فرع امن الدولة . وعلي ان ادلي بمعلومات ؛ ثم عبّر الشيف عن امله في الّا يكون لدي اي اعتراض . ولكن مجرد ذكر اسم ميلمو يعني ، ان هناك ازمة تقترب . لقد عرفت ميلمو وسمعت عنه . هذا الرجل محققاً مجرباً بارعاً يستدعيه فرع امن الدولة عادة للتحقيق في القضايا ذات الاهمية الخاصة . وعندما كنت اتوجه مع الشيف بالسيارة عبر سانت ـ جيمس ـ بارك الى ليكونفيلد ـ هاوس ، كنت اهيء نفسي لخوض معركة مصيرية ، كان املي كبيرا في ان اكسبها ، لأن التحقيق سيكون على اساس براهين معروفة بالنسبة لي . ولكن لم يكن باستطاعتي ان أكون واثقاً من انه لم تقع بين يدي ميلمو براهين جديدة قد تؤدي بي الى الهلاك .

لدى وصولي الى ليكونفيلد ـ هاوس قدموني الى رئيس القسم القانوني في فرع امن الدولة وبعدها اخذوني الى ميلمو . كان هذا رجلاً جسيماً ذا وجه دائري . جلس عن يمينه ارنور مارتين ، شاب هادىء ، واحد من المحققين الرئيسيين في قضية ماكلين . طيلة فترة التحقيق كان يراقبني بصمت . وعندما نظرت عبر النافذة ، وجه لي ملاحظة ، وعندما أدرت اصبعي ، وجه الثانية . القى ميلمو علي تحية جافة ، وتحوَّل مباشرة الى الطريقة الرسميّة طالباً مني ان اقلع عن التدخين ، لاننا بصدد «تحقيق قضائي» .

مفهوم ان هذا مجرد هراء . . وخطرت لي فكرة ان اطلب من ميلمو إذناً رسميّاً بالتحقيق معي او ان اعلن ان فرع امن الدولة ليس المكان المناسب لاجراء تحقيق قضائي . ولكن ذلك لا يتفق مع الدور ، الذي قررت ان العبه ، اي دور موظف سابق في جهاز الاستخبارات البريطانية ، والذي يهمه ايضا ، تماما كما يهم ميلمو ، ان تكتشف حقيقة قضية بيرجيس وماكلين . ومضت ثلاث ساعات متواصلة وانا اجيب على الاسئلة التي توجه

الي ، سامحاً لنفسي ان اقطعها احياناً ، بثورة غضب عندما توجه الي تهمة مباشرة . لقد كانت لدي قناعة تامة ، انه لا جدوى من محاولة اقناع ميلمو ، رجل المخابرات السابق ، باي شيء ، وانما كان علي فقط ، الاّ ادلي بالاعترافات التي يحتاجها هو من وجهة النظر القانونية .

لقد كنت طرفاً معنياً جداً بذلك التحقيق ، ولذلك لا استطيع ان اعطي تقويماً موضوعياً لمواهب وامكانيات ميلمو كمحقق محترف . فالقسم الاكبر من الاسئلة كان معروفاً بالنسبة لي ، وإجاباتي عليه كانت محضرة مسبقاً ، تاركاً له امكانية الصراخ فقط . لقد اكتشف ميلمو ضعف مواقعه منذ البداية ، متهما اياي بائتمان بيرجيس على «وثائق مؤهلاتي الشخصية» . الاتهام كان تافهاً لدرجة انني لم اكلف نفسي عناء إزالة الإشكال المترتب عليه . ظهر انه خلال تفتيش شقة بيرجيس بعد هروبه تم العثور على دبلومي الذي حصلت عليه من كامبريدج . وكنت قد وضعت تلك الوثيقة العديمة الفائدة في احد الكتب منذ سنوات عديدة . واي شخص يعرف بيرجيس كان باستطاعته ان يقول لميلمو ، ان عيب بيرجيس الذي لا يمكن اصلاحه : انه كان يأخذ الكتب بموافقة اصحابها ، او دون موافقتهم . ولكن هدف هذا الاتهام ينحصر في محاولة اثبات انني اقلل من مستوى علاقتي مع بيرجيس قصداً . كانت تلك محاولة فاشلة لأنها تفتقر الى مقومات ناجعة ، وقد زاد من ثقتي بالنهاية التي ستصل اليها القضية .

ولكن بعض ملاحظات ميلمو واسئلته غير المتوقعة ، خلقت عندي قناعة بان سلسلة الاتهامات اطول بكثير مما توقعت . فبعد يومين من وصول المعلومات بخصوص قضية فولكوف ، الى لندن ، ارتفع عدد البرقيات اللاسلكية بين لندن وموسكو ، وتلاها ارتفاع مشابه بعدد البرقيات المتبادلة بين موسكو واستطنبول . بالاضافة الى ذلك ، مباشرة بعد الاعلام الرسمي عن وجود مصدر لتسرب المعلومات من السفارة الانكليزية في واشنطن ،

تكررت النغمة نفسها في حجم البرقيات المتبادلة مع موسكو . بالمقارنة مع بقية الوقائع ، كانت هاتان النقطتان اكثر جدية . ولكن بالنسبة لي كمتهم لم تكن لهما اية قيمة . فعندما طلب مني ميلمو بصوت راعد تفسير هذه المطابقة ، اجبته بكل بساطة بانني لا استطيع ان افعل . كنت قد بدأت اتعب ، عندما استسلم ميلمو فجأة . وطلب مني ان انتظر بضعة دقائق . وبعد خروجه من الغرفة المجاورة ، اختفى ميلمو ، وحل محله المستشار القانوني لفرع امن الدولة . حيث طلب مني تسليم جواز سفري ، مشيراً ، الى انه كان باستطاعتهم سحبه . ووافقت بكل طيبة خاطر ، لأن خطة هروبي لا تحتاج لوجود اية وثائق . ولكنهم رفضوا ان ارسل لهم جواز السفر بالبريد المسجل ، على اعتبار ان ذلك مغامرة لا حاجة لها . وارسلوا معي جون سكاردون ، ليأخذ جواز السفر مني في البيت . في الطريق الى البيت بدأ سكاردون يلقي عليّ المواعظ بوجوب تقديم كافة المساعدات للسلطة وعدم مقارعتها . ولا اخفي انني احسست بارتياح كبير لدى سماعي تلك المواعظ ، ولكن شعوري هذا كان يخالطه وعي للمخاطر الكبرى المتوقعة .

خلال الاسابيع التالية ظل سكاردون يتردد علي لمتابعة التحقيق . لقد كان لطيفاً جداً حتى انني كنت اخجل من الاهتمام الكبير الذي كان يعطيه لآرائي وتصرفاتي . لقد كان هذا الرجل اخطر بما لا يقاس ، من وايت غير الموهوب او ميلمو الصاخب .

لم انس ابداً ، ان سكاردون بالذات هو الوحيد الذي استطاع ان يدخل ابواب فوكس (مما كانت له نتائج قاتلة) ، وهذا ما ساعدني ألاّ اقع في الفخ الذي حاول سكاردون جرّي اليه باسلوبه اللبق جداً . خلال اول لقاء لنا اكتشفت انه نصب لي فخين صغيرين وقد تمكنت من تجاوزهما . ولم اكد اهنيء نفسي على ذلك ، حتى تصوّرت ، أنه ربما نصب لي افخاخ اخرى لم انتبه اليها .

وحتى هذا السكاردون كان له اخطاؤه . ففي بداية احد اللقاءات

طلب مني تفويضاً بإجراء كشف لحسابي في البنك . وكان باستطاعته ان يحصل على إذن قانوني بذلك حتى دون موافقتي . ولذلك لم اعترض ، لأنني كنت متأكداً من انه لن يجد هناك اية دلائل لودائع غير قانونية ، لأنها ببساطة غير موجودة . وبعد ان سلمته التفويض الذي طلبه ، تابع حديثه معي عن أموالي ، وقد اغتنمت هذه الفرصة لاعطائه معلومات مزوّرة .

كان لي هدف جدي من وراء هذا . فقد استطعت ان اجد تفسيراً مقبولاً لأكثر النقاط المثيرة للشك في حياتي ، ولكن ليس لكلها . ولذلك حيث لم يساعدني خيالي على التأليف ، لجأت الى ضعف الذاكرة . فانا بكل بساطة لم استطع ان اتذكر هذا الوجه او ذاك ، هذا الحدث او ذاك . وقد اعطتني الاسئلة التي طرحت علي بخصوص اموالي امكانية اثبات ضعف ذاكرتي . فإذا كنت لا اذكر عملياتي المالية ، فمن المشكوك فيه ان استطع تذكر كل احداث حياتي الخاصة او المتعلقة منها بالمهنة .

بعد عدة تحقيقات قطع سكاردون زياراته لي . ولم يقل اذا كانت النتيجة قد ارضته ام لا . انها ببساطة اصبحت معلقة في الهواء . بالطبع ، كان سكاردون متأكداً من انني اخفي كل ما له اهمية . وانا على استعداد ان ادفع الكثير مقابل السماح لي بالاطلاع على تقريره النهائي بشأن التحقيق معي . ولا شك ان الاتهامات التي وجهت ضدي كانت مروّعة ، ولكنها لم تكن حاسمة . غير أن دعوة واحدة اخرى الى برودفيي اقنعتني بخطأ هذا الاعتقاد . في هذه المرة تولى الشيف نفسه ومعه ايستون مهمة التحقيق معي . ومع انه من المؤسف حقاً ان يكذب المرء امام انسان شريف كسينكلير ، ولكنني آمل ، انه يفهمني الآن ، وانني عندما كذبت امامه ، كنت ايضا ادافع عن مبادئي ، تماما كما كان هو يدافع عن مبادئه . ولكن المبارزة مع ايستون كانت ممتعة حقاً . لأنني قد اكتسبت تجربة كبيرة اثناء تحقيقات وايت ، ميلمو وسكاردون ، لذلك كنت واثقاً من انه لن ينجح حيث فشلوا . وهكذا كان .

الفصل الثالث عشر

الغيوم تتبدد

خلال عامين لم يزعجني احد ، والاصح ، سادت حالة من الحياد المسلّح . لم اتصور ابدا ، ان قضيتي انتهت تماماً واقفل عليها ، مع انه لم تقدَّم ضدي اية اتهامات . حتى انني حافظت على علاقات ودية مع بعض زملائي سابقاً في فرع امن الدولة وجهاز الاستخبارات البريطانية . كان هذا زمن القلق . كنت امتلك اثناءها الفي جنيه وآمل ان احصل على الفين آخرين مستقبلاً ، بالاضافة الى ذلك ، كان هناك الفان ـ ثلاثة كتأمين . ولم يكن لدي اي امل في الحصول على عمل جيد ، لأنني ما ان اطلب العمل من اية جهة ، حتى تبادر الى سؤالي ، لماذا تركت العمل في السلك الدبلوماسي . وافضل امكانية للعمل ، بالنسبة لي ، كانت الصحافة ، فتوجهت بافكاري الى اسبانيا ، حيث بدأت نشاطي . ولا اعتقد انه كان بالامكان ايجاد اي مكان آخر ، يوفر لي امكانية التخلص من الشبهات . لذلك كتبت رسالة الى سكاردون اطلب فيها إعادة جواز سفري . وقد تم ارساله فوراً ودون اية ملاحظات .

كانت إقامتي في اسبانيا قصيرة جداً . فبعد وصولي الى مدريد بثلاثة اسابيع تسلمت رسالة تدعوني للعمل في سيتي . ومع ان الراتب كان متواضعاً ، ولكنه كان يتناسب مع فظاظتي في العمل التجاري . مارست العمل التجاري طيلة عام ، متنقلا يوميا بين ريكمنسوورت وليفربول ـ ستريت . وادركت تماما انني لا انفع في هذا العمل ، ولذلك احسست بالسعادة ، عندما اضحت المؤسسة التي اعمل فيها على اعتاب الافلاس .

امّا اصحاب المؤسسة فقد سرتهم استقالتي . بعد ذلك عملت صحفيا حرّاً كي احصل على لقمة العيش . كان ذلك عملاً صعباً جداً ، ويتطلب مواهب خاصة تتعلق بمدى قدرتي على شن دعاية تجعلني مشهوراً ، وهذه الناحية كانت دائما ضعيفة عندي .

حدث مثير بعث الحيوية في الركود الذي كنت اعيشه . فقد تسلمت رسالة من عضو البرلمان المحافظ ، الذي يمثل دائرة ارنوديل وهارشيم ، يدعوني فيها الى كأس شاي في مجلس الشيوخ . وبعد ان شرح لي انه طُرد من العمل في وزارة الخارجية ، وقد اعترف بكل صدق انه يخوض حرباً ضد الوزارة بشكل عام وضد انتوني ايدن بشكل خاص . ولم تكن مواقعه ، حسب رأيه ، ضعيفة ، ذلك انه كان يمثل واحدة من اكبر الدوائر في البلاد كلها ، والمنظمة المحلية لحزب المحافظين تأتمر بأمره . وسمع بانني ايضا طردت من العمل في السلك الدبلوماسي ولذلك توقع انني احس بالمهانة نتيجة ذلك . وسيكون شاكراً لي فيما إذا اعطيته اية مواد تساعده على تشويه سمعة وزارة الخارجية . ثم توسع كثيراً في شرح هذا الموضوع . فأجبته بانني افهم تماما الاسباب التي دعت وزارة الخارجية لأن تطلب مني تقديم استقالتي ، فتركني وانصرف فوراً .

خلال تلك الفترة درستُ خطة هروبي عدة مرّات . لقد وُضعت الخطة اول ما وضعتْ لظروف امريكا وكانت تحتاج الى بعض التغيّرات البسيطة كي تصبح ملائمة لظروف اوروبا . وفي بعض الحالات كان تنفيذ الخطة من لندن اسهل من تنفيذها من واشنطن ولذلك كلما فكرت بهذا ، تصورت انه لا توجد ضرورة قصوى للهرب . واخيراً وقع حادث ، اقلعت بعده نهائياً عن التفكير بالهرب . فبشق النفس وصلتني رسالة من الاصدقاء السوفييت ، يدعونني فيها ألّا ايأس ويؤكدون استئناف الاتصال بي قريباً . وهذا ما قلب الموازين رأساً على عقب . إذاً لست وحيداً .

العاصفة تتجمع ، وانا اراقبها منتشياً . فقد بدأت ما سمِّي

«بالاكتشافات» الجديدة في قضية بيرجيس وماكلين . لقد اثار فليت ـ ستريت من جديد ضجة عن «الشخص الثالث» ، ولكن هذه المرة تردد اسمي في الاعلام . ومن العجيب ، انه في ظروف ، عندما انفق الاعلام مئات الآلاف من الجنيهات في البحث عن دلائل كاذبة فارغة عن اختفاء الدبلوماسيين ، كان بحاجة الى اربع سنوات للوصول اليّ ، وحتى هذا حدث بفضل اهمال ما . لقد قال لي احد اصدقائي من الاستخبارات البريطانية ، ان تلك الفجوة احدثها احد ضباط الشرطة المتقاعدين . وكان معروفا لنا نحن الاثنين بثرثرته . والتفسير بدا معقولاً ، لأن اول من سمع النبأ هم مراسلو البوليس . فيما يتعلق بالبحث عن «الشخص الثالث» اشارت «الديلي ايكسبريس» الى «ضابط في جهاز الامن» من السفارة الانكليزية في واشنطن ، الذي طلب منه ان يقدم استقالته . كانت تلك معلومات غير دقيقة ابداً . فأنا لم اكن قط ضابطا من ضباط جهاز الامن ، ولكن ذلك التوقع كان قريباً الى درجة كافية ، لكي يعيدني لاثارة البحث عن الافتراء ضد اول صحيفة ، تذكر اسمي . وسرعان ما ظهر اول زائر من فليت ـ ستريت . اتصل بي من لندن وطلب تصريحاً صحفياً . فطلبت منه صياغة اسئلة كتابة . وبعد ساعتين اتصل بي من المحطة ، وكنت قد قررت التصرف معه بطريقة شكلية بحتة ، فقد طلبت منه عهداً خطياً بانه لن يتم نشر اية كلمة دون موافقتي مسبقاً على ذلك . وشرحت له بان القسم الاكبر من معلوماتي حول قضية بيرجيس ماكلين مأخوذة من مصادر رسمية ولذلك فانه بالامكان اتهامي بخرق قانون الحفاظ على اسرار الدولة ، فيما إذا ناقشت هذا الامر . وبعد ان اتصل برئيس تحرير جريدته ، انصرف خالي الوفاض . ولكن بعد ذلك تحول الاعلام الى الهجوم .

عليّ ان اشير الى انني انتقلت من هارتفوردشير الى سوسيكس واقمت في كراوبرو ، في منتصف الطريق بين اكفيلد وايريدج . وبالمصادفة السعيدة لم اكن المقيم الاثري الوحيد في هذه الدائرة . ففي اكفيلد في ذلك الوقت

عاشت الاميرة مارغريت ، وفي ايـريدج - بيـتر تاونسينـد . كان المصـورون والمراسلون ينشغلون صباحاً بالاميرة ، وبعد الغذاء بتاونسينـد او العكس . وفي كلا الحالتين كانوا يهاجمونني بعد الغذاء . كان ذلك ملائما من وجهتين . اولا ، حقيقة ان المراسلين اصبحوا يضايقـونني وجيراني المـذكورين ، حـول الرأي العام المحلي لصالحي . حتى حارس الحديقـة ، الرجـل القوي البنيـة الصغيرة القامة ، عرض علي ان يقتحم بيت اي مراسـل من هؤلاء المراسلين اريده . ثانيا ، نظام زيارات المراسلين ساعدني على التخلص منهم ، لذلـك اصبحت استيقظ في الخامسة ، اتناول فطوري في السادسة ، واتناول غذائي في التاسعة والنصف ، وعندما يجتمع هؤلاء امام بيتي ، اكـون اتنزه في غـابة ايشـداونسك وعنـدما اعـود الى البيت في الثالثـة لا اجد احـدا منهم . هـذه الطريقة خانتني مرة واحدة في احد الايام . حيث تسللت سيدة من «ساندي بيكتـويال» الى البيت في وقت متـأخر من مسـاء السبت وطلبت مني ان اعلق فـوراً عـلى «مقـال خـطير جـداً بـالنسبـة لي» ، كتب المقال واحـد «من اصـدقائي» . كـان المقال سينشر في الصبـاح التالي . ولكنني رفضت قـراءة المقـال او التعليق عليه وطـردت السيدة من البيت عنـوة تقريبـاً . في الصباح التالي اشتريت «الصانـدي بيكتوريال» ولم اجـد كلمة واحـدة عني،«الصديق» خاف . وعندما تأزم الوضع ، اتصلت باصدقائي في المخابرات البريطانية . فالحوا على بألا اعـطي اي تصريح ، يمكن ان يشكـل ضرراً على القضيـة . فالحكومة تعهدت ببحث القضية ، وكان مهماً جداً الايتأزم الوضع . وطلبوا مني اولا ان اوافق على الاستجواب الاخير ، الذي سيجـريه معي اثنـان من زملائي في الاستخبارات البريطانية سابقاً ، وثانيا ، تسليم جواز سفري مرّة اخرى . وقد وافقت على الطلبـين معاً : سلمت جـواز السفر ، وذهبت الى لندن مرّتين للاستجواب . جرى الحـديث مجراه القـديم ، مما دلَّ عـلى عدم توفر اية ادلة جديدة . بـالاضافـة الى ذلك فـإن حقيقة انني لم احـاول الهرب طيلة تلك الفـترة الطويلة بـدأت تتحـوّل لصـالحي . هـا قـد بـدأت الآثـار

تختفي تدريجياً ، وكانت القضية غامضة لـدرجة تكفي لأن تقـذف من على المنبر بأي محام كان .

طالما انني اصبحت مركز اهتمام الجميع ، لـذلك الغيت مقـابلتين مـع اصدقائي السوفييت . ولكن عندما حل موعد اللقـاء الثالث ، قـررت انهم قد يكونون بحاجـة لمعلومات ، وانـا احتاج الى الـدعم . وشغل هـذا يومـاً كاملاً . سافرت من كراديورد في الصباح الباكـر ، تركت سيـارتي في تونـبر - يدج واخذت القطار الى لندن . كنت آخر من دخل القطار . خرجت منه في محـطة واترلـو ، وكما هـو مطلوب بحثت حـولي ، ثم ركبت المترو الى محـطة «تـوتينهيم - كـورت - راود» . وبعـد خـروجي من المـترو ، اشـتريت قبعـة ومعطفاً وتجولت ساعتين في الشوارع . اكلت شيئـاً ما في البـار ، ولجأت الى الطريقة المجـربة في الاختفـاء : اشتريت بـطاقة للسينـما ، اخذت مكـاني في الصف الاخير وخرجت من القـاعة في منتصف العـرض . لقد كنت متـأكداً من عـدم وجود احـد يتبعني ، ولكنني امضيت عدة سـاعات اخـرى ، لكي اتـأكـد من ذلـك تمامـاً . تجولت في منـاطق ، لم ازرهـا في حيـاتي ، ركبت البـاص ، ثم مشيت . وبعد سـاعتين من هبـوط الظلام تـوجهت الى مكان اللقاء . ولا ارى حاجة للكلام عما جرى هناك .

قرأت الاخبار في المترو ، فقد نظرت عبر كتف جاري ، فرأيت اسمي في العنـاوين الكبيرة لصحيفـة «ايفنينـغ ستـانـدارت» . العقيـد مـاركـوس ليبتون ، عضو البرلمان عن بريكستون ، سأل رئيس الوزراء ، فيما إذا كان لا يـزال مصرّاً عـلى اخفاء دور «الشخص الثـالث» - مستر فيلبي . [1] واول رد

---

(١) في ٢٥ تشرين اول للعام ١٩٥٥ سأل ماركوس ليبتون رئيس الوزراء انتوني ايدن ، فيما إذا كان ينوي تعيين لجنـة خاصـة لبحث ظروف اختفـاء بيرجيس ومـاكلين . بعـد ذلـك سـأل عن نشـاط «الشخص الثالث» ، فيلبي . لقد وعـد ايدن بـطرح القضية للبحث . وقـد طرحت القضيـة في ٧ تشرين الثاني ١٩٥٥ . خلال البحث اعاد وزير الخارجية هـارولد مـاكميلان اعتبـار فيلبي مواطنـا لاشبهة حوله .

فعل لي كان عبارة عن خيبة امل كبيرة . كـان ليبتون يتمتـع بامتيـازات عضو البرلمان ، ولم يكن باستطاعتي ان اضعه امام القضاء . بالاضافة الى ذلـك ، فقد حطم آمالي بالحصول على كمية ضخمة من المال من احدى صحف بيفـر بروك ثمناً للكذب . كان لابد من التحرك . لقد انتقلت للعيش مع والـدتي مؤقتـاً في دريتـون ـ كـارديـنس ومن هنـاك اتصلت بـاصـدقـائي في جهـاز الاستخبـارات الـبريـطانيـة : قـررت ان اقـول لهم انني لم اعـد استـطيـع الصمت . وقد وافقوا على رأيي ، بانني في وقت مـا يجب ان اقول شيئـاً ما ، وطلبوا مني ثانية ان اؤجل التصريحات الصحفية الى مـا بعد بحث القضيـة في مجلس الشيوخ .

بقي اثنـا عشر يومـاً عـلى مـوعـد بحث القضيـة في مجلس الشيـوخ . قطعت جرس الباب ووضعت فوق جهاز التلفون عدداً كبيراً من الوسائـد . لم تسمح لي والدتي بنزع مطرقـة الباب ، لأن طـرقاتهـا في اي حال لا تسمـع داخـل البيت . ولكنني لم اكن بحاجـة لنزعهـا ، لأن المـراسلين والمصـورين خلال يومين انتزعوها واضطررنا الى انزال برداية نافذة المطبخ ليل نهار ، لأن احد الصحفيين صعـد الى سلم الحريق ونـظر عبر نـافذة المـطبخ ، فـارعب الطباخة . وفي الوقت نفسـه كنت احضر تصريحي للصحافـة . كان الكثير يتعلق بقدرتي على اعـطاء هذا التصريـح نغمته الصحيحـة . فإذا لم استطع اجبار ليبتون على سحب تصريحه ، يبقى امامي مخرج واحد هو الهرب .

انتـظرت نهاية مـرضية . لقـد تـأتى لي سـابقـاً ان اشـارك في كثير من المؤتمرات الصحفية ، وكنت اعلم اية فوضى تسود ، عندما يبدأ الكل سويـة بطرح اسئلتهم كان علي ان استطيع السيطرة عـلى سير المؤتمـر الصحفي ولو لمدة نصف ساعة ، كي استطع ان اركز اهتمام الصحافة على تصريح ليبتـون وان ابيّن لهم فظاعة الاتهامات التي وجهها لي . وليس مهـماً ، ماذا يسـألونني بعد ذلك : كـل اجوبتي جـاهزة . المنطق البسيط اوصلني الى استنتـاج ان اتهامات ليبتون لن تعيش . فلو كانت لديه بـراهين ذات اهميـة لاعطاهـا الى

اصحاب السلطة المعنيين ، بدلاً من ان يحذرني علناً في مجلس الشيوخ . ولو حصل هؤلاء على اية براهين قاطعة من ليبتون او اي شخص آخر ، لاتخذوا الاجراءات اللازمة لاعتقالي . إذن لا ليبتون ولا احد غيره توجد لديه مثل تلك البراهين . والعامل الحاسم في هذا الموضوع هو صمت جهاز الامن ، الذي توجد لديه معلومات حول هذه القضية اكثر بعشر مرات مما لدى فليت ـ ستريت . لذلك كان علي ان اخاف جهاز الامن وليس الاعلام .

حل موعد المناقشة في البرلمان . القى هارولد مكميلان وزير الخارجية خطاباً باسم الحكومة ، قال فيه ، بانني قمت بواجبي على اكمل وجه ونفذت المهمات التي اوكلت اليّ بشرف واخلاص (وهذا مطابق للواقع) وانه لا توجد اية دلائل تشير الى إنني خنت مصالح الوطن (وهذا تماماً صحيح) . هذا التصريح كان حماية رسمية لي . عندها رفعت الوسائد عن التلفون وطلبت من والدتي ان تقول لكل من يتصل بي ، انني استطيع استقبال الزائرين في الساعة الحادية عشر من صباح اليوم التالي . خلال عشرين دقيقة لم تتوقف المكالمات الاّ عندما كانت والدتي تلقي السماعة ولا تكاد ترفع يدها عنها حتى يرن جرس الهاتف . بعد ذلك حل الهدوء . اتصلت باحد معارفي في الاستخبارات البريطانية واحطته علماً بالتصريح العلني الذي انوي اعلانه غداً ، ثم دخلت لانام .

بدأ جرس البيت يقرع من العاشرة والنصف ، وطالما انه كان في نيتي ان افرض سيطرتي على سير المؤتمر ، فلم اكن مستعجلاً لافتح الباب . لقد قلت في الحادية عشرة ، يعني ، هكذا سيكون في الحادية عشرة وفي الوقت المحدد فتحت الباب : «يا الهي !» لقد كنت انتظر ان يأتي الي لا اكثر من عشرة زائرين ، ولكني رأيت طابوراً لا نهاية له . تصوّرت انه من غير المعقول ان تتسع غرفة الضيوف لكل هذا العدد ، ولكنها بشكل ما اتسعت . اشتغلت آلات التصوير لمدة خمسة دقائق دون انقطاع ثم اختفى المصورون بعدها وعندما جلس الجميع ، طلبت من احد المراسلين ، وكان

جالساً في الكرسي ، ان يخلي المكان لاحدى زميلاته ، وكانت تقف قرب الباب . فنهض فوراً وكان يبدو عليه الضيق ، وجلست المرأة بسرور ظاهر . كانت مناورة ناجحة : ساعدتني في اخذ زمام المبادرة للسيطرة على المؤتمر منذ البداية .

لقد كتب كثير في الغرب عن ذلك المؤتمر الصحفي . في البداية ، وزعت بياناً مطبوعاً قلت فيه ، انني كنت مجبراً على ان اضبط نفسي عن الكلام بصدد بعض القضايا ، كي لا اتجاوز الحفاظ على اسرار الدولة . بعد هذه الملاحظة كنت جاهزاً للاجابة على الاسئلة . وفي واحد من الاسئلة الاولى تطرّق السائل الى ليبتون ، لم اترك الفرصة تمر . «اما ليبتون ،- قلت ،- فهذا بالضبط يقودنا الى لب الموضوع» . بعد ذلك اعلنت التحدي لليبتون ، بان يقدم براهينه لجهاز الامن او ان يعيد اعلان اتهامه لي خارج مجلس الشيوخ وبعد حوال عشرين دقيقة اعتذر بعض الصحفيين بلطف وانسحبوا . «حسنا ،- فكرت ،- هذا سينشر في الصحف المسائية» . . والآن اصبح الامر اسهل بالنسبة لي ، واقترحت متابعة القاء الاسئلة . ما هو رأيي في بيرجيس ؟ هل كنت صديقاً لماكلين ؟ ما هو تفسيري لاختفائهما ؟ اين هم الآن ؟ ما هي وجهة النظر السياسية التي اعتنقها ؟ هل انا «الشخص الثالث» ؟ الاجابة على هذه الاسئلة كانت سهلة .

بعد ساعة تقريباً انتقلنا الى المطعم ، حيث كانت توجد بيرة واشياء اخرى (لحسن الحظ ، اصبح عدد الضيوف قليلاً) . لقد لاحظت ان موقف المراسلين مني اصبح رائعاً . فقط مراسل «ديلي اكسبريس» اظهر اندفاعاً زائداً ، لذلك كنت اجيب على القسم الاكبر من اسئلته ، نكاية : «دون تعليق !» . فيما بعد علمت ، انه خلال احد عشر عاماً كان يعمل لوضع كتاب عن هذه القضية وها انذا اقتطع نصاً حرفياً من كتاب انتوني بيوردي «بيرجيس وماكلين» «خلال خمس سنوات كاملة لم يفعل شيئاً تقريباً سوى العمل على انجاز ذلك الكتاب» انصحه فقط بدخول دورة لمدة اسبوعين عند

سكـاردون ليتعلم اجراء التحقيق . لقـد مضى وقت تنـاول غـذائي عنـدمـا انصرف آخر زائر لم يترك الاعداد عن المؤتمر الصحفي في الصحف المسائية لي شيئـاً اكثر لاتمنـاه . فالتحـدي الـذي اعلنتـه لليبتـون كـان مكتـوبـاً بـالخط العريض ، حرفيـاً كما صغتـه . والصحف الصباحيـة جددت الارتيـاح التي تركته لدي الصحف المسائية . اتصل بي احـد اصدقـائي الصحفيين وهنـأني على نجاح مؤتمري الصحفي . نشرة اخبار ال ـ بي . بي . سي المسائية اكدت ان ليبتون حضر اجتماع مجلس الشيـوخ ، ولكنه بقي صـامتاً طيلة الـوقت . وفي مسـاء اليوم التـالي استسلم ليبتون . فقـد نقل لي احـد مراسـلي البرلمـان كلماتـه حرفيـاً ، وسألني فيـما إذا كانت لـدي أية تعليقـات . فطلبت منـه ان يتصل بي بعد خمس دقائق . لقد غمرني شعور بالارتياح . ولأول وهلة اردت ان اهنيء ليبتـون عـلى هـذه الخـطوة النبيلة ، ولكنني قـررت ان لا افعـل . واكتفيت بالصيغة التالية «اعتقد ، ان العقيد ليبتـون تصرف تصرفا سليـما . امـا فيما يتعلق بي ، فـانا اعتبر الحدث منتهيـاً» . لأول مـرة منـذ اسبـوعين اصطحبت والدتي الى البار .

الحادث انتهى فعلاً وبقي هكذا لمدة سبع سنوات . الصحافة قـذفتني وكانني حجر مكسور . وعلى ضوء الاحداث اللاحقة يكون من السهل اتهام مـاكميلان ، والحكـومة في انهما اعـطياني شهـادة حسن سلوك . ولكن ليس الذنب ذنبهما . فلم يرغب احد من الحكومة وخاصة من جهاز الامن ان يدلي بـاي تصريح في العـام ١٩٥٥ . فالـبراهين غـير مقنعة . وكـان من الصعب اداني وكذلك كـان من الصعب تبرئتي . ولكنهم اجـبروا على التكلم نتيجـة لتـلك الضجة التي اثـارتها الصحـافة والخـطيئة الغبيـة التي ارتكبهـا العقيـد ماركوس ليبتون .

امّا صحافة بيفربروك فتتحمل مسؤولية خاصة . ذلك ان العـداء بين بيفـر بروك وايـدن ووزارة الخارجيـة كـان السبب في ان تلك القصـة بـدأت واستمرت ، بغض النظر عن سوء التقدير الذي ظهـر . وسيكون ممتعـاً حقـاً

فيما لو قارنا بين النقود التي انفقتها الدبلوماسية البريطانية في الخارج وتلك النقود التي انفقتها «ديلي ايكسبريس» في البحث عن شيء ما جديد في قضية بيرجيس ـ ماكلين . ولكن لا شر بدو خير . فأنا ارى انه من واجبي ان اشكر بيفربروك على السنوات السبع التي عشتها بهدوء وعلى الامكانية التي توفرت لي لمتابعة عملي الذي وهبته كل حياتي .

بغض النظر عن كل هذه الاحداث الدراماتيكية ، فان عملي في الخارج في تلك الفترة لم ينتهِ . من ١٩٥٦ وحتى ١٩٦٣ كنت في الشرق الاوسط . لقد قيل كثير في الصحافة الغربية عن هذه المرحلة من نشاطي . ولكنني اترك كل ما قيل على ذمة القائلين . فالقضية هي ان اجهزة الامن الامريكية والانكليزية استطاعت ان ترسم صورة طبق الاصل تقريباً لنشاطي حتى العام ١٩٥٥ ، اما الفترة اللاحقة من نشاطي ، فليست معروفة لهم اطلاقاً . وليست لدي اية نية ان اساعدهم في ذلك . حتماً سيأتي الوقت الذي استطيع فيه ان اضع كتاباً آخر أروي فيه احداثاً اخرى . وعلى اية حال ، فإنه ليس من غير المهم بالسبة للمخابرات السوفييتية ان تعرف كل شيء عن النشاط التخريبي لوكالة الاستخبارات المركزية والاستخبارات البريطانية في الشرق الاوسط .

محمد يوسف اللحويشي

الفهرس

إنتهيت من مطالعته عند الساعة السابعة مساءً
بتوقيت دمشق الساعة الرابعة بتوقيت جرينتش
من يوم الاحد ١١/٨/١٩٩١م

المطبعة : دار الجمهورية للطباعة
عـدد النسخ ٢٠٠٠
الاشراف الفني والغلاف : بطرس ابوشعر

دار بردى ـ دمشق سورية

الطبعـة الثانيـة _ منقحـة

هـذا الكتاب ليس قصـة بوليسيـة وليس فيه شيء من نسـج الخيـال. في كـل سطـر من سطـوره حقيقة واقعة ، أنـاس حقيقيون ، حـوادث ووقائـع عاشها الكاتب كيم فيلبي الذي يعتبر من ابرز رجال المخابرات في عصرنا الحاضر.

***

لـو سئلت عن امنيتي التي ارغب أن تتحقق، لما اخترت سوى أن أعمل ثلاثة واربعين عاماً أخرى بين رفاقي واصدقائي الذين احببتهم.

إن نشاطي مع المخابرات السوفييتية يعتبـر امتع جانب من جوانب نشاطي بـل أمتع جـانب من جوانب حياتي كلها.

كيم فيلبي

مطبعة الجمهورية ـ دمشق

السعر : ٥٠ ليرة سورية